مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة عشرة • العدد ١٥١ • ربيع الأول ١٤٢١هـ • يونية ٢٠٠٠م

الاقتصاد الإسلامي والعولمة

سياسة عض الأصابع

مأزق الخروج من لبنان

تقديس البشر!

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان
مجلة إسلامية
شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

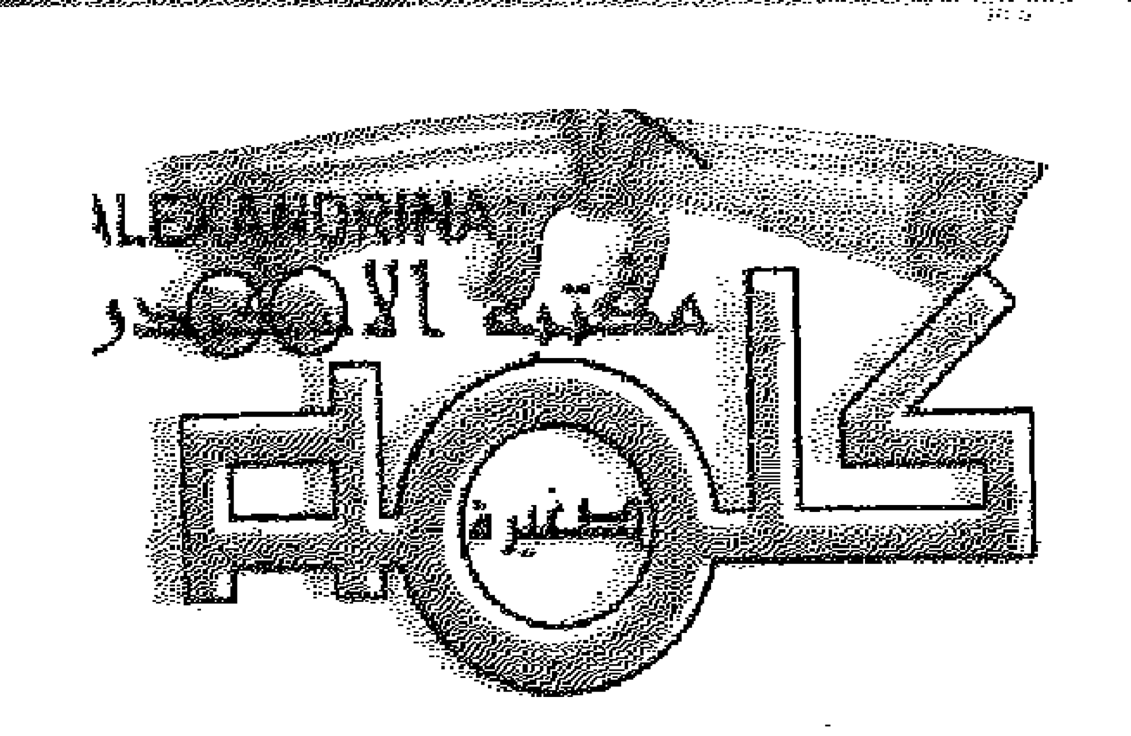
رئيس مجلس الإدارة :
د. عادل بن محمد السليم

المركز الرئيس:
AL-BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

سعر العدد

الأردن ٥٠ قرشاً، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر ٢ جنيه ، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ٥٠ ديناراً، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5
(STERLING OR EQUIVALENT)



بين المجلة وقرائها

إنَّ مما يثلج صدورنا، ويقرّ عيوننا، ويدفعنا إلى المزيد من العطاء والإنتاج بعون الله ـ تعالى ـ تفاعل قرائنا مع مجلتهم، ثناءً وتقويماً واقتراحاً. فكلما ازداد التواصل والتفاعل بين المطبوعة وقرائها ازداد نجاحها واتسعت ساحتها، وإننا نشعر ـ في المجلة ـ بأن قراءنا ليسوا كبقية القراء؛ فهم معنا بعقولهم النيرة، وبقلوبهم المفعمة بالحب والتقدير، يمدون أيديهم إلينا بصدق وإخلاص، وهذا ـ بإذن الله تعالى ـ يزيدنا حرصاً على إرضائهم بما ينفعنا جميعاً في ديننا ودنيانا وعاقبة أمرنا، مع تطلعنا إلى نشر المادة العلمية التي تشبع رغباتهم.

وكم أسعدنا ثناء قرائنا على ملفنا الأخير (ماذا يريدون من المرأة؟!). ونؤكد بدورنا أنَّه ثمرة من ثمار التعاون اليانعة بين المجلة وكتابها وكاتباتها الأفاضل، ويسعدنا أن يستمر هذا التواصل؛ فنحن في هذا الطريق شركاء متعاونون لعمل كل ما من شانه إفادة القارئ وتوجيهه.

وقد طلب منا بعض الكُتَّاب أن نذكر لهم عنوان الملف القادم لعلَّ بعضهم يرغب المشاركة فيه، ونزولاً عند رغبتهم فإن ملفنا القادم ـ بإذن الله تعالى ـ سيكون بعنوان: (التنصير .. أهداف.. ووسائل .. وأرقام) ويشرفنا أن يُثرى الملف بمشاركات الأكفاء من أهل المتابعة والاختصاص. كما يشرفنا أن نستقبل آراء القراء لاقتراح عناوين لملفات أخرى قادمة تثري المعرفة وتنير آفاقنا إلى الصراط المستقيم.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

• العدد ١٥١ • ربيع الأول ١٤٢١هـ/ يونية ٢٠٠٠م

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان



م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	—	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرَق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٣٥٢٢٨٢	٣٥٢٢٩٢
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بور تسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بنين	كوتونو	٠٣-٤١٩٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

الحسابات

- مصرف فيصل الإسلامي حساب رقم: ٠٠٢- ٤٥١٤-٤٢-١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي حساب رقم ٦٣٤٩٢٤
- الإمارات - بنك دبي الإسلامي (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة شارع الأربعين حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
- قطر: مصرف قطر الإسلامي حساب رقم ٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات حساب مجلة البيان. بنك قطر الدولي الإسلامي رقم ٢٤٢٠٧٠٠٧١

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 1AG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452



بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهًا استرلينيًا
أوروبا	٢٠ جنيهًا استرلينيًا
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهًا استرلينيًا
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهًا استرلينيًا
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهًا استرلينيًا

فيه

المراسلات والإعلانات

الدول العربية : البحرين: المحرَق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ - هاتف ٣٣٥٣٠٠ - فاكس ٣٣٦٣٠٠ - السعودية : مكتب مجلة البيان - ص.ب ٢٦٩٧٠ - الرياض : ١١٤٩٦ - هاتف ٤٦٤١٢٢٢ - فاكس ٤٦٤١٤٤٦

البريد الإلكتروني: bayan@naseej.com.sa

أوروبا وأمريكا :

AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

هـذا العـدد

الموزعون

الأردن : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس ٦٣٥١٥٢
الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨
قطر : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس ٦٦٢٤٥٠
مصر : القاهرة – ش الجلاء – الأهرام للتوزيع ، هاتف وفاكس ٥٧٤٧٠٢٣ .
المغرب : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ، هاتف ٢٤٥٧٤٥/٥٤
السعودية : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ، فاكس ٤٦٤٢٩١٩، الشركة الوطنية هاتف ٤٧٨٢٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣ .
اليمن : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف ٢٠٦٤٦٧
السودان : دار اقرأ للنشر والتوزيع ، الخرطوم : ص.ب ٨٨ براري.

الكويت : درة الكويت للتوزيع، ص.ب ٢٩١٢٦، الصفاة هاتف ٤٧٢٤٦٦٦، فاكس٤٧٢٤٥٥٥.
البحرين : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف – المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ – ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
امريكا: International Media Group
Ann Arbor, MI 48107 U.S.A.- P.O. Box 7560
Tel. 734-975-1115 Fax. 734-975-9997



في المؤامرة على المرأة المسلمة:

منظمة العفو الدولية تدلي بدلوها!!

تجتاح منطقتنا العربية في هذه الآونة حمى مسعورة تستهدف المرأة العربية في إسلامها بدعوى نيل حقوقها المهضومة، ويدل التوقيت المتتابع والتشابه في الجزئيات - رغم تباعد المواطن - على أن هذه الحمى ما اجتاحت المنطقة بطريقة عفوية غير مقصودة، وإنما هناك مطالب محددة ومخطط دولي محكم، ربما نسجت خيوطه من مغازل توصيات مؤتمرات القمة الدولية في القاهرة وبكين واستانبول والهند.

فمن الضجة حول قانون الزواج المدني في لبنان الذي أرادوا فيه هدم قيام الأسرة على أساس ديني، إلى الضجة حول قانون جرائم الشرف في الأردن الذي لم يريدوا فيه الدفاع عن حق المرأة في الحياة بقدر دفاعهم عن حقها في التحلل والفجور باطمئنان! إلى الضجة حول مرسوم قانون حقوق المرأة السياسية في الكويت، إلى الضجة حول قانون الخُلْع والزواج العرفي في مصر الذي أرادوا به تفسيخ الأسرة المسلمة وتقنين الانحلال والفساد، إلى الضجة حول قانون الأحوال الشخصية وخطة إدماج المرأة في التنمية في المغرب... وغيرها وغيرها، نقاط متباعدة وخيوط متصلة تنسج شبكة جديدة يراد إيقاع المرأة المسلمة في براثنها.

وفي هذا السياق رصدت مجلتكم البيان خيطاً آخر من خيوط هذه الشبكة ولكن في نقطة بعيدة عن عالمنا العربي، ربما - لذلك - يُعَدُّ أحدَ الحبال (أو الأحابيل) في شبكة هذا المخطط؛ فقد انعقد يوم السبت الحادي عشر من شهر مارس (آذار) سنة ٢٠٠٠م الموافق ١٤٢٠/١٢/٤هـ برعاية منظمة العفو الدولية - مؤتمر حول الحقوق الإنسانية في الشرق الأوسط في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية في العاصمة البريطانية لندن، حضرته ثلة من الناشطات في مجالات العمل النسوي في شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

افتتحت (كيت آلن) مديرة فرع المنظمة في المملكة المتحدة أعمال المؤتمر بالترحيب بالضيوف وتقديم المتحدثات.

وشاركت في الجلسة الأولى كل من: أسماء خضر (الأردن)، أمينة المريني (المغرب)، ناولا درويش (مصر)، د. فاطمة العبدلي (الكويت)، وأدارت الجلسة الدكتورة (لين ولشمان) من مركز القانون الإسلامي والشرق الأوسطي في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية.

وتدل الأسماء العربية المذكورة على أحد أهداف المؤتمر غير المعلنة، وهو زيادة تسخين (قضية المرأة) في المناطق الساخنة المشار إليها سابقاً، إضافة إلى الصعود بها من الصفة المحلية والإقليمية إلى التدويل وتحريك الرأي العام (الغربي) لمساندتها وتأييدها، وهذا ما طالبت به بالفعل بعض المحاضرات كأمينة المريني التي طلبت الدعم من منظمات حقوقية وشخصيات سياسية ومن منظمة العفو الدولية، وميرفت رشماوي التي تحدثت عن عالمية حقوق الإنسان باعتبار حقوق المرأة - كما يطالبن بها - ضمن هذه الحقوق، وأشادت بمؤتمر بكين باعتباره تجربة رائدة، كما أكدت على ضرورة حضور المرأة في المنظمات الأممية.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن نقطة أخرى مهمة وهي حرص أصحاب المشروع التغريبي للمرأة على الاستقواء بأصحاب السلطة والنفوذ لفرض توجهاتهم بالإرهاب المعنوي عبر تمرير مشاريع لقوانين وقرارات حكومية بطريقة مريبة، كما حدث في البلاد المشار إليها، إضافة إلى نموذجي تركيا وتونس، وهذا الملحظ (فرض التوجهات بقوة القانون) كان قاسماً مشتركاً في حديث المشاركات في المؤتمر.

كما يدل اختيار مديرة الجلسة من (مركز القانون الإسلامي والشرق أوسطي) على اتجاه متنامٍ في (تكتيك) إدخال التوجهات الغربية حول المرأة إلى المنطقة العربية و (الشرق أوسطية)، وهو اتجاه استخدم الإسلام (مطية) لحمل هذه التوجهات إلى شعوب هذه المنطقة باعتبار الإسلام هو الدين الشائع بين هذه الشعوب ونظراً لكونه لا يزال يشكل عامل تأثير و (حساسية) لديها، وقد برز هذا الاتجاه في أحاديث معظم المحاضرات في المؤتمر، من خلال محاور طرح (إعادة تفسير الإسلام بما يتلاءم مع التوجهات الجديدة)؛ فالأستاذة أسماء خضر (الأردن) عرّجت على النموذج التونسي باعتباره حمل مفاهيم مختلفة للشريعة للقضايا نفسها محل البحث، ثم طرحت تساؤلاً حول مدى وجوب معالجة هذه القضايا: من داخل الشريعة أم من خارجها؟ وأجابت بأنه ينبغي معالجة الموضوع ضمن الأطر الشرعية وأنه يجب العودة إلى القرآن، ثم طرحت مسألة نشوز المرأة التي تقرر العمل خارج المنزل دون موافقة

زوجها، والفتاة التي تريد الزواج دون موافقة أهلها، وتحدثت عن العلاقة بين قانون الأحوال الشخصية وقوانين الأسرة مبرزة أن المرأة لا زالت بحاجة إلى إذن زوجها للحصول على جواز سفر وأنها تمنع من السفر دون موافقته.

و (التكتيك) ذاته استخدمته أمينة المريني (المغرب)، حيث قالت: إن قانون الأسرة يؤثر عليه الفهم المخطئ لنصوص الشريعة، وأكدت على إمكانية تغيير هذا الواقع بفهم أكثر تطوراً للشريعة؛ إذ يجب علينا القبول بواقعنا وديننا وأن يكون الإصلاح من داخلهما. ثم ذكرت أنه لأول مرة في المغرب وجدت حركة يسارية أيدت بشكل أوسع حقوق المرأة آخذة بتوصيات مؤتمر بكين، وطالبت برفع السن الأدنى للزواج من ١٥ إلى ١٨ سنة، وإلغاء تعدد الزوجات، وحق المرأة في حضانة الأولاد إذا أرادت الزواج مرة أخرى، وأوضحت أن هذا البرنامج لقي معارضة شديدة من الإسلاميين باعتباره مخالفاً للشريعة.

وفي إحدى حلقات العمل المسائية[1] حاضرت البروفسور هالة أفشر (جامعة يورك) حول الحركة النسوية الإسلامية، فأشارت إلى أنه من الممكن وجود نساء إسلاميات داخل الحركة النسوية؛ فهؤلاء النساء يعتبرن أن الماضي كان مفتوحاً أمام المرأة (أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ على سبيل المثال) فمنذ أربعة عشر قرناً تمتعت المرأة بحقوقها كاملة في الإسلام، ولكنَّ قيماً كثيرة تلاشت بسبب سوء فهم النصوص، كما أكدت على أن المعركة كانت دائماً (مع رجال الدين)! باعتبارهم يناهضون المرأة بسبب سوء فهمهم للنص الشرعي؛ فهم يعتقدون ـ كما تقول ـ أن المرأة كائن أقل من الرجل وعليه فهي غير مؤهلة نفسياً ودستورياً لتشغل منصب القضاء مثلاً، وأردفت قائلة: إنه لا يوجد سبب على الإطلاق يجعل منصب القضاء حكراً على الرجال، وخلصت إلى التأكيد على أهمية انخراط المرأة في التفسير والاجتهاد وإلى ضرورة عودة المرأة إلى الساحة وإعادة قراءة النص القرآني، ثم شددت على ضرورة منع تعدد الزوجات باعتباره سلوكاً يقتصر على النبي ﷺ وحده.. وقد أثارت هذه المحاضرة جدلاً شديداً، وشهدت حضوراً مكثفاً.

---

(١) انقسمت أعمال المؤتمر بعد الجلسة الافتتاحية إلى ست حلقات عمل: ثلاث في الفترة الصباحية: موضوع الأولى عن (المشاركة السياسية للمرأة)، تحدثت فيها د. فاطمة العبدلي (الكويت) وإصلاح جاد (جامعة بيرزيت ـ فلسطين المحتلة)، والثانية عن (المرأة والعائلة وقوانين الأحوال الشخصية)، شاركت فيها أمينة المريني (المغرب)، وأسماء خضر (الأردن)، والثالثة حول (العنف ضد النساء) تكلمت فيها ناولا درويش (مصر)، وفي المساء كانت هناك ثلاث حلقات عمل أخرى: الأولى عن (جرائم الشرف في الأردن) تحدثت فيها كل من أسماء خضر وفادية فقير (مركز الدراسات الإسلامية في جامعة دورهام)، والثانية حول موضوع (المرأة والخطاب الثقافي) تحدثت فيها زليخة أبو ريشة (جامعة أكستر) وريم كيلاني (مغنية شعبية فلسطينية)، والثالثة حول (الحركة النسوية الإسلامية)، حاضرت فيها البروفسور هالة أفشر (جامعة يورك)، وفي الجلسة الختامية تحدثت ميرفت رشماوي عن (عالمية حقوق الإنسان وحقوق المرأة).

وقد رأينا بوضوح هذا (التكتيك) ممارسا على ارض الواقع عند تمرير قانون الأحوال الشخصية الجديد في مصر مصاحباً بحملة إعلامية علمانية تؤكد (إسلاميته!).

ونستطيع رصد المطالب التي دارت حولها أحاديث المؤتمرات في الآتي:

١ - حق المرأة في المشاركة السياسية؛ بما فيها حقها في صنع القرار وحقها في الانتخاب.

٢ - حق المرأة في تولي مناصب القضاء والتشريع.

٣ - إطلاق حرية المرأة في التنقل والسفر بغير إذن من رجل (أب أو زوج).

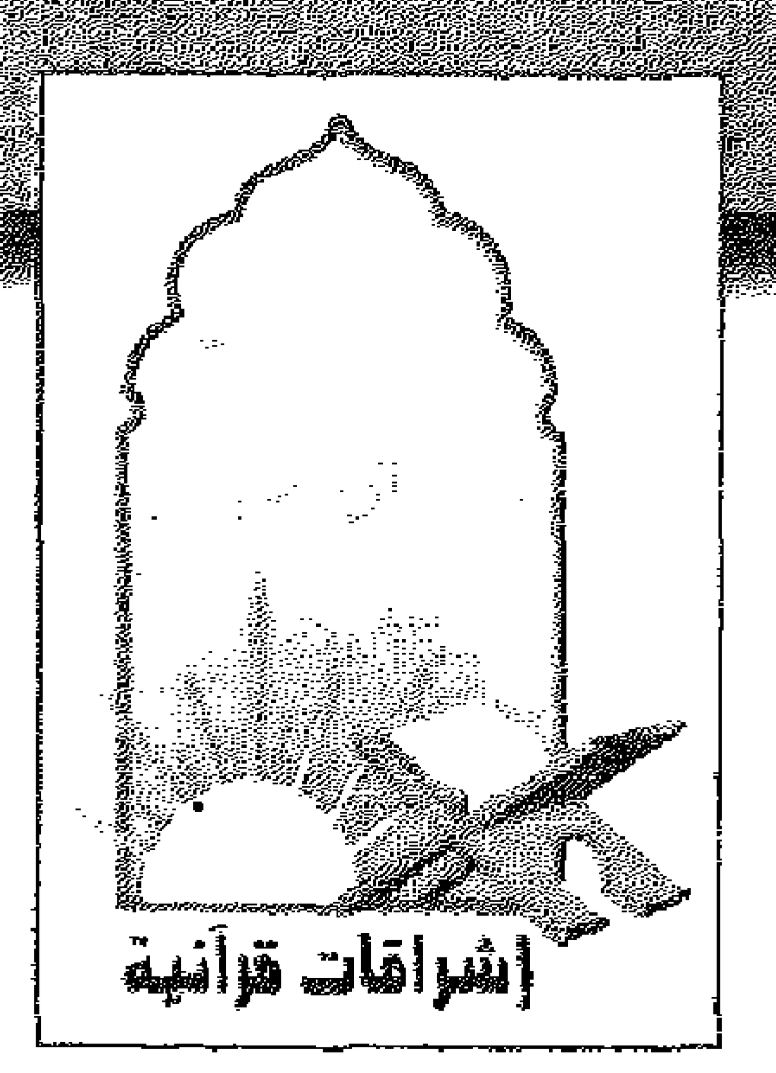
٤ - حق المرأة في الطلاق من غير الرجوع إلى رجل.

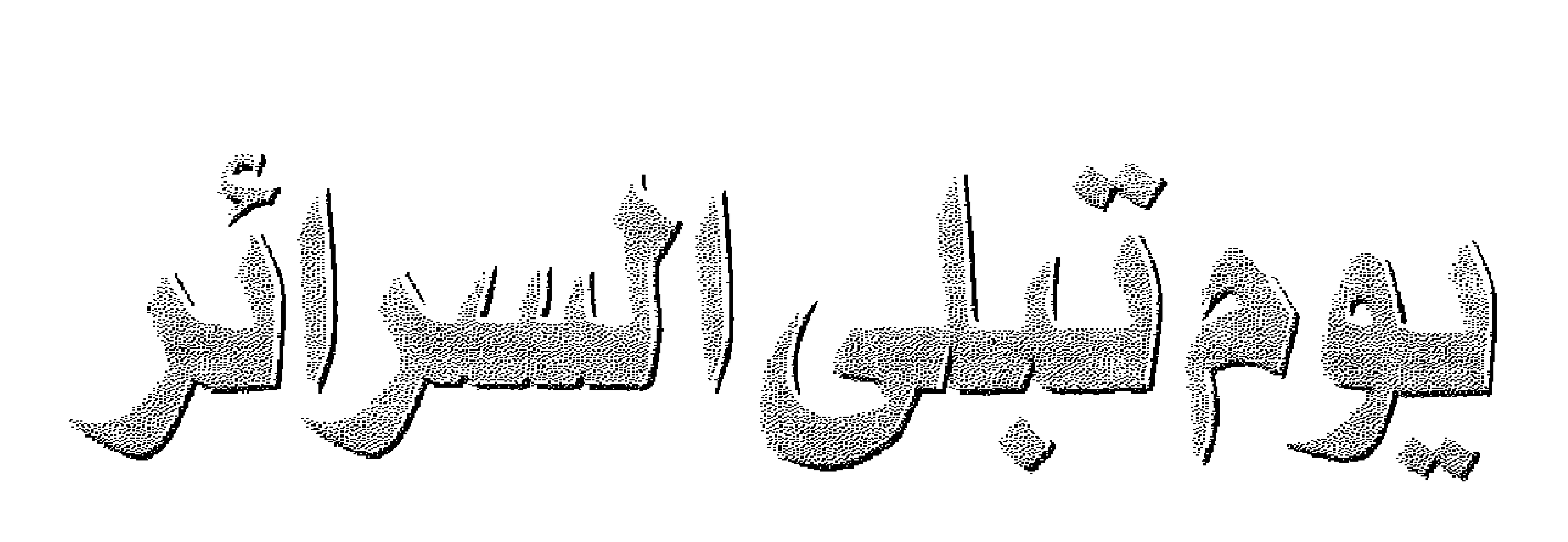
٥ - منع تعدد الزوجات واعتبار ذلك شكلاً من أشكال العنف ضد المرأة.

هذه هي أهم المطالب التي أثارتها المجتمِعات في مؤتمر منظمة العفو الدولية حول الحقوق (الإنسانية) للمرأة في الشرق الأوسط، وهي تدل على أن الحقوق المقصودة هي الحقوق (الإنسانية الغربية)، وتدل أيضاً على انقياد الحركة النسائية العربية خلف الغرب وقيمه؛ فمطالبهم تمس فقط الأمور التي لها علاقة بالشريعة الإسلامية وشكل الأسرة المسلمة باعتبارها ركيزة البناء الاجتماعي الإسلامي الذي لم يقوَ الغرب على هدمه تماماً رغم محاولاته العديدة منذ زمن بعيد، وإلا فهناك حقوق للمرأة لا يلتفت إليها ولا يسمح بالحديث عنها - رغم بداهتها ووضوح اضطهاد المرأة فيها - فهم لا يناقشون مثلاً حق المرأة في ارتداء ما تريده من ملابس إذا كانت هذه الملابس هي الحجاب الشرعي، فنرى المرأة تُمنع من ذلك بقوة القانون والقرارات الحكومية في تركيا وتونس ومصر، بل وفي فرنسا بلد الحريات في أوروبا، وأين الحديث عن حقوق المرأة التي يغيَّب عائلها أو رحمها في غياهب سجون الاحتلال الصهيوني أو النظم العلمانية بدون جريرة غير الدفاع عن مبادئ أمته وحقوق أبناء وطنه؟

ولكن يبدو أن المدافعات عن حقوق المرأة اجتمعن فقط للتأكد على (ضرورة كسر المحرمات من أجل النهوض بوضع المرأة)!. كما عبرت إحدى المجتمِعات. ولكن بالطبع النهوض بها كما يريدون.

ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.





يوم تبلى السرائر

عبد العزيز بن ناصر الجليل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فعنوان هذه المقالة آية عظيمة من كتاب الله ـ عز وجل ـ يذكِّر الله ـ سبحانه ـ عباده فيها بشأن القلوب وأعمالها وسرائرها مما لا يعلمه الناس وهو بها عالم، كما ينبه الله ـ عز وجل ـ من خلال هذه الآية إلى أن هذه السرائر ستبلى وتُختبر يوم القيامة، ويظهر ما فيها من الإخلاص والمحبة والصدق أو ما يضادها من النفاق والكذب والرياء؛ وذلك في يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب؛ وهذا واضح من الآية وما قبلها وبعدها؛ حيث يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨ - ١٠]. والقلب هو محط نظر الله ـ عز وجل ـ وعليه يدور القبول والرد كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١] والسريرة إذا صلحت صلح شأن العبد كله وصلحت أعماله الظاهرة ولو كانت قليلة، والعكس من ذلك عندما تفسد السريرة فإنه يفسد بفسادها أقوال العبد وأعماله وتكون أقرب إلى النفاق والرياء عياذاً بالله ـ تعالى ـ، ويوضح هذا الأمر قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٢]. ويشرح هذا ما نقله صاحب الحلية ـ رحمه الله تعالى ـ عن وهب من قوله: «ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة؛ فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عرقها. العلانية ورقها والسريرة عرقها، إن نُخِرَ العرق هلكت الشجرة كلها ورقها وعودها، وإن صلح صلحت الشجرة كلها: ثمرها، وورقها؛ فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفياً لا يُرى منه شيء؛ كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانيته؛ فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عِرق الشجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قِبَلِ عرقها فإن فرعها زينتها وجمالها، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين فإن العلانية معها تزين الدين وتجمِّله إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ـ عز وجل ـ»[٣].

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: «وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة؛ فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياءاً، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٢٥٦٤. (٢) رواه البخاري، ح/ ٥٠.

(٣) حلية الأولياء، ٤/ ٧٠.



عمله لا سريرته فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها»[1].

وقال أيضاً في تفسير: قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو. وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله؛ فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له. قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه، وشيناً فيها. والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم»[2].

مما سبق يتبين لنا عِظَمُ شأن القلب وخطورة السريرة؛ حيث إنها محط نظر الله - عز وجل - وعليها مدار القبول عنده - سبحانه - وحسب صلاحها وفسادها يكون حسن الخاتمة وسوؤها، وكلما صلحت السريرة تمت الأعمال الصالحة وزكت ولو كانت قليلة، والعكس من ذلك في قلة بركة الأعمال حينما تفسد السريرة ويصيبها من الآفات ما يصيبها، وهذا هو الذي يفسر لنا تفوُّق أصحاب محمد ﷺ على غيرهم ممن جاء بعدهم ممن قد يكون أكثر من بعض الصحابة عبادة وقربات؛ حيث إن أساس التفاضل بين العباد عند الله - عز وجل - هو ما وقر في القلب من سريرة صالحة مطابقة لما ظهر في العلانية من أعمال وأقوال.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم. قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»[3].

وعن القاسم بن محمد قال: «كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة: إن كان يصلي فإنا لنصلي، ولئن كان يصوم فإنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج فإنا لنحج؟ قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت؛ إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة»[4].

وأخبار السلف في حرصهم على أعمال القلوب وإصلاح السرائر كثيرة ومتنوعة، وبخاصة فيما يتعلق بمحبة الله - عز وجل - والخوف منه وإخلاص العمل له - سبحانه - ومن ذلك:

● قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم لغد، والأمانة ألا تخالف سريرةٌ علانيةً، واتقوا الله - عز وجل -؛ فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه»[5].

● وعن عثمان - رضي الله عنه - قال: «ما أسرَّ أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه».

● وعن نعيم بن حماد قال: «سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيت أحداً ارتفع مثل مالك: ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة»[6].

---

(1) بدائع التفسير، 5/185.
(2) المصدر السابق.
(3) صفة الصفوة، 1/420.
(4) المصدر السابق، ص 4/ 145.
(5) سير أعلام النبلاء، 2/572.
(6) المصدر السابق، 8/ 97.



● وعن خالد بن صفوان قال: «لقيتُ مَسلَمة بن عبد الملك فقال: يا خالد! أخبرني عن حَسَن أهل البصرة. قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم: أنا جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قِبَلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قعد به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك! كيف يضل قوم هذا فيهم؟»[1].

● وعن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «ابن آدم! لك قول وعمل، وعملك أوْلى بك من قولك، ولك سريرة وعلانية؛ وسريرتك أوْلى بك من علانيتك»[2].

● وعن ابن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور»[3].

● وعن عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ قال: «قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق»[4].

● ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «فكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها وحسرة عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته ويعين على طاعته ومرضاته؛ فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تبلى السرائر»[5].

ونكتفي بهذه المقتطفات من وصايا السلف في إصلاح السرائر لنتعرف على بعض العلامات الدالة على صلاح السريرة وسلامة القلب؛ ومنها نعرف ما يضادُّها من المظاهر التي تدل على فساد في السريرة ومرض في القلب، ومن هذه العلامات:

١ ـ العناية بأعمال القلوب ومنها: إخلاص الأعمال والأقوال لله ـ عز وجل ـ ومحاولة إخفائها عن الناس وكراهة الشهرة والظهور، والزهد في ثناء الناس. ويضاد ذلك: الرياء وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وحب الظهور.

٢ ـ التواضع والشعور بالتقصير، والانشغال بإصلاح النفس وعيوبها ويضاد ذلك: الكبر والعجب والولع بنقد الآخر.

٣ ـ الإنابة إلى الدار الآخرة والتجافي عن الدنيا والاستعداد للرحيل وحفظ الوقت وتدارك العمر. ويضاد ذلك: الركون إلى الدنيا وامتلاء القلب بهمومها ومتاعها الزائل، ونسيان الآخرة وقلة ذكر الله ـ عز وجل ـ وتضييع الأوقات.

٤ ـ سلامة القلب من الحقد والغل والحسد. ويضاد ذلك: امتلاؤه بهذه الأمراض.

٥ ـ التسليم لأمر الله ـ عز وجل ـ وأمر رسوله ﷺ دون: لماذا؟ وكيف؟ ويضاد ذلك: الولوع بالمتشابهات والخواطر الرديئة.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٥٧٦.
(٢) مدارج السالكين، ١/٤٣٦.
(٣) صفة الصفوة، ٢/٢٣٤.
(٤) المصدر السابق، ٤/١٢٢.
(٥) روضة المحبين، ص ٢٨٠.



٦ - الاهتمام بأمر الدين والدعوة إلى الله - عز وجل - والجهاد في سبيله - جل وعلا - ومحبة كل داعية إلى الخير والحق والدعاء له والتعاون معه على البر والتقوى. ويضاد ذلك: القعود عن تبليغ دين الله - عز وجل - وعدم الاهتمام به، بل إذا صفا له مأكله، ومشربه ومسكنه وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل فلا يهمه بعد ذلك شيء، وقد لا يقف الأمر في فساد السريرة عند هذا الحد، بل قد يتعداه إلى مناصبة الداعين إلى الحق العداء أو التشهير بهم والتشكيك في نواياهم ومحاولة إحباط جهودهم الخيرة.

٧ - شدة الخوف من الله - عز وجل -، ومراقبته في السر والعلن، والمبادرة بالتوبة والإنابة من الذنب. ويضاد ذلك: ضعف الوازع الديني وقلة الخوف من الله - جل وعلا -؛ بحيث إذا خلا بمحارم الله - عز وجل - انتهكها، وإذا فعل معصية لم يتب منها بل أصر عليها وكابر وتبجح.

٨ - الصدق في الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانة وإنفاذ الوعد، وتقوى الله - عز وجل - في الخصومة، فكل هذه الخصال تدل على صلاح في السريرة؛ لأن أضداد هذه الصفات إنما هي من خصال المنافقين الذين فسدت سرائرهم كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[1]، ويدخل في ذلك ذو الوجهين الذي يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

٩ - قبول الحق والتسليم له من أي جهة كان. ويضاد ذلك التعصب للأخطاء، والجدال بالباطل واتباع الهوى في ذلك.

ويحسن في نهاية هذه المقالة الإشارة إلى بعض الثمرات العظيمة لصلاح السريرة وذلك فيما يلي:

١ - نزول الطمأنينة والسكينة في قلب من صلحت سريرته، وثباته أمام فتن الشبهات والشهوات وابتلاءات الخير والشر.

٢ - إلقاء المحبة لمن صلحت سريرته بين الناس مما يكون له الأثر في قبول كلامه ونصحه وأمره ونهيه.

٣ - حسن الخاتمة؛ حيث ما سُمِعَ ولا عُلِمَ - ولله الحمد - بأن صاحب السريرة الصالحة والقلب السليم قد ختم له بسوء؛ وإنما يكون ذلك لمن فسدت سريرته وباغته الموت قبل إصلاح الطوية.

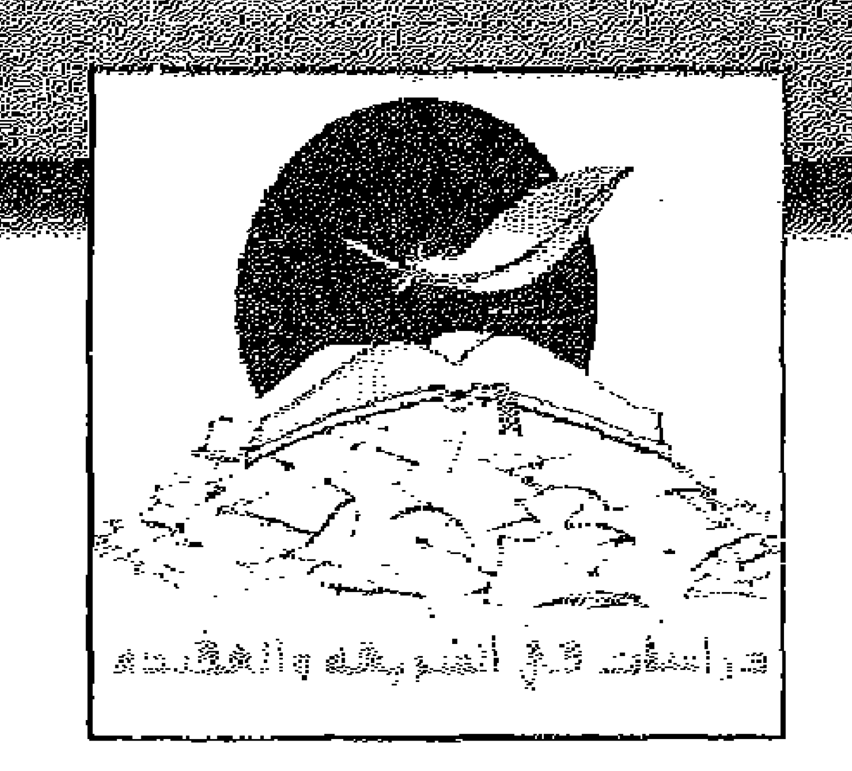
٤ - القبول عند الله - عز وجل - يوم القيامة ومضاعفة الحسنات وتكفير السيئات. قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

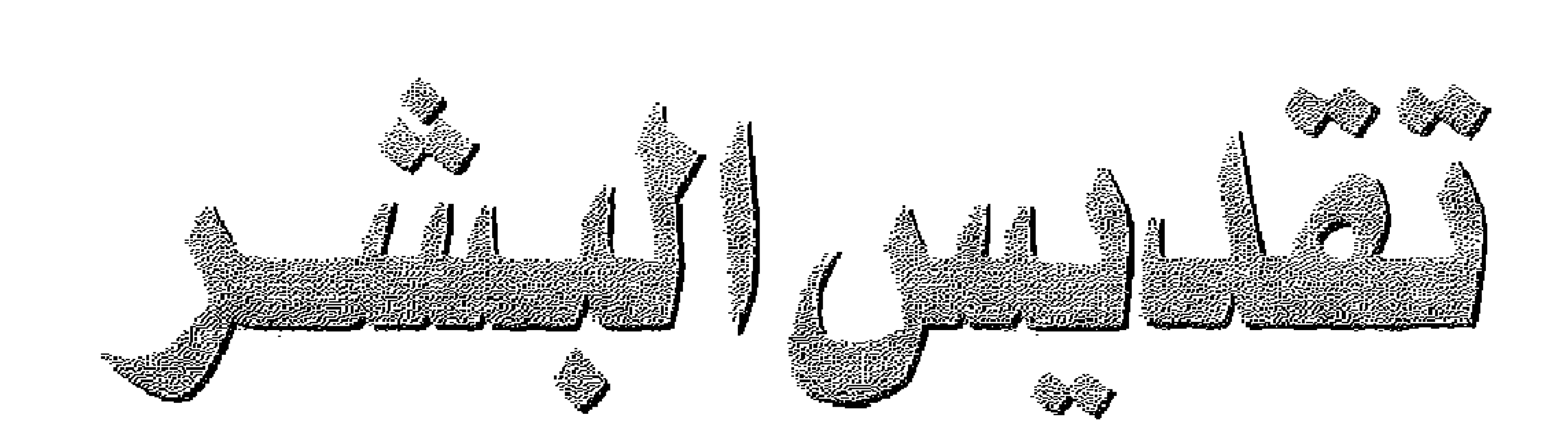
٥ - تفريج الكربات وإعانة الله - عز وجل - للعباد عند حدوث الملمات والضائقات كما حصل لأصحاب الغار.

٦ - الهداية إلى الحق والتوفيق إلى الصواب عندما تحتار العقول والأفهام.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان (٣٤)، ومسلم (٥٨) واللفظ له.







تقديس البشر

(١ـ٢)

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

«الله ابتعثنا لنُخرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا نبيَّه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَنْ قَبِلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفضي إلى موعود الله»(١).

بهذه الكلمات واجه ربعيٌّ بن عامر ـ رضي الله عنه ـ رستم الفارسي، ولم يكن ربعي بن عامر بذلك الخطاب شجاعاً مقداماً فحسب، بل كان ذكياً فطناً يدرك أحوال مخاطبيه؛ فإن الفرس قد أُولِعوا بتأليه «الأكاسرة» وتقديسهم؛ فلذا قال ربعي: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله».

ويُعَدُّ الغلو في الأشخاص وتقديسهم من الظواهر القديمة في تاريخ البشرية، ولا تزال هذه الظاهرة جاثمة في العصر الحاضر بهيئات متنوعة وصور شتى.

وتُعنى هذه المقالة بالحديث عن مظاهر تأليه البشر(٢)، وبواعث تلك الظاهرة وعلاجها.

إن مظاهر تأليه البشر كثيرة يتعذر حصرها، لكن يمكن أن نشير إلى أهم الأصناف التي غلب على الناس تأليهها وتقديسها، وهم: العُبَّاد، والعلماء، والسلاطين.

يقول عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوء ورهبانُها

وسيكون الحديث عن تلك الأصناف الثلاثة ومظاهر الغلو والتأليه لهم. فأما الصالحون فيجب محبتهم وولايتهم والإقرار بكراماتهم.

لكن الكثير من الناس قد أفرط في محبتهم، وغالى فيهم حتى عبدوهم من دون الله ـ تعالى ـ كما وقع من قوم نوح ـ عليه السلام ـ.

(*) أستاذ مساعد في قسم العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ٣٩/٧.

(٢) كتب الباحث محمد لوح رسالة علمية مطبوعة ـ لنيل شهادة الماجستير ـ بعنوان: (تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي). كما كتب الباحث ثامر الغشيان رسالة علمية غير مطبوعة ـ لنيل درجة الماجستير ـ بعنوان «غلو الأمم في معظميها وأثره على الطوائف الإسلامية»، وقد استفدت من الرسالة الأخيرة.



ففي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ـ عليه السلام ـ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبِدت.

وغلب على النصارى تأليه البشر وتقديسهم، فزعموا أن عيسى ـ عليه السلام ـ ابن الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما زعمت يهود أن عُزَيراً ابن الله، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لّكم إنّما اللّه إله واحد سبحانه أن يكون له ولد لّه ما في السّموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن اللّه ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون ﴾ [التوبة: ٣٠].

وما فتئ الشيطان يزيّن لأتباعه عبادة الصالحين حتى آل بهم إلى عبادة أقوام يدّعون لهم الوَلاية وهم من أعظم الناس فسقاً وفجوراً.

ومن ذلك ما كان يفعله بعض أهل نجد ـ قبيل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ عند قبة أبي طالب، وهم يعلمون أنه حاكم متعد غاصب؛ حيث كان يخرج إلى بلدان نجد، ويضرب عليهم خراجاً من المال، فإن أعطي ما أراد انصرف، وإلا عاداهم وحاربهم، فصاروا يأتون قبره، ويستغيثون به عند حلول المصائب[1].

وحكى الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهم الله ـ ما عليه بعض المصريين تجاه أحمد البدوي فقال: «كما جرى لأهل مصر وغيرهم، فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يُعرَف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة، ومع هذا صار أعظم آلهتهم، مع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه، ثم خرج ولم يصلِّ»[2].

وما زال الشيطان يؤزّهم إلى حضيض الشرك، حتى أوقعهم في ادعاء الربوبية لأولئك البشر، وأن الخلق والتدبير بأيديهم.

وكما يقول العلاّمة حسين بن مهدي النعمي ـ واصفاً حالهم ـ : «وحاصل معتقدهم أن للولي اليد الطولى في الملك والملكوت.. ومن ذلك: أن حياً من أهل البوادي إذا أرسلوا أنعامهم للمرعى قالوا: في حفظك يا فلان، يعنون ساكن مشهدهم.

ومنهم من يخاطب الولي ـ بزعمه ـ، فيقول: يا خالق الولد الذي تخلقه مطهوراً. ولقد تجاسر بعض

---

(١) انظر تاريخ ابن غنام، ١/١٣.

(٢) قرة عيون الموحدين، ص ١١٤.



العامة فقال: والله! أما الولي فإنه يحيي الموتى، أما الولي فلان فإنه حي لا يموت»[1].

ومن أشهر الطوائف التي نُعتت بتأليه العُبّاد وتقديسهم: الرافضة والصوفية. فأما الرافضة فقد جعلوا الإيمان بإمامة الإثني عشر شرطاً في قبول الإيمان، واعتقدوا أن للأئمة حق التشريع والتحليل والتحريم، وزعموا أن تراب قبر الحسين شفاء من كل داء، وأمانٌ من كل فقر»[2].

وأما الصوفية فقد قال بعضهم: من قال لشيخه: لِمَ؟ فقد هلك، وزعموا أن مشايخ الطرق «يُسلّم» إليهم حالهم فلا نقاش ولا اعتراض!

يقول أبو الوفاء ابن عقيل في الردّ عليهم: «وليس لنا شيخ نُسلّم إليه حاله؛ إذ ليس لنا شيخ غير داخل في التكليف، ولو كان لنا شيخ يُسلَّم إليه حاله، لكان ذلك الشيخ أبا بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ، وقد قال: إن اعوججتُ فقوِّموني، ولم يقل: فسلِّموا إليَّ»[3].

ومن مظاهر تأليه البشر وتقديسهم عند الصوفية: سجود المريد للشيخ.

يقول ابن القيم عن ذلك الشرك: «ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون، ليس هذا سجوداً، وإنما هو وضع الرأس قُدَّام الشيخ احتراماً وتواضعاً، فيقال لهؤلاء: ولو سميتموه ما سميتموه؛ فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يُسجد له، وكذلك السجود للصنم، وللشمس، وللنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه»[4].

لقد برع الصوفية في استعباد الأتباع والمريدين، وجعلوا منهم جيلاً موطَّأ الظهر لكل معتد ومستعمر، فزعم أرباب السلوك الصوفي أنهم يسعون إلى استئصال الغرور من الأنساب، فأذهبوا الغرور، ثم أذهبوا أيضاً عزة النفس، ثم ذهبت كذلك الشخصيات الحرة المستقلة [5].

وقد سمَّى الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ ذلك الصنيع «تمارين على الذل» فكان مما قاله: «إن الدجالين من رجال الطرق الصوفية كانوا يربون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة؛ فإذا رأوا أنفة في مسلك أحدهم، أو دلائل عزة وترفُّع، جعلوا عليه مهمة حمل أحذية الجماعة، والمحافظة عليها، حتى تنكسر نفسه، وينخفض رأسه؛ وبذلك يكون مرشحاً لعبادة الله كما يجب!

ولم يدرِ المغفَّلون أنهم يرشحونه أيضاً ليكون عبداً للناس جميعاً، وأن مثل هذا الكائن الممسوخ هو أمل المستعمرين[6] الذين يقيمون وجودهم على إذلال الأمم وقتل الشعور بالكرامة في نفوس بنيها»[7].

---

(١) معارج الألباب، ص ١٧٠، ١٧٣، ١٧٩ = باختصار.

(٢) انظر أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، ٢/ ٤٢٥ ـ ٥٠٣.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص ٢١.

(٤) مدارج السالكين، ١/٣٤٤، وانظر: زاد المعاد، ٤/١٥٩ ـ ١٦١.

(٥) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة لمحمد الغزالي، ص ٧.

(٦) بشتى صوره وألوانه، ويدخل في ذلك أذنابهم وعملاؤهم وهم كثير، لا كثَّرهم الله.

(٧) تأملات في الدين والحياة، ص ١٧٣.



وأما الصنف الآخر وهم العلماء، فقد وقع كثير من الاتباع في التأليه لعلمائهم، فاتخذوهم أرباباً من دون الله ـ تعالى ـ فأطاعوهم في تحليل ما حرّم الله ـ تعالى ـ، وتحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ وقلدوهم وأعرضوا عن الدليل، بل عارضوا النصوص الشرعية بآرائهم وأقيستهم؛ ففي حديث عدي بن حاتم وكان قد قدم على النبي ﷺ ـ وذلك قبل أن يُسلم وكان نصرانياً ـ، فسمعه يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلونه؟ فقال عدي: بلى، قال: فتلك عبادتهم»[١].

فقد بيّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فاتبعوا أولئك الأحبار والرهبان في هذا التبديل.. وقد ذكر الله أن ذلك شرك في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

وساق الحافظ ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ بسنده أن ربيعة ـ شيخ الإمام مالك ـ اضطجع مقنِّعاً رأسه وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياء ظاهر وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروهم به ائتمروا[٣].

يقول الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي في الفرق بين تقليد العلماء وبين اتِّباعهم: «لا شك أن طاعة العلماء هي اقتفاء ما كانوا عليه من النظر في كتاب الله ورسوله وتقديمها على كل قول، وعلى كل رأي، كائناً ما كان. فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم فهو المخالف لهم، المتباعد عن طاعتهم»[٤].

فالتقليد: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، والاتِّباع: ما ثبت عليه حجة[٥].

ومما يجدر ذكره «أن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات، لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]»[٦].

ومن الغلو في العلماء: اتباعهم في زلاتهم وعثراتهم، وقد حذر السلف الصالح من ذلك أيما تحذير؛ فعن زياد بن جرير قال: قال لي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: هل تعرف ما يهدم

(١) أخرجه الترمذي، ح/ ٣٠٩٥، والبيهقي، ١٠/١١٦، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى، ٧/٦٧.

(٢) انظر مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٧/٦٧، ٧٠.

(٣) أخرجه في جامع بيان العلم وفضله، ص ١١٤، وأخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى، ج٢، ١/٢٠٣.

(٤) أضواء البيان، ٧/٥١٩.

(٥) انظر المرجع السابق.

(٦) جامع بيان العلم لابن عبد البر، ج٢، ص ١١٤، ١١٥.



الإسلام؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «والعالم قد يزلُّ ولا بد ؛ إذ ليس بمعصوم ؛ فلا يجوز قبول كل ما يقوله ، وينزل قوله منزلة قول المعصوم ؛ فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض ، وحرموه ، وذموا أهله ، وذلك أصل بلاء المقلدين وفتنتهم»[2].

كما ينبغي التحذير من اعتراضات علماء السوء على شرع الله ـ تعالى ـ ، وكما قال ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله ـ : «وأحبار السوء ـ وهم العلماء الخارجون عن الشريعة ـ يعترضون بآرائهم وأقيستهم الفاسدة ، المتضمنة تحليل ما حرّم الله ورسوله ، وتحريم ما أباحه ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وإطلاق ما قيده ، وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك»[3].

والمقصود أن نسلك الوسطية تجاه أهل العلم ، فلا بد من توقيرهم ومحبتهم والانتفاع بعلومهم ، ونحذر من التفريط فيهم أو انتقاصهم أو التطاول عليهم ، كما نحذر من الغلو فيهم وتأليههم .

وأن يُعنى بفقه أهل العلم المعتبرين وفهمهم لنصوص الشريعة ، فيحتج بفهومهم لنصوص الشريعة لا أن يحتج بكلامهم على نصوص الشريعة .

كما يتعيّن على العامة ـ ومن في حكمهم ـ أن يسألوا من يوثق بعلمه ودينه ، وأن يحذروا من يتبع الرخص وانتقاء آراء العلماء التي تتفق مع شهواتهم ؛ فإن الله ـ تعالى ـ بالمرصاد ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

واللهَ اللهَ في الحذر من علماء السوء ورؤوس الضلالة الذين يُلبِسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون .

وننتقل إلى صنف الملوك ، وما حصل من تأليههم واتخاذهم أوثاناً تُعبَد من دون الله ـ تعالى ـ فاستعبد أولئك الملوك سائر البشر طوعاً وكرهاً ، وما وقعوا فيه من تسلط واستبداد .

وتأليه الحكام ظاهرة قديمة في حياة البشر ، فكانت الأكاسرة ملوك الفرس يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم بوصفهم آلهة ، ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم[4].

ومثال آخر : ما يجري في بلاد الهند من الطبقية الجائرة بين أصناف الهنود ؛ فلقد كان نظام الطبقات في الهند أشد قسوة واستهانة بكرامة الإنسان من سائر الأنظمة ، فكانوا يجعلون « البراهمة » الطبقة الممتازة ، وأنهم صفوة الله ، وهم ملوك الأرض ، وأن ما في العالم هو ملك لهم ؛ فإنهم أفضل

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن ، ح/٢١٦ .

(٢) إعلام الموقعين ، ٢/ ١٩٢ .

(٣) شرح الطحاوية ، ١/٢٣٥ ، وانظر مدارج السالكين ، ٢/٧٠ ، والصواعق المرسلة ، لابن القيم ، ٣/١٠٥١ .

(٤) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، لأبي الحسن الندوي ، ص ٤٠ .



الخلائق وسادة الأرض[1].

وكان تقديسهم هذا النظام الطبقي البغيض مانعا لهم من الدخول في دين الإسلام كما قال البيروني (ت ٤٤٠هـ) : «وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ[2] حتى إن مخالفتنا إيّاهم وتسويتنا بين الكافة إلا بالتقوى أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام»[3].

ومع تهافت هذه الوثنية السياسية عند الفرس والهند ، إلا أن هذه الأمة قد تتبعت سنن تلك الأمم الغابرة ، فوقعت في تأليه الملوك والغلو فيهم.

ومن ذلك : دعوى أن الإمامة أهم مطالب الدين ، وأشرف مسائله وغاياته[4] ، مع أن الإمامة ليست مقصودة لذاتها ، بل إن المقصود منها ـ وكذا جميع الولايات ـ أن يكون الدين كله لله ـ عز وجل ـ وإصلاح دين الخلق.

قال الطيبي في شرحه لحديث «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» : «في هذا الحديث أن الراعي ليس مطلوبه لذاته ، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك ، فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه»[5].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «وجميع الولايات الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[6].

ومن مظاهر تأليه الملوك : طاعتهم في كل شيء ، ودعوى أنه لا حساب عليهم ولا عذاب! قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «وكثير من أتباع بني أمية ـ أو أكثرهم ـ كانوا يعتقدون أن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب ، وأن الله لا يؤاخذهم على ما يطيعون فيه الإمام ، بل تجب عليهم طاعة الإمام في كل شيء ، والله أمرهم بذلك ، وكلامهم في ذلك معروف كثير.

وقد أراد يزيد بن عبد الملك أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز فجاء إليه جماعة من شيوخهم فحلفوا له بالله الذي لا إله إلا هو أنه إذا ولَّى اللهُ على الناس إماماً تقبل الله منه الحسنات وتجاوز عنه السيئات.

ولهذا تجد في كلام كثير من كبارهم الأمر بطاعة ولي الأمر مطلقاً وأن من أطاعه فقد أطاع الله؛ ولهذا كان يضرب بهم المثل يقال : «طاعة شامية»[7].

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، لأبي الحسن الندوي ، ص ٤٩ ، ٥٢.

(٢) يشير إلى شدة عنايتهم وحرصهم على تلك الطبقية.

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة ، ص ٧٤.

(٤) كما ظن الرافضة ومن تأثر بهم ، انظر مقدمة منهاج السنة النبوية ، لابن تيمية.

(٥) فتح الباري ، ١٣/ ١١٢.

(٦) الطرق الحكمية ، ص ٢١٧.

(٧) المنهاج ، ٦/ ٤٣٠.

ومن مظاهر ذلك الغلو : ما يفعله ملوك الجور من الاعتراض على الشرع المنزّل بالسياسات الجائرة وتقديمها على حكم الله ورسوله، وتعطيل شرع الله وعدله وحدوده[1].

قال أبو الفرج ابن الجوزي ـ في بيان أن ذلك الاعتراض من تلبيس إبليس وكيده ـ : «إنه يحسّن لهم العمل برأيهم فيقطعون من لا يجوز قطعه، ويقتلون من لا يحل قتله، ويوهمهم أن هذه سياسة. وتحت هذا المعنى أن الشريعة ناقصة تحتاج إلى إتمام ونحن نتمها بآرائنا، وهذا من أقبح التلبيس؛ لأن الشريعة سياسة الإلهية[2] ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلى سياسة الخلق، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١]، فمدعي السياسة مدعي الخلل في الشريعة، وهذا يزاحم الكفر»[3].

وصدق ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ فقد أكمل الله ـ تعالى ـ هذا الدين، وأتم النعمة، ونزّل كتابه تبياناً لكل شيء، وعلّم النبيُّ ﷺ أمته كل شيء، فلا حاجة إلى تلك السياسات الجائرة فضلاً عن تقديمها على الشرع المطهر.

وهذه السياسات إنما ظهرت بسبب الإعراض عن شرع الله والتفريط في اتّباع دين الله ـ تعالى ـ كما كشف ذلك ابن تيمية بقوله: «وعامة الأمراء إنما أحدثوا أنواعاً من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها وعقوبات على الجرائم لا تجوز؛ لأنهم فرطوا في المشروع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فلو قبضوا ما يسوغ قبضه، ووضعوه حيث يسوغ وضعه، طالبين بذلك إقامة دين الله، لا رياسة نفوسهم، وأقاموا الحدود المشروعة على الشريف والوضيع، والقريب والبعيد، متحرين في ترغيبهم وترهيبهم العدل الذي شرعه الله، لما احتاجوا إلى المكوس الموضوعة، ولا إلى العقوبات الجائرة، ولا إلى من يحفظهم من العبيد والمستعبدين، كما كان الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من أمراء بعض الأقاليم»[4].

ومن صور المبالغة والغلو في الملوك: نعتهم بالألقاب الرنانة، والأوصاف المفتعلة التي تخرجهم عن دائرة البشر وتضفي عليهم تأليهاً وتقديساً.

وإذا كان النبي ﷺ قد قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لا مالك إلا الله»[5].

فما بالك بمن تجاوز ذلك بمراحل! كما في رسالة كتبها السلطان سليمان القانوني؛ حيث قال: «سلطان السلاطين، وملك الملوك، ومانح الأكاليل لملوك العالم، ظلُّ الله في الأرض، باشاده، سلطان البحر الأبيض والأسود .. و... و.. وبلاد شتى فتحها أسلافنا العظام، وأجدادنا الفخام بقواتهم

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ٢/٧١، والصواعق المرسلة، ٣/١٠٥١، وشرح الطحاوية، ١/٢٣٥.

(٢) هكذا في المطبوع، ولعل الصواب: الإله، كما تدل عليه العبارة التالية لها.

(٣) تلبيس إبليس، ص ١٤٦.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/٩٨.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.



الظاهرة، وكثير من البلاد التي أخضعتها عظمتي الملوكية بسيفي الساطع»[1].

لقد كان العامة ـ فضلاً عن الخاصة ـ في العصور السابقة يمقتون تلك المبالغات في الألقاب، حتى أن جلال الدين لما لقب بـ (شاهنشاه) أي ملك الملوك سنة ٤٢٩ هـ وأمر الخليفة بذلك، فخطب له به، فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجُرّ[2].

وقد سطَّر شيخ الإسلام ابن تيمية فتوى متينة في شأن الألقاب، وخلاصتها ما يلي: «وأما الألقاب: فكانت عادة السلف الأسماء والكنى.. وكان الأمر على ذلك في القرون الثلاثة، فلما غلبت دولة الأعاجم لبني بويه صاروا يضيفون إلى الدولة فيقولون: ركن الدولة، عضد الدولة.. ثم بعدها أحدثوا الإضافة إلى الدين وتوسعوا في هذا، ولا ريب أن ما يصلح مع الإمكان هو ما كان السلف يعتادونه من المخاطبات والكتابات؛ فمن أمكنه ذلك فلا يعدل عنه، وإن اضطر إلى المخاطبة خوفاً من تولُّد شر إذا عدل عنه، فليقتصر على مقدار الحاجة.

ولا ريب أن هذه المحدَثات المنكرة التي أحدثها الأعاجم، وصاروا يزيدون فيها فيقولون: عزّ الملة والدين، وعزة الملة والحق والدين، وما أكثر ما يدخل في ذلك من الكذب المبين، بحيث يكون المنعوت بذلك أحق بضدّ ذلك الوصف، والذين يقصدون هذه الأقوال فخراً وخيلاء يعاقبهم الله بنقيض قصدهم، فيذلهم الله ويسلِّط عليهم عدوهم»[3].

ويعلِّق الشيخ محمد الغزالي على ألقاب سليمان القانوني قائلاً: «ليس للسلطان سليمان ولا لغيره من الحكام أن يضيفوا إلى أسمائهم هذه المجموعة الفريدة من الألقاب المفتعلة والأوصاف التي أُخِذَ أكثرها من الصفات الإلهية المقدسة ـ إلى أن قال ـ: والتجرد من ألقاب القداسة ومظاهر الأبهة قصد به الإسلام أن يجعل من الحاكم رجلاً يؤخذ منه ويرد عليه، وتنقد تصرفاته كلها، فما كان منها صواباً أُقِرَّ، وما كان منها من خطأ رُدَّ عليه ولا كرامة.

والدول التي نضجت كرامتها السياسية ألغت الألقاب إلغاءً تاماً.. أما في الشرق فلا تزال الألقاب تحكم على الناس بالهوان وتحكم على أصحابها بالغرور، ومن الواجب فك آصارها ومحو أغلالها.

---

(١) نقلاً عن كتاب تأملات في الدين والحياة لمحمد الغزالي، ص ٢٥.

(٢) انظر المنتظم لابن الجوزي، ١٥/٢٦٤، وذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، ٢/٨٤.

(٣) فتوى في الألقاب والقيام، تحقيق صلاح الدين المنجد.





مُراعَاةُ الخِلافِ في الاجتِهَاديّات

دراســة أصولية

عبد الرحمن بن معمر السنوسي

ما استجدّت في واقعنا الحوادث والنّوازل؛ وقفزت بنا المتغيّرات إلى جديدٍ من القضايا إلاّ هُرِعَتَ إلى بحثها وبيان الحكم فيها أعدادٌ وفيرةٌ من أساتذتنا وباحثينا، وقام لتحقيق الحقّ فيها متخصّصون فضلاء؛ ممّا يبعث على الاسترواح والاستبشار بالصّحوة الإسلاميّة التي هي ملء السّمع والبصر.

والمتفحّص في كثير من تلك الدّراسات والبحوث؛ رغم ما يسرّه من مستوى علميّ وتدقيق معرفيّ: هذا المتفحِّص واجدٌ في بعضها ما يُحْوِجه إلى تَمَثُّلِ المنهج السّليم في تناول القضايا الاجتهاديّة والنّوازل المستحدثة.

ولئن كان من الأسس المنهجيّة الواضحة عند أهل السّنّة والجماعة إزاء مسائل الاجتهاد رعي[1] الخلاف فيها احتياطاً أو اجتناباً أو امتثالاً؛ إلاّ أنّ هذا الأصل الأصيل يُدلف[2] إلى الضّمور والاضمحلال في كثير من دراساتنا المعاصرة؛ بسبب تلك الهوّة الشّادهة[3] بين المتقدّم والمتأخّر، علاوة عن افتقار الأمّة إلى انتصاب القدوات، خاصة مع استشراء الأهواء.

ولقد أحببتُ أن أتناول في هذه الدّراسة المتواضعة هذه المسألة التي لم تُفرَد بدراسة مستقلّة حتّى الآن ـ حسب اطّلاعي القاصر ـ رغم خطرها وارتباطها بالجانب العمليّ من جوانب العمل الإسلامي المعاصر.

أولاً: تعريفها:

أ ـ لغةً: المراعاة من راعيتُ الشيء رَعْياً ومراعاةً «لاحظته محسناً إليه؛ والأمرَ: نظرتُ إلامَ يصير»[4].

والخلاف والمخالفة: أن يأخذ كلُّ واحد طريقاً غير طريق الآخر[5].

---

(١) رعي الخلاف: مراعاته.

(٢) يدلف: يتوجه رويداً رويداً.

(٣) الشادهة: الدهشة المحيرة.

(٤) القاموس (رعي).

(٥) بصائر ذوي التّمييز للفيروز آبادي، ٢/ ٥٦٢.



ب - اصطلاحاً: عُرِّفت المراعاة بعدة تعريفات لا تسلم من مآخذ، ولعل أحسنها تعريف ابن عرفة - رحمه الله - في حدوده: «إعمالُ دليل [المخالف] في لازم مدلوله الذي أُعمل في نقيضه دليلٌ آخر»[1].

مثال ذلك: إعمالُ مالك - رحمه الله - دليل مخالفه القائل بعدم فسخ نكاح الشغار؛ في لازم مدلول ذلك المخالف - ومدلوله عدم الفسخ - الذي هو ثبوت الإرث بين الزوجين المتزوجين بالشغار عند موت أحدهما، وهذا المدلول الذي هو عدم الفسخ أعمل مالكٌ - رحمه الله - في نقيضه الذي هو الفسخ - أعمل دليلاً آخر يقتضي الفسخ عنده.

لكن تعريف ابن عرفة - رحمه الله - لا يشمل كل صور المراعاة المذكورة؛ لأن تخصيصها بالمعنى المتقدم لا يتجاوز بها المعنى المتواضَع عليه[2] عند متأخري المالكية.

وأولى منه أن يُقال: مراعاة الخلاف: «اعتبار خلافِ الغير بالخروج منه عند قوة مأخذه بامتثال مقتضى ما اختُلِف فيه».

ثانيا: موضوعها:

أما موضوع مراعاة الخلاف بالمعنى العام فهو: التصرفات المختلَف في حكمها الدائر بين الاقتضاء والمنع من حيث تحقيقها لمقصود الشارع.

ومنشؤها: احتمال التورط في نقيضِ مقصودِ الشارع بفعلِ ما هو خلاف الأولى مطلقاً[3].

ثالثاً: رعي الخلاف في المذاهب الأربعة:

نصَّ غير واحدٍ من العلماء على أن مشروعيتها ثابتةٌ بالإجماع[4].

وما دام تتبُّع ذلك عند سائر العلماء متعذِّراً؛ نظراً لاستحالة الإحاطة بأقوال الجميع؛ فإنّ الاقتصار على حكم ذلك في المذاهب الأربعة المشهورة يغني عن كل تتبّع واستقراء.

وتجدرُ الإشارة إلى أن أكثر المذاهب أخذاً بهذه القاعدة وتعويلاً عليها: المالكية والشافعية، ثم الأحناف والحنابلة.

أما في مذهب مالك - رحمه الله - فاعتمادها في بناء كثير من الفروع مشهور معلوم. قال الشاطبي - رحمه الله -: «وهو أصل في مذهب مالك ينبني عليه مسائل كثيرة»[5].

قال أبو العباس ابن أبي كف - رحمه الله -:[6].

---

(١) الحدود بشرح الرّصّاع، ١/ ٢٦٣، ولفظة [المخالف] زيادة للتّوضيح؛ لأنّ الإضمار مرّتين يضاعف الغموض.

(٢) المعنى المتواضَع عليه: أي المُتّفق عليه.

(٣) عُبِّرَ بلفظ «مطلقاً» ليدخل في حكم القاعدة فعلُ الأخفّ مع ترك الأحوط إن كان فيه معنى الاحتياط من جهة أخرى؛ كأن يكون فعل الأحوط مُوقعاً في فتنة أو فرقة أو نحو ذلك.

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم للنّووي، ٢/ ٢٣، والمسلك المتقسّط في المنسك المتوسّط، لعلي القاري، ص ٨٨.

(٥) الاعتصام ٢/ ١٤٥، والجواهر الثّمينة للمشّاط، ص ٢٣٧، وفي كتاب النّكاح فقط من شرح التّلقين لابن بزيزة «مخطوط» نصٌّ على نحو من عشرين مسألة بنيت على رعي الخلاف، وانظر على سبيل المثال هذه المواضع من «عقد الجواهر الثّمينة» لابن شاس: ١/ ٨، ٧٥، ١٣٦، ١٧٠، ١٧١.

وانظر إن شئت: إيضاح المسالك للونشريسي، ص ١٥٤، والإسعاف بالطّلب، للتّواتي، ص ٥١.

(٦) قواعد مذهب مالك «مخطوط بالمسجد النّبويّ» (ق / ١٠٨/ ب).

أما في مذهب الشافعي - رحمه الله - فقد نصّ أئمة مذهبه على مشروعية البناء على رعي الخلاف واستحبابه. قال البدر الزّركشيّ - رحمه الله -: «يُستحَبُّ الخروج منه - أي الخلاف - باجتناب ما اختُلف في تحريمه وفعل ما اختُلف في وجوبه»[1].

وجعل ابن السّبكي - رحمه الله - اطّراح الخلاف بـ «الخروج أفضل.. واعتماده من الورع المطلوب شرعاً»[2].

أما في مذهب الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - فقد صرح ابن عابدين - رحمه الله - في حاشيته باستحباب رعي الخلاف؛ حيث أفرد لها مطلباً خاصا فقال: «مطلب في ندب مراعاة الخلاف»[3].

كما صرح به أيضاً الملاّ علي القاري - رحمه الله - في مواضع من «المسلك المتقسّط»[4].

وقد صلّى أبو يوسف القاضي - رحمه الله - بالناس الجمعة - يوماً - مغتسلاً من الحمّام، فلما تفرقوا أُخبر بوجود فأرة ميتة في بئر الحمام؛ فقال: إذن نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قُلّتين.. إلخ[5].

أما في مذهب الإمام أحمد - رحمه الله - فيجد الدارس نماذج كثيرة تدل على ذلك؛ منها ما ذكره ابن قُدَامة - رحمه الله - بخصوص وقت صلاة الجمعة عند الحنابلة وأنها تُصلّى قبل الزوال عندهم خلافاً للجمهور؛ حيث قال: «فالأولى أن لا تُصلى إلا بعد الزوال ليخرج من الخلاف»[6].

وفي «باب رد الشهادة» من كتاب كشّاف القناع قوله: «إن من عمل في الفروع المختلَف فيها عند الأئمة اختلافاً شائعاً كمن تزوّج بلا ولي أو بلا شهود، أو شرب من النبيذ ما لا يسكر، أو أخّر الزكاة، أو حج متأوّلاً أو مقلّداً لمن يرى حلّه -: لم تُرَدّ شهادتُه؛ لأن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يختلفون في الفروع؛ وقَبِلوا شهادة كل مخالف لهم فيها، ولأنه اجتهاد شائع لا يُفَسَّق به المخالف كالمتَّفَق عليه»[7].

وفيما نُقِلَ عن الإمام أحمد - رحمه الله - يجد الباحث نماذج عالية تدل على اعتباره - رحمه الله - لخلاف الأئمة المتقدمين، وورعه إزاء المسائل الخلافية في الفروع.

ذكر أبو داود - رحمه الله - في مسائله عنه في باب «نقض الوضوء من مس الذكر» قال: «قلت لأحمد: فرجل لا يرى من مس الذكر وضوءاً؛ أصلي خلفه وقد علمت أنه مس؟ قال: نعم!»[8].

رابعاً: الغاية من رعي الخلاف:

إن التصرف بباعث الخروج من الخلاف لا ينشئه المكلف لمعرفة الحكم؛ ولكن لتنجيزه[9] والخروج من عهدته، ويتذرع به إلى إيقاع تصرفه على وجه متيقَّن لا يعصف الشك بساحته؛ فهو وسيلة إلى الامتثال

---

(1) المنثور في القواعد: ٢ / ١٢٧.
(2) الأشباه والنّظائر للسّبكي: ١ / ١١٢.
(3) ردّ المحتار: ١ / ١٤٧.
(4) المسلك المتقسّط، ص ٨٨، ٩٦، ١٠٥.
(5) الإنصاف للدّهلوي، ص ٧١.
(6) المغني، ٢ / ٣٥٨؛ إفادة من فضيلة أستاذنا الدكتور سليمان بن عبد الله العمير - حفظه الله -.
(7) كشاف القناع: ٦ / ٢٤٢.
(8) مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود، ص ١٢، وانظر نماذج أخرى عنه في: حجة الله البالغة: ١ / ١٥٨ - ١٥٩.
(9) تنجيز الأمر: فعله والإسراع بإنجازه.



المحقق: لا طريق إلى معرفة الحكم.

فالغاية التي يصدر عنها المحتاط في حال خروجه من الخلاف: هي الورع والاستبراء للدين؛ لكونهما متعلق براءة الذمة والخروج من العهدة، والعمل بالورع غير محتاج إلى استدلال لبداهة استحبابه في الشرع، لا سيما إذا كان في امتثال الأوامر والنواهي.

وثمة ملحظ آخر يلتحق بهذا الأصل؛ وهو أن من المقاصد العليا والغايات العظمى التي يلتفت إليها ههنا هي: تضييق هوة الخلاف بين المذاهب الفقهية؛ فكثيرا ما أحدثت هذه الخلافات شروخا في وحدة المسلمين، وخلَّفت جراحات لا تؤسى[1]، وفتناً عظيمة وعاها التاريخ وشهد بها الواقع.

وبقدْر ما في اختلاف الفهوم والأنظار من خير ونفع؛ وما في تعدد المذاهب من ثراء وسَعة فإن فيها من دواعي الفرقة وأسباب التشتت ما يأسى له القلب ويحزن.

ولا شك أن الخلاف الفقهي في ذاته لا ينتهض[2] لإحداث الفرقة، وإنما تتسبب الفرقة عن ضيق الصدور، واستحكام الهوى، والتعصب للرأي.

خامساً: مشروعيتها وأصلها من الدين:

١ - مستندها النقلي: من أمثلة مراعاة الخلاف ما ثبت عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان عُتبة بن أبي وقاص عَهِدَ إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابنَ وليدة زَمْعَةَ مني فاقبضه إليك، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد، وقال: ابنُ أخي، قد كان عهد إليَّ فيه، فقام إليه عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي وُلِدَ على فراشه؛ فتساوقا إلى رسول الله ﷺ، فقال سعد: يا رسول الله! ابن أخي قد كان عَهِد إليَّ فيه، وقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي وُلِدَ على فراشه؛ فقال رسول الله ﷺ: «هو لك يا عبد بن زمعة» ثم قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر» ثم قال لسودة بنت زمعة: «احتجبي منه» لِمَا رأى من شبهه بعتبة بن أبي وقاص، قال: فما رآها حتى لقي الله!»[3].

ووجه الاستدلال بالحديث: أن النبي ﷺ راعى الحُكْمَيْن معاً، أي حكم الفراش وحكم الشَّبَه، أما مراعاته لحكم الفراش فلإلحاقه الولد بصاحبه وهو زمعة، وأمَّا مراعاته لحكم الشبه فلأمره سودة ـ رضي الله عنها ـ بنت صاحب الفراش بالاحتجاب من الولد الملحَق به[4].

ويشهد لهذا الأصل من حيث معناه العام قصة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لما صلَّى خلف عثمان ـ رضي الله عنه ـ بمنى مُتِماً؛ رغم مخالفته له ومراجعته إيَّاه في ذلك؛ ولما سئل عن ذلك قال: «الخلاف شر»[5].

---

(١) لا تؤسى: لا تداوى. ومنها: الآسي: وهو الطبيب.

(٢) لا ينتهض: أي لا يصل إلى أن يكون سبباً.

(٣) أخرجه البخاري، ٥/ ٢٧٨ في الوصايا: باب قول الموصي لوصيه: تعاهدْ ولدي، ومسلم (١٤٥٧) في الرضاع: باب الولد للفراش، ومالك واللفظ له: ٤/ ٢٣ بشرح الزرقاني.

(٤) وانظر أدلة أخرى في الاعتصام، للشاطبي، ٢/ ١٤٨ فما بعدها.

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٩٢) في المناسك: باب الصلاة بمنى، ومنه أيضاً امتناعه ﷺ عن تجديد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، وكفه عن قتل المنافقين، وقصة الأعرابي البائل في المسجد.



٢ – مستندها الأصولي:

أ – تخريجها على الاستحسان: وجهُ انتزاعها منه[1]: أن مقتضى القياس أن يجري المجتهد على وفق دليله ويحكم بمقتضى اجتهاده الذي أداه إليه الظن الغالب الموجب للعمل، فلا يترك قوله ودليله لِيَصيرَ إلى قول الغير ودليله.. هذا هو الأصل.

غير أنه يعدل عن ذلك فيُهمِلُ العملَ بمقتضى قوله ودليله - من وجه - ليُعْمِلَ دليل غيره المرجوح عنده.

وموجب هذا العدول: هو رجحان دليل المخالف في لازم مدلوله، وعلى هذا فهو ليس تاركاً لاعتقاده في قوله ودليله ولا مطَّرحاً له بالكلية؛ بل قصاراه أنه امتثل على وفق دليل غيره في جهة يكون رأي الغير أرجح فيها، أو اختار الأشقَّ مع اعتقاده صحّة الأخفّ، وهو كما ترى عُدول يُسنده النّظر الحازم والرأي السديد.

ب – تخريجها على «المناسب الملائم»: والمقصود من ذلك بالضبط: اعتبار جنس الوصف في جنس الحكم؛ فإن جنس الشبهة مؤثر في جنس الترك والاجتناب؛ إذ جنس الوصف الذي هو «الاختلاف» مؤثر في جنس الحكم الذي هو الاجتناب المصطلح عليه هنا «بالمراعاة» أو «الخروج»: لما في التورط فيه من احتمال مواقعة الحرام أو تفويت الامتثال الواجب الذي يناسبه فعل الأشق من الأمرين؛ إما بالترك وإما باستيعاب محتملات التكليف.

فعلى هذا يكون الخروج من الخلاف من المصالح التي أمر الشرع بتحصيلها كما ذكر العز بن عبد السلام - رحمه الله -[2].

ج – تخريجها على «اعتبار المآل»: وهو مختص بحالة ما بعد الوقوع - كما سيأتي -؛ فإنه ربما أفتى المفتي بفساد الفعل ابتداءاً، فإذا وقع عاد إليه بالإنفاذ والاعتبار، وهو نوع من الالتفات إلى الأمر الواقع والبناء عليه بعد تجديد النظر في المسألة؛ بحيث يصير التصرف بعد وقوعه معتبراً «وشرعياً بالنظر لقول المخالف، وإن كان ضعيفاً في أصل النظر؛ لكن لما وقع الأمر على مقتضاه روعيت المصلحة»[3].

ومنه ما يجري في تصحيح العقود إذا كان فسادها مختلَفاً فيه؛ كقولهم: كل نكاح فاسد اختُلِفَ فيه فإنه يثبت به الميراث ويفتقر في فسخه إلى الطلاق؛ لأنه بعد وقوعه تعلق به مصلحة كل من الزوجين والأولاد والورثة.

ومنه أيضاً قولهم: إذا دخل المصلي مع الإمام في الركوع وكبر للركوع ناسياً تكبيرة الإحرام، فإنه يتمادى مع الإمام ولا يقطع مراعاة لقول من قال: إن تكبيرة الركوع تجزئ عن تكبيرة الإحرام[4].

---

(١) وجه انتزاعها منه: أي دليل استنادها إلى الاستحسان.

(٢) قواعد الأحكام: ٢/ ١٤.

(٣) هامش الموافقات للشيخ دراز: ٤/١٥١.

(٤) المقدمات الممهدات لابن رشد: ١/ ١٦٠.

سادساً: حكم مراعاة الخلاف:

تكاد تجتمع كلمة القائلين برعي الخلاف على أنها مستحبة؛ قال الزركشي - رحمه الله -: «يستحب الخروج منه - أي الخلاف - باجتناب ما اختُلف في تحريمه وفعل ما اختُلف في وجوبه»[1].

وقال الملاّ علي القاري - رحمه الله -: «الخروج من الخلاف مستحب بالإجماع»[2].

ويقول الراعي الأندلسي - رحمه الله -: «وأما استحباب الخروج من الخلاف فمسلَّم حيث أمكن»[3].

والاستحباب في هذا الباب «استحباب مقدَّمي» لتعلقه برعي الخلاف من حيث هو مقدمة للمستحب الأصلي ووسيلة إليه لا أنه هو عين الحكم المطلوب أصالة.

كما أن الحكم باستحباب الخروج من الخلاف إنما يتمشى مع الأصل فيه، وإلا فإن ثمة حالات يخف فيها الطلب أو يتأكد؛ وهي مجال بحث الناظر المتمرِّس واجتهاده.

سابعاً: أحوال مراعاة الخلاف:

أكثر الأئمة القائلين برعي الخلاف لا يقيدونه - من حيث فعله - بحالة دون أخرى؛ وإنما ينضبط عندهم بحسب قوته ووجاهته.

ويفرِّق كثير من العلماء المالكية بين حالة «ما قبل الوقوع» و «حالة ما بعده»؛ فمنهم من يراعيه قبل حصول الفعل؛ نظراً لأصل البراءة والاحتياط من التورط في الشبهة، ومنهم من يراعيه بعد الحصول؛ التفاتاً إلى المصلحة واعتباراً للمآل الذي يتقوَّى حياله دليل المخالف.

والحق أن تقييد الاعتبار بإحدى الحالتين دون الأخرى غير مُتَّجِه في النظر؛ لأن مناط الاعتبار إنما هو قوة المأخذ ووجاهته في الخلاف؛ وذلك غير مقصورٍ على حال دون حال؛ لوجدانه في كليهما كما هو مشاهَد في فروع القاعدة.

الحالة الأولى: قبل الوقوع: وصورتها: أن يظهر للمجتهد بعد اجتهاده قوة مأخذ مخالفه وصحة مُتَمَسَّكِه؛ بأن يكون مقتضاه آتياً على وفق الاحتياط، أو محققاً لمصلحة شرعية ظاهرة كائنةٍ في جهة الأخف: فيمضي حينئذ على اجتهاد مخالفه؛ مرجحاً لمقتضاه ومقرِّراً لظهوره ابتداءاً؛ بحيث يجوز الامتثال على وفقه قبل الشروع في الفعل والامتثال.

وممن ذهب إلى هذا القول - المراعاة قبل الوقوع - أبو عبد الله المقري[4] وأبو عثمان العقباني - رحمة الله عليهما -.

ومن مسائل هذه الحالة: قول المالكية بكراهة الوضوء بالماء المستعمل في رفع الحدث؛ مراعاةً لمن قال ببطلان التطهر به[5].

---

(١) المنثور في القواعد: ٢ / ١٢٧.

(٢) المسلك المتقسط، ص ٨٨.

(٣) انتصار الفقير السالك، ص ٢٠١، وانظر أيضاً: البحر المحيط للزركشي: ٨ / ٢١١، والأشباه والنظائر للسيوطي، ص ١٥١، الإسعاف بالطلب للتواتي، ص ٧٢، والمعيار المعرب للونشريسي، ٦ / ٣٧٩ - ٣٨١.

(٤) القواعد للمقري: ١ / ٢٣٦.

(٥) ينظر: شرح الرصاع على الحدود: ١ / ٢٦٣، وبه صرح في شرح مختصر خليل (ق / ١٦ / ب) «مخطوط بخزانة جدي رحمه الله».



ومن مسائله أيضاً: ما سبق نقله عن ابن قُدامة ـ رحمه الله ـ بخصوص استحباب صلاة الجمعة بعد الزوال عند الحنابلة رغم تجويزهم صلاتها قبله.

الحالة الثانية: بعد الوقوع: وصورتها: أن يرجِّح المجتهد في المسألة ـ مثلاً ـ دليلَ الحظر والمنع ابتداءً، فإذا وقع الفعل بخلافه ـ: راعى دليل غيره المرجوح عنده لوجه يقتضي رجحان دليله في تلك الحالة؛ كاستحقاق المرأة المهرَ والميراثَ ـ عند المالكية ـ إذا تزوجت بغير ولي؛ فإن مالكاً ـ رحمه الله ـ مع قوله بفساد النكاح دون ولي يراعي الخلاف عند نظره فيما يترتب عليه بعد الوقوع؛ إذ التَّفريع على البطلان الراجح عنده يؤدي إلى مفسدة وضرر أقوى من مقتضى النَّهي على ذلك القول.

ويشهد لهذا التقرير ما ثبت في قصَّة الأعرابي البائل في المسجد[1]، فهو مع كونه واقعاً منهيّاً عنه على وجه القطع وهو البول في المسجد؛ إلا أن النبي ﷺ أمر بتركه حتَّى يُتِمَّ بوله لما في قطعه عليه من الأضرار والمفاسد، وكان يحصل من تقويمه من محله الذي بال فيه مع ما حصل من تنجيس المسجد تنجيسُ ثيابه وبدنه ومواضع أخرى من المسجد، ولأصابه من ذلك في بدنه مرض للاحتباس المفاجئ في بوله.

ثامناً: شروط مراعاة الخلاف:

الشرط الأول: أن يكون الخلاف قوي المدرك: أي يكون مأخذ المخالف فيما ذهب إليه قوياً بحيث لا يُعدّ هفوة أو شذوذاً؛ ومن ههنا لم يُرَاعَ خلاف أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في الرواية المنقولة عنه في بطلان الصلاة برفع اليدين[2]، وكذلك إسقاطه الحد في القتل بالمثقل واعتباره إياه شبهة تدرأ الحد[3]، ومنه أيضاً ما نقل عن عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ من إباحة وطء الجواري بالعارية[4].

الشرط الثاني: أن لا تؤدي إلى صورة تخالف الإجماع: أي أن لا يلزم من رعي الخلاف خرق للإجماع وإلاَّ حُرِّمَ؛ كمن تزوج بغير ولي ولا شهود بأقل من ربع درهم؛ مقلداً أبا حنيفة في عدم الولي ومالكاً في عدم الشهود والشافعي في أقل من ربع درهم، فإن هذا النكاح لو عرض على الحنفي لا يقول به؛ وكذلك المالكي والشافعي ـ رحم الله الجميع ـ[5].

ومنه أيضاً ما نقل عن ابن سريج ـ رحمه الله ـ من الشافعية؛ أنه كان يغسل أذنيه مع الوجه ويمسحهما مع الرأس ويفردهما بالغسل؛ مراعاة لمن قال إنهما من الوجه، أو الرأس، أو عضوان مستقلان: فوقع في خلاف الإجماع[6].

الشرط الثالث: أن لا يترك المراعي للخلاف مذهبه بالكلية: إذا لزم من رعي الخلاف ترك المجتهد أو

---

(١) أخرجه البخاري: ١/ ٦٥ في الوضوء: باب يهريق الماء على البول، ومسلم: ١/ ٢٣٦ في الطهارة: باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد.

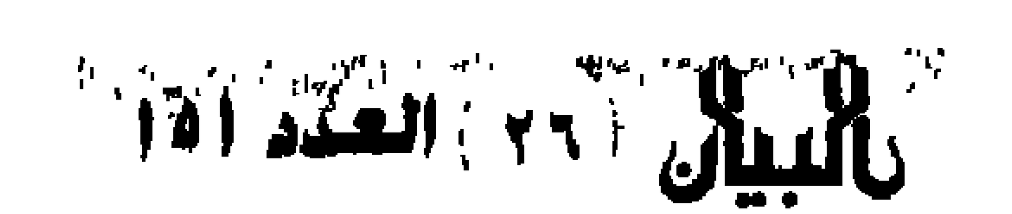
(٢) ينظر: المنثور، للزركشي. ٢ / ١٢٩.

(٣) ينظر: رد المحتار: ٦/ ٥٢٨.

(٤) ينظر: المنثور، للزركشي: ٢ / ١٣٠، والأشباه والنظائر، للسبكي: ١/ ٣٨.

(٥) الدليل الماهر الناصح، للولاتي، ص ٨٠، والجواهر الثمينة، للمشاط، ص ٢٣٦.

(٦) المنثور، للزركشي: ٢ / ١٣١.



الناظر لقوله ودليله جملة فإن ذلك خارج عن مسمى مراعاة الخلاف؛ وإنما هو تقليد للغير بعد الاجتهاد والنظر؛ وحل العلماء على منعه.

الشرط الرابع: أن يكون الجمع بين المذهب ممكناً: فإن لم يكن كذلك؛ فلا يترك الراجح عند معتقده لمراعاة المرجوح؛ لأن الجمع بين المتناقضين متعذر عقلاً.

مثاله: قول بعض الشافعية أن من تقدم بقراءة الفاتحة وجب عليه إعادتها؛ فإن القائل بهذا لا يمكن معه مراعاة القائل بأن تكرار الفاتحة مرتين مبطل! إلا أن يخص البطلان بغير العذر[1].

الشرط الخامس: قيام الشبهة:[2] لأنه إذا توافر العلم بصحة الحكم ووجه انتزاعه من دليله فالمصير إلى قول المخالف مراعاةً له غير متَّجه؛ كما أن عبادة الله بمؤدى الاجتهاد التام أولى من عبادته بالاحتياط العام؛ لليقين في الأول ومطلق التفويض في الثاني.

والسياق هنا مختص بحالة ما قبل الوقوع لا غير، وثمة حالة تُستثنى من هذا العموم: وهي حال التورع في التروك؛ فإنها لا تُقيَّد بقيام الشبهة ولا يُطلَب عليها دليل؛ لأن الورع لا يتوقف على وروده.

هذا وقد اشترط التاج السبكي والسيوطي - عليهما رحمة الله - لرعي الخلاف أن لا يخالف سُنَّةً ثابتة[3]، والحقُّ أن ذلك مستغنى عن ذكره؛ لاندراج مخالفة السنة ضمن المواضع التي يُنقَض فيها الاجتهاد.

تاسعاً: أهمية مراعاة الخلاف في العمل الإسلامي المعاصر:

من الهموم المُمِضَّة التي تؤرق المخلصين من أبناء الدعوة ظاهرة الفرقة التي تكاد أن تتأصل في مسيرتها الحالية، مما تسبب عنه كثير من الآلام، وتولدت منه عوامل ضعف أربكت حيويتها، وبعثرت جهودها، وسرَّت أعداءها.

وبدل البحث عن عناصر الائتلاف والاجتماع رحنا نؤصِّل لذلك التفرق، ونلتمس له التعليلات والمسوِّغات، ووصل بنا الحد في بعض الحالات والمواقع إلى فَقْدِ أساليب التعايش السلمي «على الأقل».

إن قلة الورع، وغياب الرؤية العلمية المتكاملة، وإيثار «مصالح الكيان» على المصالح العليا؛ هي أسباب حقيقية لواقعنا المزري، وإذا أردنا الخروج منه لنحقق الوثب إلى الآفاق الرحبة التي هي أمل الجميع فعلينا أن نعالج تلك الأسباب نفسها.

وينبغي أن يكون واضحاً في أدبيات الصحوة الإسلامية أن الحوار البنَّاء المبني على الرغبة في الخروج من الخلاف؛ هو مفتاح الخلاص من حالة التدهور والتخلف الذي كرسناه بأنفسنا. ولئن كان الوصول إلى تحقيق هذه القناعة عسيراً فيما يبدو؛ فإنه لا بد أن تسبقه مرحلة التأصيل لهذه الكليات المعرفية والأخلاقية في الوقت نفسه بتكريسٍ دؤوبٍ يجعلها فيما بعدُ من المسلَّمات التي تأخذ مكانها في الوجدان العام للصحوة، وحينها تنفسح أمامنا فرص التفوق والنصر والتمكين - بإذن الله -.

---

(١) المنثور في القواعد: ٢ / ١٣٢، وحاشية القواعد، لسراج الدين العبادي (ق/٥٩/أ) مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم (٨٦٩ / ٢٢٤٣٢).

(٢) لم يشترطه القائلون برعي الخلاف؛ وحاصل كلامهم يقتضيه.

(٣) الأشباه والنظائر للسبكي: ١ / ١١٢، والأشباه والنظائر للسيوطي، ص ١٥٢.





الناس كالإبل المائة

محمد بن عبد الله الدويش

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة»[1].

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: «قال الخطابي: تأولوا هذا الحديث على وجهين: أحدهما: أن الناس في أحكام الدين سواءٌ لا فضل فيها لشريف على مشروف، ولا لرفيع على وضيع، كالإبل المائة التي لا يكون فيها راحلة وهي التي ترحل لتركب، والراحلة فاعلة بمعنى مفعولة، أي كلها حمولة تصلح للحمل، ولا تصلح للرحل والركوب عليها. والثاني: أن أكثر الناس أهل نقص، وأما أهل الفضل فعددهم قليل جداً؛ فهم بمنزلة الراحلة في الإبل الحمولة، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]».

ورجح الثاني الأزهري، والنووي، والقرطبي، وغيرهم.

ولا شك أن المعنيين ثابتان بأدلة أخرى، ومرادنا هنا المعنى الثاني، وسواء أكان هو المراد بهذا الحديث، أم المراد غيره فهكذا شأن الناس؛ فالقليل منهم هو الذي يُعتمَدُ عليه، وأكثرهم دون ذلك.

وفي هذا المعنى وقفات عدة:

الوقفة الأولى: أن على الدعاة والمربين الاعتناء بالعناصر الفاعلة المتميزة؛ إذ هم قليل في الناس،

(١) رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).

عزيزٌ وجودهم، وأثر استجابتهم للدعوة لا يقاس بأثر غيرهم.

ولهم في ذلك أسوة حسنة بالنبي ﷺ الذي كان يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب»[1].

وقد كان السلف يُعنَون بأمثال هؤلاء؛ ومن صور هذه العناية ما رواه الخطيب في الجامع بإسناده عن إسماعيل بن عياش قال: كان ابن أبي حسين المكي يدنيني، فقال له أصحاب الحديث: نراك تقدم هذا الغلام الشامي وتُؤْثِره علينا؟ فقال: إني أؤمِّله. فسألوه يوماً عن حديث حدث به عن شهر: إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل، فذكر ثلاثاً ونسي الرابعة، فسألني عن ذلك، فقال لي: كيف حدثتكم؟ فقلت: حدثتنا عن شهر أنه إذا جمع الطعام أربعاً فقد كمل: إذا كان أوله حلالاً، وسُمِّيَ عليه الله حين يوضع، وكثُرت عليه الأيدي، وحُمِدَ الله حين يُرفَع. فأقبل على القوم، فقال: كيف ترون؟[2].

الوقفة الثانية: حين يدرك الداعية والمربي هذا المعنى يدعوه ذلك لأن يكون واقعياً فيما يطلبه من الناس وينتظره منهم؛ فالناس لن يكونوا كلهم رواحل، ولا يسوغ أن نرسم صورة مثالية وننتظر من الناس جميعاً أن يصلوا إليها.

الوقفة الثالثة: حين نرى صورة واقعية من أحد من الناس، فلا يسوغ أن نتخذها نموذجاً نقارن الآخرين به، وننتظر منهم أن يصلوا إلى ما يصل إليه. ومن الصور الشائعة في ذلك ما يصنعه بعض الآباء مع أبنائه، أو بعض المعلمين مع طلابه حين يعجب بأحدهم فينتظر من الآخرين أن يكونوا مثله، وأن يصلوا إلى ما وصل إليه.

الوقفة الرابعة: ليس معيار الاختلاف بين الناس قاصراً على القدرات العقلية والذهنية وحدها؛ فهم يتفاوتون في تحملهم للأعباء، وفي جديتهم، وفي تضحيتهم للمخاطر، وفي قدراتهم النفسية.... إلخ هذه العوامل، وهي كلها مما لا بد من أخذه في الاعتبار.

الوقفة الخامسة: إدراك هذا المعنى يجعل المسلم عالي الهمة، متطلعاً للمزيد، ينظر - في العلم والصلاح - إلى من هو فوقه، ولا ينظر إلى من هو دونه.

---

(١) رواه أحمد (٥٣٦٣)، ٢/٩٥، والترمذي (٥٦٨١).

(٢) الجامع، ١/٣١٢.





التربية بترسيخ الأهداف

محمد عبد الله محمد آل عباس

إن القارئ المتابع لأحوال المجتمعات الإنسانية اليوم ليعجب أشد العجب لشتى صور الانحراف التي سادت العالم اليوم التي تمثل أصدق تعبير لما يسود العالم من جاهلية معاصرة؛ فالجاهلية ليست محددة بفترة معينة من التاريخ مضت إلى غير رجوع؛ وإنما هي صور وأوضاع ومظاهر يمكن أن تظهر في أي جيل وأي عصر. إن الجاهلية المقصودة ليست مقابل العلم أو الحضارة أو التقدم المادي؛ فالقرآن الكريم لم يقل إن العرب كانوا في جاهلية؛ لأنهم لا يعرفون الفَلَك وعلم الطبيعة وإلا لكان البديل لمثل هذا الجهل معلومات في تلك العلوم التي أصابها التخلف والجهل[1]، وإنما كان البديل للجاهلية التي كانت عليها البشرية قبل الرسالة هو الإسلام.

ولِتَفَهُّمِ الجاهلية التي جاء الإسلام بديلاً عنها لا بد من فهم معنى الإسلام. إن الإيمان بالإسلام إيماناً حقاً يبلغ أغوار النفس، ويحيط بكل جوانبها من إدراك وإرادة ووجدان، وهو كذلك عمل جسدي تؤديه الجوارح كما شرع الله؛ فالإسلام عقيدة وسلوك جاء ليصحح العقائد التي كانت منحرفة والتصورات عن الإله والكون والحياة. وجاء أيضاً ليصحح السلوكيات المنحرفة التي انبعثت من عقائد منحرفة؛ ولذلك كان هدف الدعوة الإسلامية الأول هو تصحيح العقيدة باعتبارها المنطلق لبناء الشخصية المسلمة.

العقيدة والهدف والسلوك:

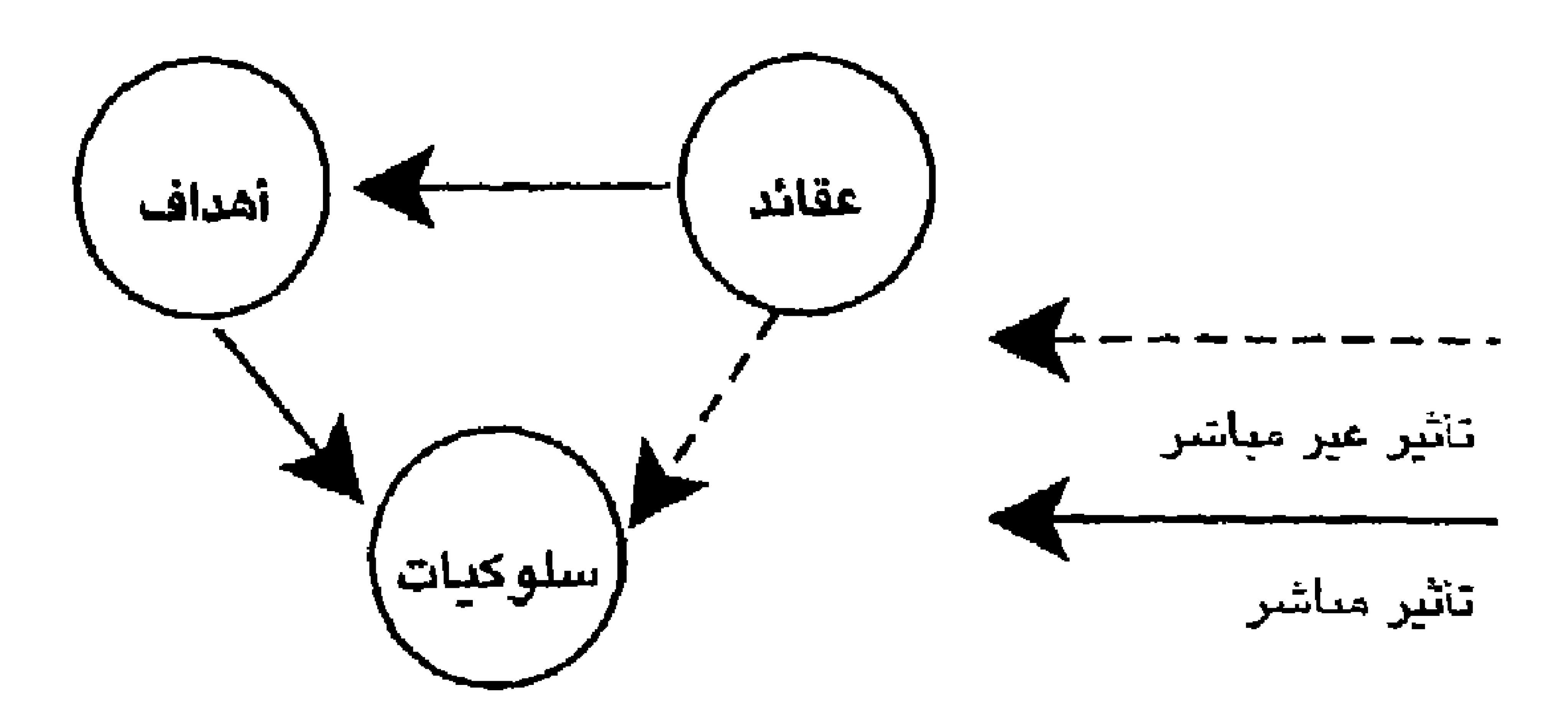
إن الارتباط بين عقيدة الإنسان وأهدافه وسلوكياته ليبدو وثيقاً؛ فما أهداف الإنسان إلا تعبير ذهني عن عقيدته، وما سلوكه إلا تعبير عملي عن أهدافه.

فالأهداف ـ على هذا ـ تمثل الرابط الفكري بين سلوكيات المرء وعقيدته.

فالعرب قبل الإسلام لم يكونوا يؤمنون باليوم الآخر.

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٩.



﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد (٧) أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ [سبأ : ٧، ٨].

فكان من أثر انحراف هذه العقيدة انحراف في أهداف الإنسان تمثَّلَ في اعتبار هذه الحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة إذا لم يكسبها الإنسان ذهبت إلى غير رجعة، فانكب على الحصول على الملذات تعبيرا في سلوكه عن أهدافه والحصول على المحرمات والألقاب الزائفة حتى لو كان عن طريق النهب والسلب والقتل؛ فهذا (طرفة بن العبد) يقول في معلقته :

ألا أيهذا اللائمي أن أحضر الوغى وأن أشهد اللذَّات هل أنت مُخْلدي؟

لذلك جاء الإسلام ليصحح العقائد والسلوكيات عن طريق ربط كل منهما بالأهداف؛ فقد رفع الإسلام أهداف الإنسان وتسامى بها من أهداف دنيوية زائلة إلى أهداف أبدية وخلود دائم؛ فقد كانت دعوة الرسول ﷺ للناس : «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[1].

ففيها إصلاح للعقيدة وإصلاح للهدف. وهكذا ركزت السور المكية القرآنية في أول الدعوة على تصحيح العقيدة، وأن الله وحده الإله المتصرف في هذا الكون.

قال الله - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١ - ٤].

وفي العقيدة أيضاً تصحيح هدف الإنسان الأسمى وذلك بجعله هو الفوز بالجنة والنجاة من النار : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥].

فتحديد الهدف من الأعمال المهمة لتصحيح السلوكيات ولذلك وجدنا الرسول الكريم ﷺ يقول : «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا مات على عصبية»[2]. وفي هذا إلغاء لهدف كان يعتبر من أسمى أهداف الجاهلية ألا وهو التعصب للقبيلة والنسب.

---

(١) رواه أحمد، ح/١٥٤٤٨.

(٢) رواه أبو داود، ح/ ٤٤٥٦.



ولقد اتبع القرآن في توجيهاته أسلوب ربط السلوك السوي الذي لا بد أن يكون عليه المرء المسلم بالهدف الذي لا بد أن يسعى إليه، فكان ذلك تصحيحاً للهدف والسلوك معاً قال - تعالى -: ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .... أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٢ - ٣٥].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦].

لذلك ظهر ذلك الجيل الذي تسامى فوق الأهداف الصغيرة والتطلعات الدنيوية الحقيرة ليسعى نحو الهدف السامي عن طريق سلوك سوي لعمارة الأرض كما شرع الله بعد أن امتلك عقيدة سوية.

قال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ، فآمن به واتبعه، فقال: أهاجر معك. فأوصى به بعض أصحابه؛ فلما كانت غزوة خيبر غنم الرسول ﷺ شيئاً فقسمه وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه، فجاء به النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: قسم قسمته لك. قال: ما على هذا تبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت، فأدخل الجنة. فقال: إن تَصْدُقِ اللهَ يصدقْكَ، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتي به للنبي ﷺ وهو مقتول، فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم! صدق الله فصدقه»[1].

وحينما قال الرسول ﷺ يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم! قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخ بخ؟ قال: لا والله! يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة، ثم قاتلهم حتى قُتِلَ»[2].

وضوح تام في الهدف، وصدق في العقيدة أدى إلى وضوح وسلامة في السلوك.

الجاهلية المعاصرة:

إن الجاهلية التي أصابت العالم اليوم بشقَّيْه: الإسلامي، وغير الإسلامي، يمكن تقسيمها إلى نوعين:

- جاهلية عقائد.
- جاهلية أهداف.

جاهلية العقائد: وهي التي تضرب آفاق العالم اليوم بما فيه الإسلامي وغير الإسلامي. فالعالم غير الإسلامي بكفره البواح يؤكد على انحراف في العقيدة لا شك فيه، وهو الذي أدى إلى انحراف في الأهداف ثم في السلوك.

---

(١) زاد المعاد، ج ٣، ص ١٩٠.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٣٥٢٠.



إن التخبط الذي يعيشه الفرد غير المسلم إنما مردُّه إلى ضياع وتخبُّط في أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها؛ فمن هدف قصير الأجل دنيوي لا يلبث بعد أن يحققه أن يكتشف مدى استشراء الهشاشة فيه حتى يبحث عن هدف آخر إلى أن تقوده تلك الأهداف الزائفة إلى الانتحار أو سوء الخاتمة.

وكذلك الدول ـ والتي ليست في حال أحسن من أحوال أفرادها ـ تعطي شعوبها أهدافاً، وتسعى بكل جهدها لتحقيقها، ثم حينما تتحقق هذه الأهداف تنكشف للشعوب مدى هشاشتها مما يجعل تلك الدول والحكومات تبحث عن أهداف وغايات أخرى قبل أن تقوم هذه الشعوب الضالة بتغيير تلك الحكومات؛ فمن القضاء على النازية إلى القضاء على الشيوعية، ثم النظام العالمي الجديد. فهذا (بيتر رايت) ـ وهو أحد كبار ضباط المخابرات البريطانية ـ يصف فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بقوله: «كان الشتاء قارساً، وأخذ الناس بالتذمر من حصص الغذاء، وكانت نشوة الانتصار عام ١٩٤٥م قد بدأت تتلاشى»[(١)]، وما أبعد هذه الصور عن قول ربعي بن عامر حين قال له رستم: ماذا جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

جاهلية الأهداف:

قبل التحدث عن جاهلية الأهداف يلزم توضيح ماهية الأهداف؛ فمعلوم أن الهدف هو: القصد والغاية، والأهداف تنقسم إلى نوعين:

أولاً: أهداف ثابتة، وهي ما تسمى في علم الإدارة بالأهداف الاستراتيجية.

ثانياً: أهداف مرحلية أو قصيرة الأجل، وهي ما تسمى بالأهداف التكتيكية[(٢)].

ولا بد أن تسير الأهداف المرحلية وتصاغ في ضوء الأهداف الثابتة؛ بحيث لا تعارضها، وإن حدث أن عارض هدف مرحلي الهدف الثابت يجب فوراً إلغاء الهدف المرحلي أو تصحيح مساره ليتناسب مع الهدف الثابت. فلو نظرنا إلى مؤسسة تجارية فإن الهدف الثابت لها هو الربح وتوزيع أكبر عائد ممكن على مُلاَّكها، وقد يكون أحد الأهداف المرحلية لهذه المؤسسة هو فتح فرع في إحدى المدن، فإذا كان تحقيق مثل هذا الهدف سوف يتسبب في إحداث خسائر لهذه المؤسسة فإنه يجب استبعاده فوراً؛ لأنه يتعارض مع الهدف الثابت لهذه المؤسسة. وفي حياة الإنسان المسلم هناك أهداف ثابتة وأخرى مرحلية؛ فالهدف الثابت له هو الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ ودخول الجنة والنجاة من النار ـ وذلك بعد أن يمن الله عليه برحمته ـ جل وعلا ـ.

وقد يخطئ من يعتقد أن هدف الإنسان هو عبادة الله. والحق أن عبادة الله ليست سوى الوسيلة لتحقيق الهدف الذي يسعى إليه الإنسان وهو المذكور سابقاً، وسبب هذا الاعتقاد الخاطئ هو تفسير

---

(١) بيتر رايت، صائد الجواسيس، ترجمة عمادة القسوس، ص ١٤.

(٢) انظر: حتى لا تكون كلاً، عوض القرني، ص ١٤.



قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦]. وذلك أن هذا هو غاية الله ـ جل وعلا ـ من خلق الإنس والجن وليس في الآية ما يدل على أن ذلك هو هدف الإنسان، ومصداق ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[الدخان :٣٨].

وقوله ـ جل وعلا ـ : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

بل إن هدف الإنسان ليوضحه ـ جل وعلا ـ بقوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ [الفتح : ٥].

فتعبير فاز يدل على أن هذا هو ما يجب أن يسعى إليه الإنسان ويكون هدفه في هذه الدنيا.

وأما الأهداف المرحلية فإنها تلك الأهداف التي يسعى الإنسان لتحقيقها في هذه الحياة الدنيا مما ييسر عليه أمورها ويعينه على تحقيق هدفه الثابت. ومن هذه الأهداف : السعي في طلب الرزق الحلال، وتحقيق الكسب الحلال، والزواج، والسكن المريح. كل هذه الأهداف يجب ألا تتعارض مع الهدف الثابت للإنسان.

فجاهلية الأهداف: وهي التي تصيب بعض المجتمعات الإسلامية التي تسود فيها عقائد سليمة على الأغلب، ولكن أهدافها تكون منحرفة وهي حالة شاذة جداً عما ينبغي أن تكون عليه مجمل المجتمعات الإسلامية؛ فليست أهداف الإنسان إلا محصلة عقائده. ولا شك أن التخبط والانحراف في تحديد الأهداف أو في ترتيب أولويات الأهداف بحيث تصبح الأهداف الثابتة أهدافاً غير ذات بال والأهداف المرحلية أو التافهة منها هي الأهداف الثابتة التي يسعى لها الإنسان، بمعنى أن تكون الآخرة والحصول على رضوان الله ـ جل وعلا ـ أهدافاً غير ذات بال، وتكون أهداف الدنيا الزائلة أهدافاً ثابتة يسعى لها الإنسان ويبذل في تحقيقها الغالي والنفيس؛ فما الذي يجعل أفراداً بل شعوباً من هذه الأمة تؤمن بالمفاهيم والأفكار الإسلامية، ثم تسلك سلوكاً منحرفاً يقودها إلى غير ما ترشدها تعاليم دينها الحنيف إلا انحراف في أهداف هذه الشعوب وهؤلاء الأفراد.

إن ظهور جيل من المسلمين له عقيدة سليمة يؤمن بالله واحداً أحداً، ويقوم بكل واجبات دينه من صلاة وزكاة وصوم وحج، ثم يدعو إلى أكل الربا أو سفور للمرأة، أو يجري وراء ملذات الدنيا وشهواتها حتى لو كانت سوف تلقي به في جهنم ليؤكد على أن الانحراف الذي أصاب سلوك مثل هؤلاء مع صفاء عقائدهم إنما مردُّه إلى انحراف في فهم أهداف هؤلاء؛ بحيث أصبحت الدنيا هي الهدف الأسمى، والآخرة هدفاً يليه إن تذكّره الإنسان.

التربية بترسيخ الأهداف:

وإذا آمنا بكل ما سبق فإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام : ما الذي يجعل أهداف هذا الجيل (مع صفاء العقيدة) تنحرف عن الهدف السامي وتؤدي بدورها : إلى انحراف في السلوك؟

وللإجابة على هذا التساؤل نعيد النظر في الحلقات الثلاث وهي :

العقيدة ـ الهدف ـ السلوك.

فالعقيدة التي هي الأصل؛ ويجب الاهتمام بها جيدا والتأكد من صفائها. نراها في مثل هذا الجيل عقيدة سليمة؛ فهم يؤمنون بالله واحداً، واليوم الآخر، والرسالات، والكتب، والملائكة، وبالقدر خيره وشره، وكل المغيبات من جنة أو نار.

ثم نجد بعد هذا أهدافاً منحرفة بل أهدافاً تعارض الهدف السامي الذي يسعى له الإنسان في هذه الدنيا وهو دخول الجنة والنجاة من النار؛ مما يؤكد على أن مثل هذا الهدف لم يرسخ في قلوب أفراد هذه الفئة ترسيخاً يتلاءم مع ما تمليه به عقائدهم؛ وما ذلك إلا لوجود حلقة ضائعة بين العقيدة والهدف ألا وهي التربية؛ فلا يمكن زرع عقيدة سليمة ثم لم ترسخ، ثم نطالب صاحبها بسلوك سوي إلا إذا ربطت العقيدة والسلوك بهذا الهدف، وهكذا كان أثر القرآن والسنة النبوية في تربية الجيل الأول.

وعليه فلا بد من إعادة تربية هذا الجيل وربطه بالهدف الحقيقي له، وإلغاء كل هدف يتعارض معه. فعلى الآباء في المنازل تربية الأطفال على ذلك النهج، وعلى الأساتذة في المدارس تربية الطلاب على هذا المنوال، وعلى الخطباء في المساجد التركيز على إعادة صياغة الهدف في حياة الناس ليكون ذلك هو الهدف الأسمى الذي إذا تعارض معه أي هدف من أهداف الدنيا غلب الهدف الأساس عليه؛ لأنه الأسمى ألا وهو دخول الجنة والنجاة من النار.

ولا يفوتني في ختام هذا المقال من التنبيه على مسائل مهمة في هذا البحث وهي:

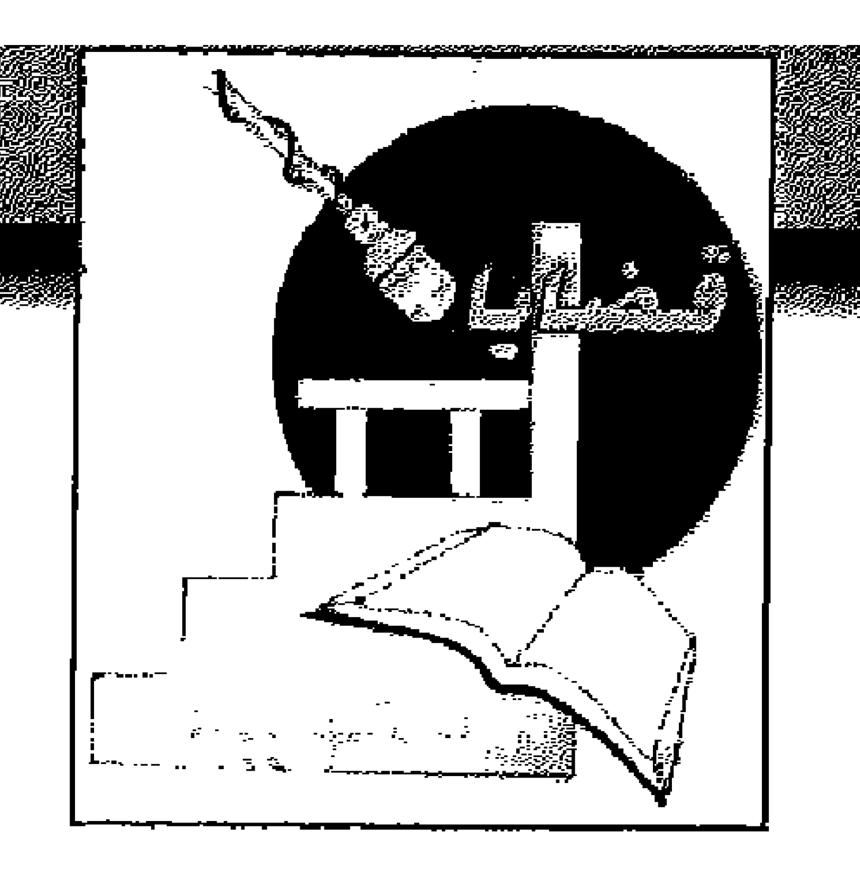
أولاً: دأبت كثير من الأفلام والقصص الموجهة للأطفال على أن يقوم بطل الرواية أو القصة بالبحث عن أرض السعادة أو أرض الجمال؛ وهذا الأسلوب يمكن اتباعه في تربية الأبناء والأطفال على أساس البحث عن الجنة وتجنب النار، وأن الجنة هي أرض السعادة المنشودة الأبدية، ثم بعد ذلك يتم ربط سلوكيات الطفل بهذا الهدف، ورسم صورة مشرقة في ذهنه عن الجنة وما فيها من ملذات، وعن النار وما فيها من عذاب.

ثانياً: يجب تربية هذا الجيل وتصحيح أهدافه بداية من المدرسة؛ وذلك بربط العقائد التي يدرسها والسلوكيات التي يتعلمها بالهدف الذي يجب أن يسعى إليه وتصحيح تصوراته عن الجنة والنار بحيث تصبح أهدافاً يسعى إليها لا مجرد عقائد نظرية فحسب.

ثالثاً: يتهاون كثير من الخطباء بمسألة التذكير الدائم بالجنة والنار وكذلك أهوال يوم القيامة؛ وأرى أنه لا بد من التذكير بذلك؛ بحيث يتم توجيه الناس إلى أن الهدف الحقيقي لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق التذكُّر الدائم للجنة والنار، فيجب عرض أهداف الدنيا عليه؛ فما عارضه فينبغي أن يستبعد فوراً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]؛ فالفوز حقاً هو الفوز في عبور الصراط ودخول الجنة.







تخريج العمالقة

د. عبد الرحمن آل عثمان

لقد اقتضت حكمة الباري - جل وعلا - أن خلق البشر وجعلهم متفاوتين في الصور والهيئات والألوان، بَلْهَ القوةَ والضعف، والصحة والمرض، والغنى والفقر، فضلاً عن التفاوت العظيم بينهم في الهمم والإرادات، والميول والرغبات، والفهوم والمَلَكات، كل ذلك لحِكَم عظيمة بها تقوم حياة الناس وتتحقق مصالحهم، ويُسخَّر بعضهم لبعض، ومن ثَمَّ - أيضاً - يتفاوت حسابُهم بحسب ما أعطاهم الله - تعالى - من الأعْراض والمَلَكات، كما قال - تعالى -: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال - سبحانه - أيضاً في آخر الأنعام: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وهذا التفاضل ينتج عنه تَمَايُزٌ في السعي والتحصيل في العلوم والصنائع، ومن ثَمَّ يحصل التكامل الذي به تكون عمارة الأرض وبناء الحضارة؛ فهذا يكون رأساً في العلوم الشرعية، وذاك نابغة في العلوم التجريبية، وثالث هَامَة في الفنون القتالية، ورابع باقِعَة[1] في التدبير والسياسة ... وهكذا.

وإنما هذه المهارات بمنزلة الزرع؛ فهو يقوى ويشتد، ويُؤتي ثماره المرجوة بأمرين:

الأول: قابلية المحلّ.

الثاني: القيام عليه وتعاهده بالسقي والرعاية.

---

(١) الباقعة: الرجل الداهية، والذكي العارف الذي لا يفوته شيء ولا يُدهى. (القاموس، مادة: بقع).



فهو عند اجتماع الأمرين يكون بمنزلة جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، وإن لم يصبها وابل فيكفيها طلٌّ حتى تُخرِج من كل زوج بهيج.

وبانعدام أحدهما لا يحصل المطلوب؛ ذلك أن من يحاول علماً لا يتناسب مع ميوله وقدراته كمن يزرع جوز الهند في الأندلس - كما قال ابن حزم - أو النخيل في أحد القطبين!!

وهكذا نَفاسَة المعدن، وتوقُّد الذكاء، وقابلية المحل، لا تكفي من غير صقل وتربية وعناية.

وعليه يقال: مقومات النبوغ والتفوق والإبداع - بعد توفيق الله تعالى - أربعة:

الأول: الإخلاص لله - تعالى - وتقواه، خاصة إذا كان العلم المطلوب شرعياً. وقد جاء في بعض رسائل الشيخ حمد بن عتيق (ت ١٣٠١هـ) - رحمه الله - ما نصه: «... ومن تأمل أحوال العالم وجد ما يشهد به، فيجد من يَشِبّ ويشيب وهو يقرأ ولم يُحصِّل شيئاً لمانع قلم به وحال من نفسه»[١].

ولما وقعت عين الإمام مالك - رحمه الله - لأول مرة على الإمام الشافعي - رحمه الله - وهو في أوائل الطلب قال له مالك - رحمه الله -: «إن الله - عز وجل - قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية»[٢]. وفي رواية عند ابن عساكر: «فلما أن سمع كلامي نظر إليَّ ساعة[٣] - وكان لمالك فراسة - فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد، فقال لي: يا محمد! اتق الله واجتنب المعاصي؛ فإنه سيكون لك شأن من الشأن»[٤].

الثاني: توفر المَلَكَة والأهلية في ذلك الفن.

الثالث: أن يوفَّق إلى المربي الفطن الذي يتمكن من اكتشاف مواهبه والتفرس في مَلَكَاته منذ مراحله الأولى، فيوجهه إلى تنمية تلك القُدرات، ويَكِلُه إلى من لديه القدرة على صقلها وتقويتها.

الرابع: وجود البيئة الملائمة من التلاميذ الذين يتفقون معه في النبوغ والتفوق من جهة، والأساتذة البارعين في هذا الجانب من جهة أخرى.

وإذا وقع الإخلال بشيء من ذلك فالنتيجة المنتظرة هي الفشل والضمور والتضاؤل، ومن ثَمَّ تكون الثمرة: تخريج الأقزام بدلاً من العمالقة. والله المستعان.

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق - رحمه الله -، ص ١١٢ (طبع دار الهداية - الرياض).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٣) ساعة: كناية عن إطالة النظر.

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور، ٢١/٣٦٣.



ولعل من المناسب - في هذا العصر الذي برز فيه الحديث عن الموهوبين - أن أنقل لك كلاماً لعلَم من أعلام المسلمين في هذه القضية الحيوية، وهو الإمام الشاطبي - رحمه الله - (ت ٧٩٠هـ) حيث يقول - في معرض كلامه على فروض الكفاية -: «وذلك أن الله - عز وجل - خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصالحهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ألا ترى إلى قول الله - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدريج والتربية؛ تارة بالإلهام كما يُلهَم الطفلُ التقام الثَّدي ومصّه، وتارة بالتعليم؛ فطلب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما يُستجلَب به المصالح وكافة ما تُدْرأ به المفاسد، إنهاضاً لما جُبِلَ فيهم من تلك الغرائز الفِطْريَّة، والمطالب الإلهامية؛ لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح - سواء كان ذلك من قبيل الأفعال، أو الأقوال، أو العلوم والاعتقادات، أو الآداب الشرعية أو العادية - وفي أثناء العناية بذلك يَقْوى في كل واحد من الخلق ما فُطر عليه، وما أُلهِم له من تفاصيل الأحوال والأعمال؛ فيظهر فيه وعليه، ويُبرُز فيه على أقرانه ممن لم يُهيأ تلك التهيئة؛ فلا يأتي زمانُ التعقُّل إلا وقد نجم[1] على ظاهره ما فُطر عليه في أوَّليَّته؛ فترى واحداً قد تهيَّأ لطلب العلم، وآخر لطلب الرياسة، وآخر للتصنع ببعض المهن المحتاج إليها، وآخر للصِّراع والنطاح، إلى سائر الأمور.

هذا وإن كان كلُّ واحدٍ قد غُرز فيه التصرف الكلي؛ فلا بدَّ في غالبِ العادة من غَلَبة البعض عليه؛ فيردُ التكليفُ عليه معلَّماً مؤدَّباً في حالته التي هو عليها؛ فعند ذلك ينتهضُ الطلبُ على كل مكلف في نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهضٌ فيه، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات؛ فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج في أيديهم على الصراط المستقيم، ويعينونهم على القيام بها، ويحرضونهم على الدوام فيها؛ حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخُطط[2]، ثم يخلى بينهم وبين أهلها، فيعاملونهم بما يليق بهم ليكونوا من أهلها، إذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية، والمدْركات الضرورية؛ فعند ذلك يحصل الانتفاع، وتظهر نتيجة تلك التربية.

فإذا فُرِضَ - مثلاً - واحدٌ من الصبيان ظهر عليه حسنُ إدراك، وجودة فهم، ووفور حفظٍ لما يسمع

---

(١) أي: ظهر. انظر: «لسان العرب» (ن ج م).

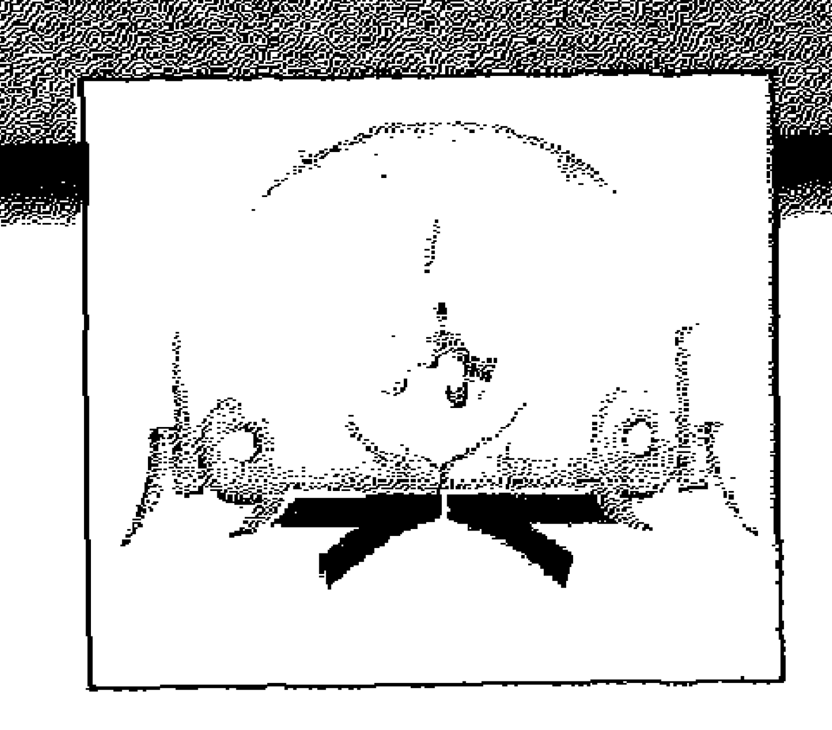
(٢) أي: الأمور والأحوال. انظر: «لسان العرب» (خ ط ط).

ـ وإن كان مشاركا في غير ذلك من الأوصاف ـ ميل به نحو ذلك القصد ، وهذا واجبٌ على الناظر فيه من حيث الجملة مراعاة لما يُرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم ، فطلب بالتعلم وأُدِّب بالآداب المشتركة بجميع العلوم ، ولا بد أن يُمال منها إلى بعض فيؤخذ به ، ويُعان عليه ، ولكن على الترتيب الذي نصَّ عليه ربّانيُّو العلماء ، فإذا دخل في ذلك البعض فمال به طبعه إليه على الخصوص ، وأحبَّه أكثر من غيره : تُرك وما أحب ، وخص بأهله ؛ فوجب عليه إنهاضه فيه حتى يأخذ منه ما قدر له ، من غير إهمال له ولا ترك لمراعاته ، ثم إن وقف هنالك فحسن ، وإن طلب الأخذ في غيره أو طُلب به ؛ فُعل معه فيه ما فعل فيما قبله ، وهكذا إلى أن ينتهي .

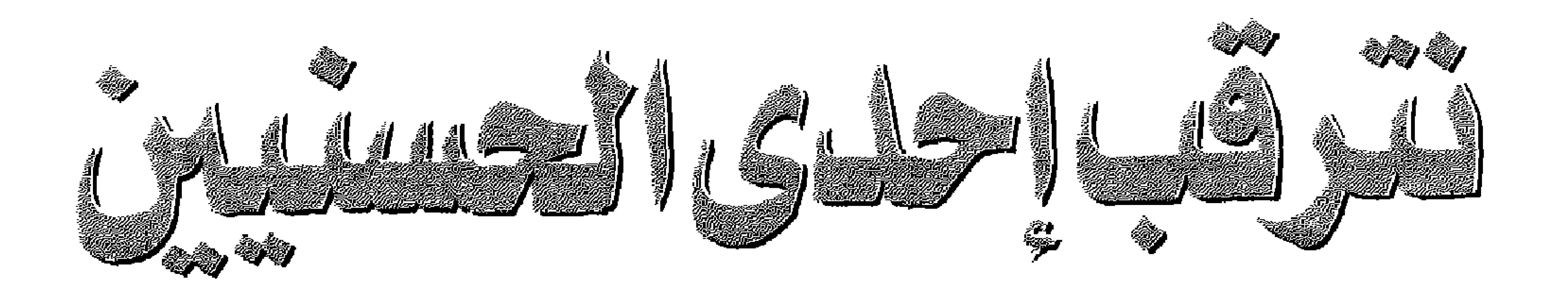
كما لو بدأ بعلم العربية مثلاً ـ فإنه الأحقُّ بالتقديم ـ ؛ فإنه يُصرَف إلى معلميها ؛ فصار من رعيتهم ، وصاروا هم رُعاةً له ؛ فوجب عليهم حفظه فيما طلب بحسب ما يليق به وبهم ، فإن انتهض عزمه بعدُ إلى أن صار يحْذِقُ القرآن صار من رعيتهم ، وصاروا هم رُعاةً له كذلك ، ومثله إن طلب الحديث أو التفقه في الدين إلى سائر ما يتعلق بالشريعة من العلوم ، وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وَصْفُ الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور ، فيُمال به نحو ذلك ، ويُعلَّم آدابه المشتركة ، ثم يصار به إلى ما هو الأولى فالأولى من صنائع التدبير ؛ كالعرافة ، أو النقابة ، أو الجندية ، أو الهداية ، أو الإمامة ، أو غير ذلك مما يليق به ، وما ظهر له فيه نجابة ونهوض ، وبذلك يتربى لكل فعلٍ هو فرضُ كفايةِ قومٌ ؛ لأنه سير أولاً في طريق مشترك ؛ فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف في مرتبة محتاج إليها في الجملة ، وإن كان به قوة زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية ، وفي التي يَنْدُر من يصل إليها ؛ كالاجتهاد في الشريعة ، والإمارة ؛ فبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الآخر»[1] .

(١) الموافقات ، ١/٢٨٤ ـ ٢٨٦ .





حوار مع الشيخ محمد السيف



الشيخ أبو عمر محمد بن عبد الله السيف من طلبة العلم الذين نفروا إلى الجهاد في سبيل الله؛ وقليل هم الذين يُعنَون بالجهاد من طلبة العلم، وقليل من هؤلاء من ينفر للجهاد في سبيل الله بنفسه، وقليل ممن ينفر بنفسه مَنْ يبقى ويستمر في ميدان الجهاد ويثبت السنوات الطوال؛ فهم قليل من قليل من قليل.

وضيفنا نحسبه من هذا القليل؛ فقد تخرج في كلية الشريعة وتتلمذ لفضيلة الشيخ ابن عثيمين. شارك في الجهاد في الحرب الشيشانية الأولى، وعند انتهاء الحرب اشتغل بالدعوة والتعليم، فكان له دور في تأسيس المحاكم الشرعية في فترة الاستقرار التي تلت الحرب الأولى من ١٩٩٦م ـ ١٩٩٩م تقريباً، وكان له دور في نشر المنهج العلمي الشرعي؛ فقد أنشأ معهد القضاء الشرعي، ومعهد الإمام الشافعي للدراسات الشرعية؛ ولما وقعت الحرب الثانية على أرض الشيشان بادر للمشاركة في الجهاد، فكان أحد رموزه المؤثرة؛ حيث كان يشارك بنفسه ويحرض المؤمنين ويعلمهم ويدعمهم الدعم المادي والمعنوي.

وقد أصيب عدة مرات في القتال، ولا يزال ـ بحمد الله ـ في صحة جيدة يقوم على الثغور ويتحرك في العمليات. نسأل الله أن يوفقه وإخوانه، وأن ينصرهم على القوم الكافرين، ويسعدنا في مجلة البيان أن يكون فضيلته ضيفنا في هذا اللقاء.

البيان: نريد أن تحدثنا عن الوضع القائم من حيث مناطق نفوذ المجاهدين ومعنوياتهم وخطتهم العسكرية في هذه المرحلة؟

■ الوضع القائم الآن جيد، والمجاهدون بصحة جيدة يتحركون نحو أهدافهم بسهولة، وينتشرون في مناطق واسعة لا تحدهم حدود، ومعنوياتهم مرتفعة، ولله الحمد؛ فهم يترقبون إحدى الحسنيين ولا يبالون بأيهما ظفروا: النصر أو الشهادة؛ فعلى الرغم من التضحيات الكثيرة التي قدمت وشدة القتال وضراوة المعركة وما يملكه العدو من إمكانات عسكرية ضخمة إلا أن هذا كله زادهم إصراراً وتصميماً على مواصلة الطريق نحو الهدف الأسمى، وهم يرتقون ذروة سنام الإسلام ويتراءى لهم قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٣٩ - ١٤١].

وأما الخطة العسكرية في هذه المرحلة فهي القيام ـ بعون الله تعالى ـ بحرب عصابات شاملة ومفاجئة للعدو في جميع أنحاء البلاد وفي كل مكان يمكن الوصول فيه للقوات الروسية، وهذه تحتم كثرة التنقل وعدم الاستقرار في مكان واحد لمدة طويلة وعدم المحافظة على المواقع، بل يضرب العدو في موقع ثم نفاجئه في موقع آخر.

البيان: ما وضع الروس والمناطق التي يسيطرون عليها ومعنوياتهم؟ وما الفرق بين الجيش والأمون؟

■ الروس مع ما يملكون من قدرات عسكرية ضخمة إلا أنهم يعانون من تدني الروح المعنوية؛ حيث يساقون قسراً إلى مواقع القتال وهم يبكون وقد سيطر عليهم الرعب، ولا يدرون من أين يأتيهم المجاهدون؛ حتى وصل الحال ببعضهم إلى الانتحار؛ فقد عُثِرَ على ضابط انتحر في مكتبه في إحدى نقاط التفتيش، وعثر على بعض الجنود وقد انتحروا في آلياتهم.

ولا يسيطر الروس إلا على الأرض التي تحت أقدامهم، وأما سائر أرجاء الشيشان فلا يملكون السيطرة عليها؛ حيث يتحرك المجاهدون ويتنقلون في المناطق التي تزعم القوات الروسية السيطرة عليها.

والفرق بين الجيش والأمون: أن قوات الأمون هي الشرطة الخاصة التابعة لوزارة الداخلية، ويتلقى أفرادها تدريباً خاصاً وعناية وتجهيزاً متميزاً، وأعمار أفرادها يبدأ بعد الخامسة والعشرين، وعملها تفتيش القرى، ووضع نقاط التفتيش في الطرق، ومكافحة الإرهاب ـ على حد زعمهم ـ. أما الجيش



فمهمته الرئيسة القتال والقصف بالطيران وإنزال المظليين.

وبين الجيش والأمون خلافات تصل إلى حد القتال؛ نسأل الله أن يجعل بأسهم بينهم شديدا.

البيان: ما موقف المجاهدين من عروض المصالحة التي يسمع عنها بين الحين والآخر؟

■ المجاهدون يرفضون أي مصالحة لا تكون نتيجتها الاستقلال الكامل للشيشان ويلتزم الروس فيها بتعويض الشيشان عن الخسائر التي نزلت بها، وإعادة الإعمار وبخاصة البنية التحتية.

والمجاهدون الآن يرفضون أي تفاوض مع الروس ما لم يخرج الجيش الروسي من الشيشان.

البيان: يثار أن هناك خلافاً بين المجاهدين، ويتخوف كثير من المحبين أن يتكرر ما حصل في أفغانستان من الاختلاف فما ردكم؟

■ ليس هناك خلاف بين القادة الميدانيين ـ بحمد الله تعالى ـ، بل العمل قائم على التنسيق والتكامل، والوضع في الشيشان يختلف عن أفغانستان؛ حيث إن أهل الشيشان من عرق واحد وليس هناك خلافات عميقة ولا أحزاب بين القادة بخلاف أفغانستان؛ فإنها أعراق مختلفة، والخلاف بين القادة له جذور وصراعات حزبية. نسأل الله أن يؤلف بين المسلمين في كل مكان.

البيان: يتردد في بعض وسائل الإعلام أن غير الشيشانيين المشاركين في القضية الشيشانية مرتزقة وليس لهم علاقة بالقضية، فبماذا تردون عليهم؟

■ قد يرد مثل هذا الطرح لدى الكفار الذين لم يعرفوا طبيعة هذا الدين وأن أمة الإسلام أمة واحدة؛ فقد استجاب المجاهدون من غير الشيشان لأمر الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] وقد أجمع العلماء على تعيُّن الجهاد إذا دخل الكفار بلاد المسلمين، وبلاد المسلمين كلها بمثابة البلد الواحد؛ فالذين نفروا من غير الشيشانيين وتركوا ما هم فيه من رغد العيش ورخاء الدنيا ارتقوا بذلك ذورة سنام الإسلام يبغون حظ الآخرة ـ نحسبهم كذلك ـ محققين بذلك أمنية رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل» رواه البخاري.

ولماذا يلام أهل الإسلام على نصرتهم لإخوانهم في الدين؟ والإسلام لا يعرف الحدود ولا الحواجز ولا الفوارق العرقية:



وحيثما ذكر اسم الله في بلدٍ عددت أرجاءه من لب أوطاني

ألا يرون الروس الأرثوذكس الذين خرجوا متطوعين لمناصرة إخوانهم الصرب في يوغسلافيا؟ ألا يرون تحرك الغرب - أوروبا وأمريكا - لمناصرة إخوانهم النصارى في تيمور الشرقية؟!

البيان: هناك من يطرح أهمية اقتصار الإخوة الأنصار على النشاط الدعوي والجهادي وعدم محاولة البروز السياسي؛ لأنه مزلق سيكون له آثار مدمرة وعكسية. فما تعليقكم؟

■ النشاط الدعوي والجهادي يقوم به الإخوة الأنصار وهو أساس عملهم وهم على كل حال قدموا لنصرة القضية الإسلامية في الشيشان سواءً في جانب الدعوة والجهاد أو في الجانب الإعلامي السياسي وغيرها وليس لهم طموح دنيوي لا في أرض الشيشان ولا في غيرها.

البيان: ما هو تقويمكم لمواقف الشعوب والحكومات الإسلامية؟

■ أما بالنسبة لموقف الشعوب الإسلامية بل المسلمين في العالم فهو موقف مشرّف؛ ونحن نشعر بمشاركتهم لنا في قضيتنا من خلال دعمهم المادي والمعنوي. لقد قذفت هذه الشعوب بفلذات أكبادها ليشاركوا في الجهاد بأنفسهم، وبذلوا أموالهم لنصرة القضية، وإنا لنرى أثر دعواتهم في تنزُّل النصر وحصول الفرج من الله - تبارك وتعالى - وتصلنا عواطفهم الحارة من خلال رسائلهم إلى موقعنا على الإنترنت (صوت القوقاز) الذي يبث حتى الآن بخمس عشرة لغة؛ وإنا لنقدر لهذه الشعوب مواقفها، ونسأل الله أن يحيي في الأمة المسلمة روح الجهاد من جديد.

أما الدول الإسلامية فإنها للأسف تخاذلت عن نصرة الشعب الشيشاني، ولم ترجع في هذه القضية إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ؛ بل رضيت بما تحكم به هيئة الأمم التي هي في الحقيقة تمثل اليهود والنصارى.

وليتهم توقفوا عند هذا الحد؛ بل إنهم دعموا الروس من خلال تصريح وفد منظمة المؤتمر الإسلامي بأنهم يؤمنون بوحدة الأراضي الروسية، وأن القضية الشيشانية شأن داخلي لروسيا، وأنهم ليس من عقيدتهم دعم الإرهاب - على زعمهم - دون أن يعبروا عن استنكارهم لما يجري في الشيشان.

البيان: ما تقويمكم لموقف الغرب من القضية؟

■ نحن لا نعلق أملاً على الغرب الكافر لمناصرتنا، بل نحن نعلم أن الغرب يسعى إلى تحقيق



> المجاهدون يرفضون أي مصالحة لا تكون نتيجتها الاستقلال الكامل للشيشان

مصالحه، وأن عدوه الأول هو الإسلام. فالغرب له مصلحة من استمرار الحرب في الشيشان من خلال موازنة ومعادلة معينة في مصلحته، ومن ذلك: زيادة إخضاع روسيا للغرب، وإضعاف قبضتها على القوقاز؛ حيث طموحات الغرب هناك، ومساومة روسيا بالقضية الشيشانية للحد من انتشار الأسلحة، وعدم تمرد روسيا على سياسة الغرب في القضايا العالمية، والحديث عن انتهاكات روسيا لحقوق الإنسان لتحقيق هذا الغرض.

وبالمقابل فإن الغرب يخشى من انتصار القوى الإسلامية في القوقاز، ويعتبر قيام دولة إسلامية خطراً داهماً يهدد النظام العالمي الجديد، وبناءاً على هذا فهو يدعم روسيا بالمال من خلال القروض، وبالاستشارات العسكرية ويتعاونون معهم في مجال الاستخبارات والاتصالات.

وأما الشعارات الجوفاء التي يرفعها الغرب مثل: حقوق الإنسان، وحق الشعوب في تقرير المصير، والديمقراطية، فهذه كلها نداءات ليس لأهل الإسلام فيها نصيب.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

البيان: هل لليهود دور في القضية الشيشانية؟

نعم! لقد وقف اليهود من خلال دولتهم في (إسرائيل) مع الروس من بداية الحرب، وعرضوا خدماتهم العسكرية والاستشارية، واستقبلوا جرحى الروس في مستشفياتهم.

البيان: ما أبرز سمات الجهاد في الشيشان؟

■ أبرز السمات: وضوح الراية؛ حيث ترفع راية الجهاد لقتال الكفار وتحرير بلاد المسلمين بشكل واضح؛ فإن الشعب الشيشاني مع كونه قد عاش ردحاً من الزمن تحت الاحتلال الروسي إلا أن العلم الشرعي قد انتشر في صفوفه وأصبح اتِّباع السنة والمنهج الصحيح بارزاً لدى كثير من المجاهدين مما حدا بالروس إلى الادعاء بأنهم يحاربون الوهابية في الشيشان.

البيان: كثيرون يحبون أن يتابعوا أخباركم فما المصدر الموثوق لمعرفة أخباركم؟

■ أخبارنا تؤخذ من موقعنا على الإنترنت صوت القوقاز، والذي يصدر حتى الآن بأكثر من خمس عشرة لغة منها: العربية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الأوردية، التركية، الماليزية، البوسنوية، الأندونيسية، الهندية، البنغالية، الإيطالية، الألبانية، ولكن الموقع أحياناً يتوقف أو يتأخر في نشر الأخبار بسبب الظروف الصعبة التي يمر بها الموقع أحياناً، ومن ذلك انقطاع الاتصالات وانشغال الإخوة في العمليات، وقريباً - إن شـاء الله - سيكون هناك تطوير للموقـع ومتابعة جيدة - بإذن الله تعالى -.

البيان: ما مستقبل القضية الشيشانية حسب تصوركم؟

■ الصراع بين الحق والباطل سنة الله الماضية، ونحن نقوم بالواجب الشرعي في قتال الكفار والدفاع عن أراضي المسلمين؛ والذي نتوقعه - إن شاء الله - أن تكون القضية الشيشانية سبباً لتقويض الاتحاد الروسي كما كانت القضية الأفغانية سبباً لتقويض الاتحاد السوفييتي، ونأمل أن تقوم دولة مسلمة على أرض القوقاز يُعاد فيها ذِكْرُ الفتوحات على عهد الخلفاء الراشدين.

ونحن نعلم أن هذا الأمل لا يمكن أن يتحقق من خلال نزهة في جبال القوقاز وسهولها، ولكنه يتحقق - بإذن الله - حين نطيع أمر الله، ونبذل الأسباب الشرعية التي أمر بها، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

البيان: هل من توصيات تسجلونها في نهاية اللقاء؟

■ في ختام هذا اللقاء أشكر مجلة البيان التي عُرفت بأصالتها وسلامة منهجها على إتاحة الفرصة للتعريف بالقضية الشيشانية، وأوصي الحكومات الإسلامية بنصرة الشعب الشيشاني والاعتراف باستقلال دولته عن روسيا، وأوصي عموم المسلمين بمساعدة إخوانهم والجهاد معهم بالنفس والمال واللسان والدعاء والقنوت لهم.



سلامة الصدر

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

من أعظم نِعَم الله ـ تعالى ـ على العبد المسلم أن يجعل صدره سليماً من الشحناء والبغضاء، نقياً من الغلِّ والحسد، صافياً من الغدر والخيانة، معافىً من الضغينة والحقد، لا يطوي في قلبه إلا المحبَّة والإشفاق على المسلمين.

قد يجد المرء من بعض إخوانه أذىً أو يصيبه منهم مكروه، وربما يسرف بعض إخوانه في جرحه أو الحط من قدره، بل قد يصل الأمر ـ والعياذ بالله ـ إلى أن يفتري أحد إخوانه عليه الكذب ويتهمه بالسوء.. ومع ذلك كله تراه يدعو الله ـ عز وجل ـ بقلب صادق أن يتوب على إخوانه، ويتجاوز عنهم، ويهديهم سبيل الرشاد، ولا يجد في نفسه سبيلاً إلى الانتقام أو الانتصار للنفس. وبقدر إدبارهم عنه وأذاهم له، يكون إقباله عليهم وإحسانه إليهم، يهتدي دائماً بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، كما يهتدي بما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصِلُهم ويقطعونني، وأُحسنُ إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلُمُ عنهم، ويجهلون عليّ!! فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت كما قُلتَ فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ[١]، ولا يزال معك من الله ـ تعالى ـ ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك»[٢].

وما أجمل قول الشاعر:

إذا أدمَتْ قوارِصُكم فُـؤادي ... صبرتُ على أذاكُم وانطويتُ
وجئت إليكـمُ طَلْـقَ المُحَيَّا ... كأنّـي مـا سمعـتُ ولا رأيتُ

كم يعلو قدر الإنسان، وتشرُف منزلته حينما يصل إلى هذه المنقبة العظيمة والخَلَّة الكريمة التي لا يقوى عليها إلا ذوو الصدق والإخلاص.. ولا يستطيع أن يصل إلى أعتابها إلا من جاهد نفسه حق المجاهدة، وفطمها عن شهواتها..؟!

---

(١) المَلّ: هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم إياه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٥٨).

ارأيت إلى ذلك الصحابي الجليل - رضي الله عنه - الذي أشار النبي ﷺ ثلاثاً إلى أنه من أهل الجنة، فلما ذهب إليه عبد الله بن عمرو بن العاص وبات عنده ثلاث ليال فلم يره فعل كبير عمل، فعجب عبد الله من حاله وسأله: ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: «ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه». فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق![1].

إن هذه الصفة الجليلة من الصفات التي رفعت أقدار الصحابة - رضي الله عنهم - فها هو ذا سفيان بن دينار يقول: قلت لأبي بشير - وكان من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: «كانوا يعملون يسيراً ويؤجَرون كثيراً». فقال سفيان: ولِمَ ذلك؟ قال: «لسلامة صدورهم»[2].

ولهذا بيَّن ابن القيم أن سلامة القلب: «مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته، وهو أن لا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه؛ بل يفرغ قلبه من ذلك، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب، وأعون على مصالحه؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه، فيكون بذلك مغبوناً، والرشيد لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرفات السفيه؛ فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟»[3].

إن ثمة حقيقة في غاية الأهمية والخطورة: وهي أن بعض صفوف الدعاة قد يكدرها بعض الأذى والسوء، فقد أصبح الشغل الشاغل لبعض الجهلة والقاعدين البطالين هو الوقوع في أعراض إخوانهم، ثم اشتغل آخرون بإشاعة السوء والنميمة، يفرون في أعراض الناس فرياً، ولا يقيمون وزناً لكبير ولا صغير، ولا يخافون الله - تعالى - في لحوم إخوانهم!!، واشتغل بعض من جرحهم هؤلاء بالرد عليهم وتبرئة ساحتهم، وإذا كان بعض ذلك مشروعاً، إلا أن الخوف كل الخوف أن يتحول إلى مجرد انتصار للنفس وتنفيس للهم، ينشغل بذلك عن الأولى والأهم.

أما النفوس العليَّة الكبيرة العامرة بنور القرآن، وذكر الرحمن فإنها لا تلتفت إلى هذه الصغائر، ولا تشغلها تلك التوافه عن السير قُدُماً في هذا الطريق؛ فالناس في شغل، وأولئك الأبرار في شغل آخر.. الناس في قيل وقال، وأولئك الأطهار لهم شأن آخر وهم أعظم، ومن نذر نفسه وجنَّد وقته لخدمة دين الله - تعالى - فأسهر ليله وأشغل نهاره في تتبع أحوال المسلمين وعلاج مشكلاتهم أيجد في نفسه اطمئناناً لسماع الوشاة، أو رغبة في الانتصار للذات؟!

قد رشَّحوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له ... فاربأ بنفسك أن تَرعَى مع الهَمَلِ

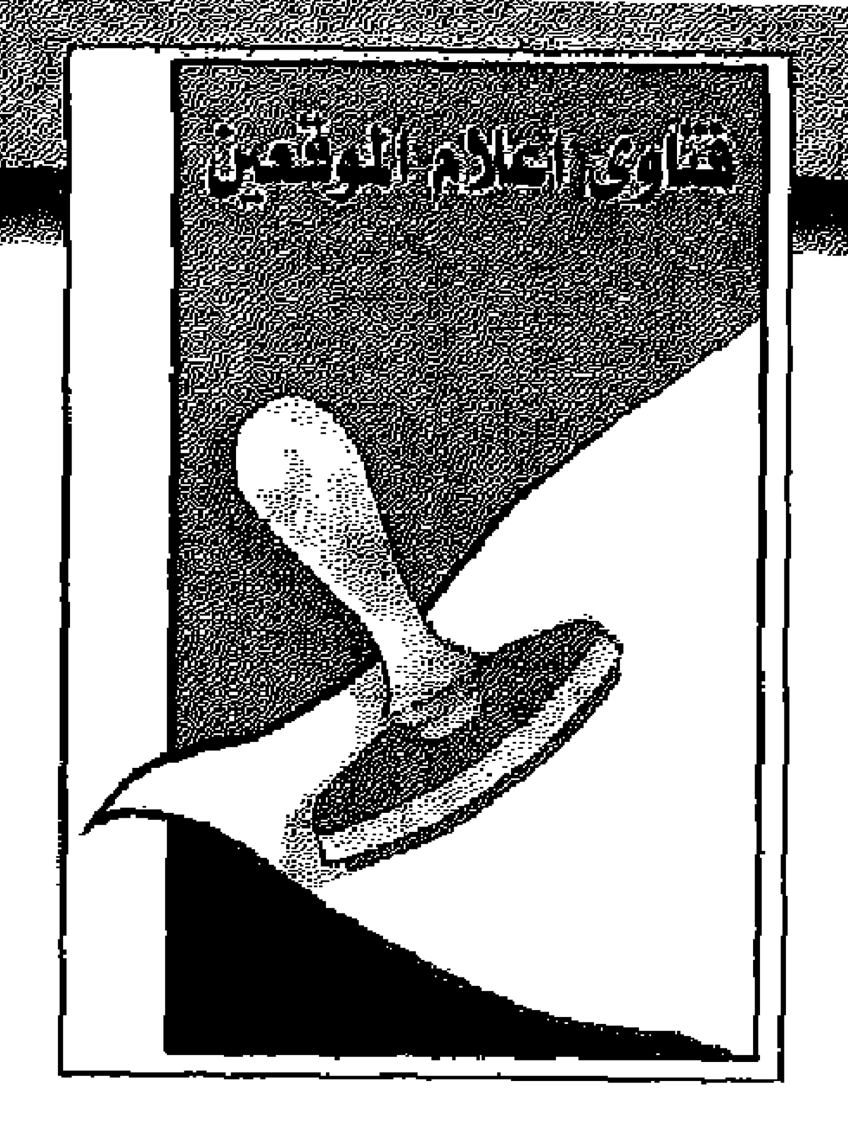
إن الأمة الإسلامية تمر بمرحلة خطيرة تكالبَ فيها الأعداء عليها من كل مكان، وأمامها مفرق طريق، ولا وقت هنا للهو والعبث والاشتغال بهذه الهموم الوضيعة التي أدنى ما فيها أنها تشتت الفكر، وتقبض الصدر، وتلهي الإنسان عن معالي الأمور..!

---

(١) أخرجه: أحمد في المسند (٣/١٦٦) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٢/٦٠٠).

(٣) مدارج السالكين، (٢/٣٢٠).



دولة اليهود آخر الزمان

فضيلة العلامة: محمد الأمين الشنقيطي

في هذا العدد نورد جواباً متيناً قائماً على أدلة شرعية مع استدلال عميق واستنباط دقيق.. إنه جواب الشيخ العلأمة محمد الأمين الشنقيطي[1] ـ صاحب تفسير أضواء البيان ـ رحمه الله تعالى ـ عندما سئل أثناء رحلته إلى الحج إلى بيت الله الحرام سنة ١٣٦٧هـ: هل يوجد نص شرعي يدل على وجود دولة لليهود في آخر الزمان؟ فذكر ـ رحمه الله ـ جواباً غاية في التحرير والتحقيق، فبيّن الشيخ من خلال نصوص شرعية بعض الأحوال المستقبلية في آخر الزمان، دون جمود ظاهري، أو تكلف في الاستدلال، أو تحميل للنصوص الشرعية ما لا تحتمله كما وقع فيه بعض المعاصرين، فإليك ما قاله هذا الإمام ـ رحمه الله ـ:

سألَنا بعضُ طلبة العلم: هل عثرنا على نص من الكتاب أو السنة يُفهَمُ منه وجود دولة لليهود في آخر الزمن؟

فكان جوابنا: إنه ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ما يدل بالدلالة المعروفة عند الأصوليين بدلالة الإشارة على وجود دولة لهم في آخر الزمان، أما النص الذي دل على ذلك بدلالة الإشارة فقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم! هذا يهودي ورائي فاقتله» رواه البخاري بهذا

(١) هو الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، ولد عام ١٣٢٥هـ بشنقيط (موريتانيا)، واجتهد في طلب العلم، وكان آية في التفسير والأصول، له المؤلفات النافعة في عدة فنون على رأسها (تفسير أضواء البيان)، كما كان له جهود مشكورة في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ونشر العلم الشرعي، وكان زاهداً ورعاً تقياً، وله تلاميذ كثيرون، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ. انظر: ترجمة عطية سالم للشنقيطي في آخر الجزء التاسع من أضواء البيان، وكتاب ترجمة محمد الأمين الشنقيطي، لعبد الرحمن السديس.

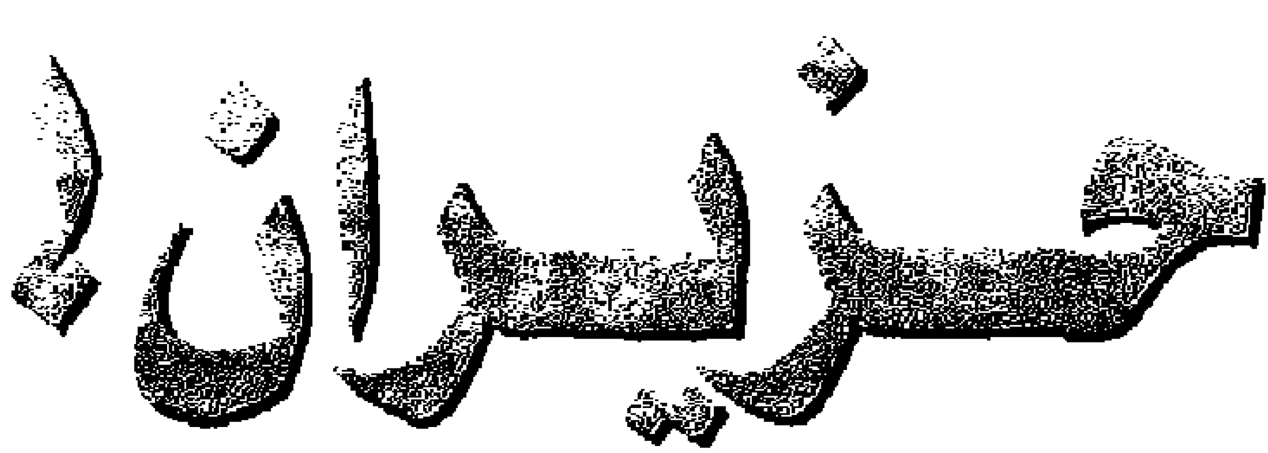


اللفظ، ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وقد أخرج هذا الحديث البخاري في كتاب الجهاد والسير في باب : قتال اليهود . ومسلم في كتاب «الفتن وأشراط الساعة» في باب : لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء . ومثل الحديث المذكور قوله ﷺ : «تقاتلون اليهود فتُسلَّطون عليهم حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول الحجر : يا عبد الله! هذا يهودي ورائي فاقتله» رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - . أما البخاري فقد أخرجه في (كتاب الجهاد في باب قتال اليهود) وأما مسلم فقد أخرجه في كتاب الفتن مختصراً . فهذا نص صحيح من النبي ﷺ أنه لا بد من قتال المسلمين واليهود حتى تكون عاقبة النصر والظفر للمؤمنين .

والمقاتلة بحسب الوضع اللغوي تقتضي وجود القتال من طائفتين مقتتلتين ؛ لأن المفاعلة تقتضي الطرفين وضعاً ، ومنه قوله ﷺ : «تقاتلون اليهود» على وجود جنس مقاتل من اليهود .

وذلك إنما يكون من طائفه متحدة الكلمة تحت طاعة أمير يقاتل بهم؛ وذلك هو معنى دلالة الحديث على وجود دولة لهم في آخر الزمان ؛ لأنهم لو كان دائماً عليهم مضمون قوله - تعالى - : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف : ١٦٨] وكانوا متفرقين غير مجتمعين أبداً تحت أمير على كلمة واحدة ما صح قتالهم مع المسلمين الذي نص عليه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح ، فإذا حققت ذلك فاعلم أن دلالة الإشارة في اصطلاح الأصوليين في دلالة اللفظ على معنى ليس مقصوداً منه بالأصل بل بالتبع؛ لأن ذلك المعنى لازم للمعنى المقصود من اللفظ كدلالة قوله - تعالى - : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] المعنى : بغايةٍ هي تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر؛ أعني قوله - تعالى - : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ الآية على صحة صوم من أصبح جنباً للزومه للمقصود به من جواز جماعهن ليلة الصيام إلى آخر جزء منها ؛ بحيث لا يبقى بعد ذلك الجزء المجامَع فيه جزء من الليل أصلاً حتى يغتسل فيه قبل النهار ، فلزم جواز إصباحه جنباً وصحة صوم من أصبح جنباً ؛ فالمقصود بلفظ النص المذكور إباحة الجماع في ليلة الصيام إلى انتهائها ، ولم يقصد باللفظ صحة صوم من أصبح جنباً إلا أنها لازمة للمقصود باللفظ؛ لأنه إذا جاز له الجماع في جزء الليل الأخير الذي ليس بعده إلا النهار لزم كونه جنباً في النهار ، فدل بالإشارة على صحة صوم من أصبح جنباً ، ومن دلالة الإشارة أخذ علي - رضي الله عنه - كون أقل الحمل ستة أشهر من قوله - تعالى - : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف : ١٥] مع قوله - تعالى - : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان : ١٤] ، وقوله - تعالى - : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة : ٢٣٣] لأن ثلاثين شهراً التي هي أمد الحمل والفصال إذا أسقط منها العامان اللذان هما أمد الفصال بأربعة وعشرين شهراً بقي للحمل ستة أشهر هي باقي الثلاثين ، فإذا حققت ذلك فقوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود» المقصود منه أن قتال اليهود والمسلمين واقع لا محالة إلا أن هذا المعنى المقصود بالنص يلزمه كون اليهود فئة متحدة الكلمة تحت إمارة أمير يقاتل بهم ؛ وذلك هو معنى وجود حكومة منهم في آخر الزمان دل عليها النص بالإشارة .





حزيران!

في اليوم الخامس من شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧م وقعت الحرب بين العرب بقيادة الثوريين وبين اليهود المحتلين في فلسطين، وهي الحرب التي سماها اليهود بـ (حرب الأيام الستة) وتفتق فكر قادة الهزيمة النكراء عن تسميتها بـ (النكسة) حيث ظهر عُوار الفكر الثوري التقدمي الذي أضاع سيناء كلها مع زيادة امتدت حتى مشارف القاهرة، والجولان جميعها حتى ضواحي دمشق، والضفة الغربية بتمامها بما فيها القدس؛ وهكذا وفي أيام تقل عن أسبوع بيوم واحد تهاوت فيها أخيلة البطولة الجوفاء التي رسمها الفكر التسلطي الذي قاد الأمة بحماقته وعنجهيته إلى عار ما يزال بحاجة إلى جهاد فذ ونضال مرير ابتداه أطفال ثورة الحجارة ولم تُنهِه مخازي اتفاقيات (أوسلو) وتوابعها: المعلنة والمضمرة، ما عُلِمَ منها وما لم يُعلَم.

مروان كجك

حُـــزَيْـرَانُ فِـــيكَ تَـعَــرَّى الـضَّـــلالْ ... وَتَـاهَتْ عُـــقُـــولٌ، وَضَـــاعَتْ تِـلالْ

سَـــتَـــبْـــقَى إلَى أَنْ يَـشَـــاءَ الإلَـــهُ ... سَـــرِيـعَ الْمَـــجِـيءِ، بَـطِيءَ الـزَّوَالْ

تُـذَكِّـــرُنَـا بِـالْـخِـــدَاعِ الـرَّهِـيـبِ ... وَطَيْشِ الْـكِـبَـــارِ وَسُـــخْـفِ الرِّجَـــالْ

أَضَـــاعُـــوا الْبِـــلادَ بِطَرْفَــةِ عَـــيْنٍ ... وَبَاتُـوا أُسُـــوداً بِـغَـــيْـــرِ جِـــدَالْ

* * * *

حُـــــزَيْـرَانُ يَـا جُـــــرْحَ كُـلِّ أَبِـيٍّ ... وَيَا إرْثَ قَـــهْـــرِ دُعَـــاةِ الـنِّضَـــالْ

ظَمِـئْنَا فَـجَـــاءَ الشَّـرَابُ حَـمِـيـمـاً ... وَقَـــالُوا لَـنَا: فَـــارَ نَـبْـعٌ زُلالْ

هَـلُـمُّـــوا بَـنِي يَـعْـــرُبٍ نَتَـــلاقَى ... عَلَـى مِـحْنَـةٍ حَـارَ فِـيـهَـا الْخَـيَـالْ

نُـبَـايِـعُ أَجْـهَـرَ صَـوْتٍ وَنَمْـضِي ... عَلَى إثْـرِهِ دُونَ أَدْنَى سُــــؤَالْ

حُــــزَيْرَانُ يَـا دُرَّةً لِـلْيَــــهُــــود، وَلِلْعُــرْبِ عَــاراً وَسِــيعَ الْمَـجَــالْ

قَــــتَـلْتَ بِنَـا زَهْـوَةَ الْـفَـــاتِـحِـينَ وَأَنْشَـــأْتَ صَـــرْحـــاً لِذُلٍّ عُـــضَـــالْ

وَقَلَّبْـتَـنَا فَــوْقَ جَـمْـرِ الطُّغَـــاةِ لِنَـهْــتِفَ كَـــالْبُــهْمِ: يَـا ذَا الْجَـــلالْ!

أَطَلْ عُـــمْـــرَ مَنْ حَـمَّلُونَا الشَّـــقَــاءَ وَكَـــانُوا الْمَــــهَـــازِيمَ يَـوْمَ النِّزَالْ

وَمَـــاتَتْ صَـــرَامَــــةُ شَـــعْـبٍ أَبِيٍّ وَذَلَّـتْ كَــــرَامَـــاتُ عَـمٍّ وَخَـــالْ

وَبِتْنَـا مِنَ الْحَـــنِـيْـفِ كَـــالإِمَّـــعِـينَ نُبَــايِعُ كَـالْبُلْـهِ أَخْـسَـا رِجَــالْ

غُلِبْنَـا عَلَـى أَمْـــرِنَا فَـــاسْــتَـطَارَتْ شُـــرُورٌ، وَقُطِّـعَ حَــبْـلُ الْوِصَـــالْ

وَصَـارَ التَّـفَـرُّقُ صِـبْـغَـةَ شَـعْبٍ وَأَضْـــحَى الْحَـــرَامُ لَدَيْهِ حَـــلالْ

فَـــيَـــا تَـعْسَ مَنْ أَوْصَلُـونَا لِـهَــذَا وَيَا بُـؤْسَ جِـيلِ الْهَـوَى وَالْخَـيَـالْ

* * * *

حُـــزَيْـرَانُ فِـيكَ أَقَـامَ الْـيَـهُـودُ صُـرُوحـاً مِنَ الزَّهْوِ فِـعْـلاً وَقَـالْ

وَنَحْنُ هَدَمْـنَا صُــــرُوحَ الْجُـــدُودِ وَبِـتْنَـا نُـصَـــارِعُ أَسْـــوَأَ حَـــالْ

شَـبِــعْنَـا شِـعَـــارَاتِ لَيْلٍ طَوِيلٍ وَلَـمْ يَـبْقَ فِـــيـنَـا زَعِــيمٌ طُوَالْ

وَصِـــرْنَا أَضَـــاحِـيكَ أَهْلِ الزَّمَـــانِ وَكُنَّـا بَنِي قُـــدْمَـــةٍ وَاحْـتِـمَـــالْ

* * * *

حُـــزَيْـرَانُ يَـا ذِلَّةَ الْـيَـــعْـــرُبِـينَ وَيَـــا نَـــزْفَ قَـلْـبٍ أَمَـضَّ وَطَـالْ

بِسِتٍّ مَـضَتْ مِنْكَ أَضْـحَى الْـعَـرِينُ خَــوَاءاً وَطَـاشَتْ فُنُونُ الْقِـتَـالْ

بَكَيْـنَـا شَكَـوْنَا بِكُلِّ اللُّـغَــاتِ وَذُقْـنَـا مَــرَارَةَ ذُلِّ السُّـــؤَالْ

وَبَـاتَ الصَّـدِيقُ عَــدُوًّا وَصِــرْنَـا أَلاعِــيبَ لَمْ نَجْنِ غَــيْـرَ الْوَبَالْ

فَــقُلْ لِـلْبُــغَـــاةِ، وَإِنْ طَـالَ لَيْـلٌ، سَـيَـبْـزُغُ فَـجْـرٌ بَهِـيُّ الْجَـمَـالْ

وَيَـنْـهَـــزِمُ الْـبُطْلُ والْمُـبْطِلُونَ وَيَعْلُو الجِـهَـادُ وَيَهْـوِي الضَّـلالْ

* * * *



رسالة إلى الحبشة

عباس شعيب حسن

تسربلي من عقود الفخرِ سِربالاً ... وبلِّغي عنيَ الأجيالَ أقوالا

رسالتي من صميم القلب أكتبها ... يخط فيها يراعي اليوم آمالا

أنجبتِ للمجد سلطاناً يذاد به ... عن الخطوب، بلى أنجبت رئبالا

بلالنا - يا رعاك الله من بطلٍ - ... الصبر في أرضكم قد صال أو جالا

رمضاء مكة في الأكوان شاهدة ... أن العناءَ من الأبطال ما نالا

معذَّب في لهيب الحر، مُفتَرِشٌ ... صخراً شديد اللظى والعزم ما زالا

فيا أميَّةُ! ماذا ذنب صاحبنا: ... آبقٌ أم إلى الأرزاء قد مالا

أم نال من عرض سادات ومزَّقه ... أم قد مضى في دروب الأمن قتالا؟

فقال كلاًّ!! ولكن صابئٌ عَمِهٌ ... قد راح يتبع أوباشاً وضلالا

قد أنكر اللات والعزى وثلَّمها ... وعاب أربابه.. والزيف ما قالا

ألا فزيدوه ضرباً كي يعود إلى ... ديانة القوم أو زيدوه أثقالا

فردٌ وحيد وفذٌّ في السما أبداً ... فلترسموا في ثنايا الظهر أدغالا

أو فاضربوني إلى أن ترتووا بدمي ... أو مزقوني أشلاءاً وأوصالا

تقارب الموت من روح الفتى ودنا ... فجاءه النصر واستبقاه آجالا

يقول بدر الدُّنا الصديق في أسف: ... سأشتري منك هذا العبد إجلالا

دعوا أخانا لوجه الله منطلقاً ... من الإسار وفكوا عنه أغلالا

فصار للأمة العظمى مؤذنَها ... وصار أسيادُه الأغرار أذيالا

حتى مشى في جنان الخلد موطئُه ... لأنه كان للخيرات فَعَّالا

الله أكبر - يا ضُلاَّل - رايتنا ... والله أكبر إكثاراً وإقلالا

هيا بنا للذرا يا شعر في ألقٍ ... تاريخنا ممطر عزماً وأبطالا

ثقي تماماً بنصر الدين أمتنا ... إن أكثر البغيُ إيغالاً وإدخالا

مهما استطالت ليالي الرعد قاصفة ... وأوقف الناسُ إدباراً وإقبالا

سينجلي الغيم حتماً بعد ساعته ... ويمتطي الوردُ ظهرَ الروض خَيَّالا



من البلقان إلى الشيشان

مشبب بن أحمد القحطاني

مشاهدُ القتلِ والتشريدِ تُبكيني ... وجذوةٌ من لهيبِ الحزنِ تكويني

وجحفلُ الهمِّ لا عزمٌ يُدافعه ... وغادر الرَّمي يُدميني ويُرديني

وأعصب الرأسَ بالآلام مُتَّشحاً ... أُساهر الليلَ والآمالُ تُضنيني

يا أصدقَ الشِّعرِ هلاَّ قُلتَ قافيةً ... تَبُثُّ همِّي وتَروي ما يُعزِّيني

أُترجم الشِّعر من فِكري إلى قلمي ... وأكشفُ اليومَ آهاتي ومكنوني

أُمسي وأُصبح في حُزنٍ يُصارعُني ... فحالُ أمتنا في البُؤس يشقيني

أُسائلُ النَّاس ما بالُ الجِهَادِ غدا ... في مُعْجَمِ العصرِ (إرهاباً) و (لا ديني)؟!

أضحى الشموخُ الذي عِشْنا به حِقَباً ... مُمَرَّغاً بالأسى في الوحلِ والطِّينِ

عَلامَ يا أُمَّتي ضلَّتْ مَسالِكُنا؟ ... نَهيمُ في مَهْمَهٍ مِثْلَ المَجانينِ

يا رحمةَ اللهِ هَلْ في الأمرِ من فَرَجٍ؟ ... وهَلْ سبيلٌ إلى عِتْقٍ من الهُونِ؟

(كشميرُ) تبكي وفي (الشيشان) ملحمةٌ ... وصرخةٌ من رُبَى (البلقان) تُشْجِيني

و(كابلٌ) أصْبحت مِثْلَ (البَسوسِ) أسىً ... ولم يَزَل راعفاً جُرحي الفِلسْطِيني

تَأبطَ الكُفرُ سَيفَ الظُّلمِ فانحسَرَتْ ... مبادئُ العَدْلِ من جَوْرِ المَوازينِ

يا أُمَّةً لم تَزل في التيهِ ضائعةً ... في حماةِ الضُّرِّ من كيدِ الشَّياطينِ

أينَ الملايينُ في أعدادِ أُمتنا؟ ... أينَ الحَمِيَّةُ والإخلاصُ للدينِ؟

أينَ الكماةُ حُماةُ الحقِّ لم أرَهم؟ ... أليسَ (معتصمٌ) فيهم يُواسيني؟

لو قام منا (صلاحُ) الحقِّ لانطلقتْ ... كتائبُ الفتحِ في عِزٍّ وتَمْكينِ

أمَا تَرَوْنَ بِناءَ الدِّينِ كَيفَ هَوى! ... يَهُدُّه مِعْوَلٌ من كفِّ مأفُونِ

وبينما سِرتُ والليلُ البئيسُ معاً ... أحادثُ النَّفسَ والآلامُ تُعييني

رأيتُ للفَجْرِ ثوباً مسفراً ألِقاً ... ومَفْرِقُ الصُّبحِ وضَّاءٌ يُناديني

العَوْدُ أحْمَدُ والنصرُ المُبينُ أتى ... ومَوْكِبُ الحقِّ للعلياءِ يَدْعُوني



البعد الاستراتيجي للخطة النبوية

في مواجهة الروم والتمهيد لفتح بلاد الشام

د. محمد أمحزون (*)

عالمية الدعوة:

مما لا ريب فيه أن النشاط الحربي والسياسي والاقتصادي في العهد المدني كان مرتبطاً بالدعوة الإسلامية.

والدعوة منذ أيامها الأُوَل كانت واضحة المعالم بأنها دعوة عالمية غايتها إقامة حكم الله في كل الأرض.

وإن نظرة سريعة في القرآن المكي بشكل عام تؤكد ذلك بوضوح، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد باشر النبي ﷺ عمله في المجال العالمي مع مطلع السنة السابعة للهجرة حينما أرسل رسله يحملون كتبه إلى الملوك والأمراء(١).

وجدير بالإشارة أن بلاد الشام كانت ضمن الإطار الحيوي للأمة الإسلامية الناشئة، ولا بد من الربط بين الوجود الإسلامي القديم في الشام (مسرى الأنبياء، المسجد الأقصى) وبين إيصال الدعوة إلى الناس في تلك البلاد.

تأمين طرق المواصلات إلى الشام بفتح خيبر ووادي القرى:

على أن سياسة الرسول ﷺ بهذا الصدد كانت قائمة على فهم عميق لهذه العوامل الدينية والتاريخية، مع تفهم واضح وواقعي للظروف السياسية والقبلية ـ كما سنرى ـ ونهج سياسة حكيمة وخطة ناجحة في تأمين طرق المواصلات إلى الشمال.

وقد كانت نقطة البدء في هذه الخطة هي إخضاع معاقل يهود في خيبر، من منطلق وقوعها على إحدى

(*) أستاذ التاريخ، جامعة مولاي إسماعيل، المغرب.

(١) انظر: البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب كُتُب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج ٥، ص ١٣٦، ومسلم: الجامع الصحيح (بشرح النووي)، كتاب الجهاد، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار، ج ١٢، ص ١١٢.



الطرق المؤدية إلى بلاد الشام، ولدور هؤلاء في حشد الأعراب ـ مثل غطفان وبني فزارة ـ وقريش ضد المسلمين، وكونهم مصدراً هاماً من مصادر الميسرة والدعم الاقتصادي والسياسي لمشركي قريش وحلفائهم من الأعراب[1].

ويضاف إلى خيبر صلح رسول الله ﷺ مع أهل فدك وأهل تيماء وفتحه لوادي القرى[2]؛ مما يدل على وضوح سياسته في إصراره على تأمين طريق الشام استراتيجياً وتجارياً. وتتضح أهمية هذه المراكز في الغزوات اللاحقة إلى الشمال.

ولا شك أن اهتمام النبي ﷺ بطريق الشام والواحات الشمالية يمكن أن يُفهم في ضوء التطورات الجديدة؛ ليس فقط بسبب صلح الحديبية والتفرغ للمناطق الشمالية، وإنما أيضاً فيما يتعلق بعودة الحكم البيزنطي إلى الشام بصورة خاصة؛ حيث أصبح المسلمون في مواجهة البيزنطيين لأول مرة[3].

وعلى الرغم من انشغال النبي ﷺ بعمرة القضاء[4]، ومواجهة مشاكل بعض القبائل العربية التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر من: بني مُرَّة وبني فَزارة وبني القُشير[5]، فقد ظلت طريق الشام تشغل حيِّزاً هاماً في خطته ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ إذ حاول أن يوطِّد علاقاته بفروع من جُذام؛ حيث أعطى كتاباً بالأمان لرهط رافعة بن زيد الجذامي الذي قدم عليه في هدنة الحديبية قبل خيبر[6]، واتصل بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان عاملاً لقيصر على عمَّان من أرض البلقاء، وقد دخل في الإسلام وسجنه الروم[7].

استطلاع الأوضاع في الشام بإرسال السرايا:

ويبدو أن النبي ﷺ: «بدأ بمحاولة استطلاع الأوضاع في الشام بعد عودة السيطرة البيزنطية مباشرة»[8].

وعلى هذا الأساس يمكن فهم إرساله سريّة بقيادة عمرو بن كعب الغفاري على رأس خمسة عشر فارساً إلى ذات أطلاح في الشام[9].

والواقع أن خبر هذه السريّة يدلّ بوضوح على تتبّع الرسول ﷺ لأخبار الروم في الشام؛ حيث إن جيش فارس انسحب من الشام وسلم الإدارة للروم البيزنطيين في شهر حزيران (يونية) سنة ٦٢٩م الموافق شهر صفر سنة ٨ هـ، بينما أُرسلت سرية ذات أطلاح بعد ذلك مباشرة في شهر ربيع الأول سنة ٨ هـ. ولم يكن

---

(١) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٢١٦، ٢١٧، ٢٥٤، والواقدي في المغازي، ج ٢، ص ٦٤٠، ٦٤٢، وابن هشام: السيرة، ج ٣، ص ٢٣٦.

(٢) موسى بن عقبة: المغازي، ص ١٧٩، وابن هشام: السيرة، ج ٣، ص ٣٩١، ٤٠٨، وخليفة: التاريخ، ص ٨٣، ٨٥.

(٣) أحمد الشبول: علاقات الدولة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة، ص ٧.

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، ج ٥، ص ٨٤ ـ ٨٥، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي)، باب استحباب الرمل في الطواف، والعمرة، ج ٩، ص ١٠.

(٥) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٢٤٥، والواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٧٢٧ ـ ٧٣٠. وخليفة: التاريخ، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٦) ابن هشام: السيرة، ج ٤، ص ٢٦٧، والطبري: التاريخ، ج ٣، ١٤٠.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٢٨١.

(٨) أحمد الشبول: علاقات الدولة الإسلامية، ص ٧.

(٩) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٢٦٣، والواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٧٥٢ ـ ٧٥٣، وابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ١٢٧.



إرسالها مجرد مصادفة، ومن الواضح أن هدفها لم يكن القتال؛ لأن عدد أفرادها لم يتجاوز خمسة عشر رجلاً، وإنما كان غرضها استطلاعيا[1].

غزوة مؤتة ومواجهة الروم البيزنطيين:

ولا شك أن تزايد اهتمام الرسول ﷺ بالشام يتضح من إرساله جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل[2].

وتُعدّ غزوة مؤتة أول وقعة يصطدم فيها المسلمون بالبيزنطيين مباشرة؛ فقد كانت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ[3] أي بعد ذات أطلاح بشهرين.

وينبغي إدراك أهمية هذه الغزوة من عدد الجيش؛ فهذا أكبر جيش يُسيّره النبي ﷺ إلى أيّة جهة كانت حتى ذلك الوقت.

كما يبدو من هذه الغزوة تصميم المسلمين على مواجهة الروم وحلفائهم من متنصِّرة العرب بالشام، وقد كان من بين القبائل المحالفة للروم: بَهراء، ووائل، وبَكر، ولخم، وجُذام، وبَلّي[4].

وقد وصل جيش المسلمين إلى منطقة مُعَان من بلاد الشام[5]، ومعنى هذا أن القبائل في الطريق من المدينة إلى مؤتة كانت موادِعة للمسلمين، كما أن عودته إلى المدينة تدلّ بوضوح أن الطريق إلى بلاد الشام قد أصبحت مفتوحة أمام المسلمين[6].

وتتجلى أهمية مؤتة باعتبارها أول معركة هامة بين المسلمين من جهة، والروم وحلفائهم من القبائل العربية في الشام من جهة ثانية، فيما تذكره المصادر البيزنطية والأرمنية[7].

وقد أفاد المسلمون دروساً وخبرة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم؛ حيث تعرفوا على عددهم وعُدّتهم وخططهم العسكرية وطبيعة الأرض التي وقع فيها القتال[8].

ويبدو أن النبي ﷺ أدرك بعد مؤتة ضرورة الحذر والتريث، ومن هنا وجّه بعد ذلك مباشرة سرية بقيادة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ المعروف بحنكته وتأنّيه، وقد وصلت هذه السرية إلى ذات السلاسل في أطراف الشام في جمادى الثانية سنة ٨ هـ[9].

---

(١) أحمد الشبول: علاقات الدولة الإسلامية، ص ٧.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٧، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله ثقات إلى عروة، ج ٦، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٢٦٤، وخليفة: التاريخ، ص ٨٦.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج ٣، ص ٤٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢٩.

(٦) أحمد الشبول: علاقات الدولة الإسلامية، ص ٧.

(٧) ثيوفانيس (Theophones) Chronogfophia (الترجمة الإنجليزية الجديدة)، ص ٣٦ وسيبيوس الأرمني (Seboes) تاريخ هرقل (الترجمة الفرنسية)، ص ٩٤.

(٨) أكرم العمري: السيرة الصحيحة، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٩) موسى بن عقبة: المغازي، ص ٢٦٧، وابن هشام: السيرة، ج ٤، ص ٢٩٨، وابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ١٣١.

لماذا غزوة تبوك؟

على أن أهم غزوة قادها الرسول ﷺ على الإطلاق كانت غزوة تبوك، وهي باتجاه الشام أيضاً. فمن حيث العدد بلغ الجيش ـ حسب ما ذكرته المصادر ـ قرابة ثلاثين ألفاً[١]. ومن حيث المدّة استغرقت هذه الغزوة قرابة شهرين (رجب ـ شعبان سنة ٩ هـ)[٢]، منها عشرون يوماً أقامها المسلمون في راحة في تبوك نفسها[٣].

ولكن تبقى الأسئلة الرئيسة: لماذا هذه الغزوة بهذا الحجم الكبير؟ ولماذا تبوك بالذات؟ وهل كان هدفها غزو الروم فعلاً؟ ولماذا أقام النبي ﷺ عشرين يوماً في تبوك نفسها، وهي أطول مدة يقيمها جيش إسلامي في عهد الرسول ﷺ في موقع واحد؟

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على توجيه المسلمين إلى جبهة الشمال التي تُعدّ في غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين لأسباب تاريخية ودينية كما أسلفنا.

يضاف إليها كون الشام موطناً لقبائل عربية كثيرة تربطها بعرب الحجاز ونجد وتهامة صلات نسب، وعلاقات تجارية وثقافية[٤].

ومن الناحية الاقتصادية والجغرافية تظهر أهمية تبوك في كونها واحة كبيرة على طرف الشام، وأهم محطة وراء خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى، ومن الناحية الاستراتيجية، فهي تشكّل مركزاً هاماً يمكن الاتصال منه بمراكز كثيرة في الشمال، كما حصل فعلاً أثناء الغزوة[٥].

الإنجازات التي حققتها غزوة تبوك:

ويبدو أن الإنجازات التي حققتها هذه الغزوة ضمن خطة النبي ﷺ العامة: جمعت بين الدبلوماسية والنشاط الحربي، فكانت تقوم بالدرجة الأولى على كسب القبائل العربية وتأمين طرق المواصلات دعوياً وتجارياً.

وبصدد هذه السياسة سعى النبي ﷺ بصورة مستمرة لكسب قبائل قُضاعة من بُلَيّ وعُذرة وبَلقين وغيرها على امتداد طريق الشام. واتصل في هذه الغزوة بالذات ببطون وعشائر متعددة من هذه القبائل وغيرها كسعد وهُذيل وطيء[٦].

إلا أن أهم إنجازات غزوة تبوك تتمثل في إقامة علاقات وطيدة مع عدد من المراكز الاستراتيجية في جنوب الشام ومنها كتب الصلح، وهي دُومة الجندل وأَيْلة ومَقْنا وأَذْرُح. فقد بعث النبي ﷺ أثناء إقامته في تبوك خالد ابن الوليد إلى أُكَيْدَر بن عبد الملك صاحب دُومَة الجندل ـ وكان نصرانياً ـ فأخذه خالد أسيراً[٧] فصالح المسلمين على حيازتهم للسلاح والخيل، ولهم أشجار النخيل التي معهم في المصر، وموارد المياه الظاهرة مثل العيون[٨].

---

(١) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٩٦، وابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٣٧٧.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ٤، ص ١٦٩، وابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ١٦٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، رقم ٤٣٣٥، ج ٢، ص ٥٣٢، وأحمد في المسند، ج ٣، ص ٢٩٥.

(٤) أحمد الشبول: علاقات الدولة الإسلامية، ص ٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٩.

(٦) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ١٠١٧، ١٠١٩، ١٠٢٧.

(٧) موسى بن عقبة، المغازي، ص ٢٩٧، وابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ١٦٦.

(٨) أبو عبيد: الأموال، ص ٢٠٨، والبلاذري: فتوح البلدان، ص ٨٠، وابن حجر تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير رقم ٢٣٠١، ج ٤، ص ٢٢٥.

وفكرة نزع السلاح من مثل هده المجموعة ـ التي كانت على اتصال بالبيزنطيين ، ولا يطمئن المسلمون إلى ولائها ـ تبدو مسالة طبيعية ؛ إذ كان من أهم الأهداف التي سعى النبي ﷺ لتنفيذها من زحفه لتبوك ، هو تأمين حدوده الشمالية ضد أي تحركات عدوانية من قِبل الروم أو الدويلات الخاضعة لهم على الحدود . وقد يكون نزع السلاح إحدى الوسائل لتحقيق هذا الهدف[1].

علما بأن دُومة الجندل ستصبح قاعدة هامة للانطلاق في المرحلة التالية من فتح الشام .

أما أَيْلة فهي موقع هام على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام في اتجاه العقبة[2]، وقد كاتب النبي ﷺ أهل أيلة يدعوهم إلى قبول الإسلام أو دفع الجزية ، فجاءه ملك أيلة يوحنا بن رؤبة متحدثاً باسم بلدته أيلة ، فكتب له الرسول ﷺ كتاب الصلح ؛ يدفع بموجبه أهل أيلة الجزية ، ويتعهد لهم المسلمون بالحماية[3].

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المسلمين هم سادة الموقف في المنطقة الممتدة حتى خليج العقبة[4].

ويظهر من كتاب الصلح مع أيلة التركيز على النواحي الدعوية : « فإني رسول الله بالحق »[5] والاستراتيجية : « فإن أردتم أو يأمن البحر والبحر ، فأطع الله ورسوله »[6]، والاقتصادية : « ورسل رسوله أكرمهم واكسهم كسوة حسنة »[7].

وللإشارة فإن موقف الرسول ﷺ كان يتسم بالحلم والمعاملة الحرة الكريمة ، حتى يمكن وصف صلحه مع أيلة بأنه تحرير لها : « ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله »[8].

كما أن قول الرسول ﷺ ليوحنا بن رؤبة عندما انحنى له هذا الأخير : « ارفع رأسك »[9]، لهو قول ذو دلالة بالغة من الناحية الدينية ، ولا شك أن ذلك كان له أثر في نفوس نصارى العرب في الشام ، وفي موقفهم من العرب المسلمين فيما بعد إبّان الفتوح .

أثر الخطة النبوية في فتح بلاد الشام:

ويتضح من شروط الصلح مع هذه المراكز وغيرها مثل أَذْرح ومَقْنا الحرص على الحصول على السلاح والكُراع والمال والعون فيما يتعلق بالمواصلات والأخبار[10]، وتأمين طرق المواصلات للمسلمين[11]، وكل هذه الأمور هامة لمستقبل فتح الشام .

---

(١) عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ ، ص ٢١٦ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، كتاب الزكاة ، باب خرص التمر ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الفضائل ، ج ١٥ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، وابن أبي شيبة المصنف في الأحاديث والآثار ، ج ١٤ ، ص ٥٤٠ .

(٤) أحمد الشبول : علاقات الدولة الإسلامية ، ص ١٠ .

(٥ ، ٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٧) أبو عبيد : الأموال ، ص ٢١٢ ، وابن حجر : المطالب العالية ، رقم ٣٦٣١ .

(٨) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، ومحمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، رقم ٣٠ ، ص ١١٦ .

(٩) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(١٠) في هذا الشأن يذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أن بعض العرب قد ساعدوا جيشاً في أيام محمد ﷺ على الوصول إلى جنوب فلسطين ، كما أن هؤلاء العرب أيضاً ساعدوا جيوش أبي بكر بنفس الطريقة . Chranagfophia (الترجمة الإنجليزية) ، ص ٣٦ .

(١١) أحمد الشبول ، علاقات الدولة الإسلامية ، ص ١٠ .

وستتضح عناصر هذه الخطة في الغزوات التالية؛ ذلك أن النبي ﷺ بعد أن نظم شؤون المسلمين في شبه الجزيرة العربية، ورتّب أعمال الصدقات، وأوضح للناس أمور دينهم في حجة الوداع، وجّه همّه بعد ذلك إلى إرسال جيش كبير إلى الشام مرة أخرى، وهو الجيش المعروف بجيش أسامة(١).

وليس من قبيل المصادفة أن يصر النبي ﷺ على إنفاذ جيش أسامة وهو على فراش الموت، وأن أبا بكر - رضي الله عنه - لم يخالجه أدنى شك في وجوب إنفاذ ذلك الجيش إلى الشام رغم الأخطار التي سببتها ردّة بعض القبائل العربية(٢).

ومرجع ذلك أن جيش أسامة ما هو إلا حلقة في سلسلة من الغزوات والسرايا الموجهة إلى الشام نتيجة خطّة بعيدة المدى قائمة على فهم عميق للظروف الراهنة سواء كانت إقليمية (قبلية) أو دولية (بيزنطية).

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ كان قد كتب إلى ملوك وأمراء عصره، ومنهم هرقل ملك الروم الذي راسله مرتين؛ المرة الأولى بعد الحديبية(٣)، والثانية أثناء مقامه بتبوك(٤).

ويشير المؤرخ سيبيوس الأرمني - الذي عاش في النصف الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي - إلى مراسلة الرسول ﷺ لهرقل، ويضيف أن محمداً ﷺ وأصحابه طلبوا من الروم التخلي عن أراضي العرب وميراث أبيهم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالشام(٥).

ولا شك أن حادثة مؤتة تركت صداها عند البيزنطيين؛ حيث شعروا بقوة المسلمين فعلاً منذ تلك الوقعة، ومنذ غزوة تبوك بالذات وبعث أسامة - رضي الله عنه -، وليس منذ أيام أبي بكر - رضي الله عنه - فقط. وأنهم اعتبروا أن فتح الشام قد بدأ فعلاً أيام الرسول ﷺ(٦).

وهذا ما تؤيده الدراسة المتأنية للمصادر الإسلامية، ولخطط الرسول ﷺ تجاه الشام بشكل عام، مما ينبئ أن فتح الشام لم يبدأ مصادفة في عهد أبي بكر - رضي الله عنه -، وإنما بدأ منذ أيام النبي ﷺ، واكتمل بعد ذلك في عهد أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -.

وبهذا يتقرر أنّ ما تربى عليه المسلمون من عالمية هذا الدين منذ العهد المكي، لم يكن مجرد فكرة، وإنما هو من سمات هذه الدعوة وخصائصها، لا بد من تحقيقها على أرض الواقع، ولم يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعاً قد دانوا بالإسلام، وحتى وضعت الدعوة خطوات ثابتة ومدروسة في طريق التبليغ العالمي.

---

(١) انظر البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة، ج ٤، ص ٢١٣، ومسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) وكتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، ج ١٥، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن، رقم ٢٨٩٠، ج ٢، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب حدثنا أبو اليمان، ج ١ ص ٦٨، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كُتّاب النبي ﷺ إلى هرقل، ج ١٢، ص ١٠٣.

(٤) طرف منه في الجامع الصحيح للبخاري، كتاب بدء الوحي باب حدثنا أبو اليمان، ج ١، ص ٧، وأخرجه أحمد في المسند، ج ٣، ص ٤٤١، وقال ابن كثير في السيرة: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به، تفرّد به الإمام أحمد، وأورده الهيثمي في موارد الظمآن بسند صحيح رقم ١٦٢٨، وقال في المجمع: رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك، ج ٨، ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

(٥) سيبيوس: تاريخ هرقل (الترجمة الفرنسية)، ص ٩٤ - ٩٥.

(٦) الشبول: علاقات الدولة الإسلامية، ص ١١.



ندوة حول المستقبل الاقتصادي

طوفان العولمة واقتصادياتنا المسلمة

(١-٢)

إعداد: وائل عبد الغني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .. وبعد:

فقد تحدث الناس قديماً عن العنقاء - بوصفها إحدى المستحيلات - ذلك الطائر الغريب الأطوار .. الضخم الذي يضرب بجناحه المدينة الكبيرة.

وحديثًا تحدث الناس عن العولمة باعتبارها واقعاً، ورأوا فيها ذلك المستحيل القديم .. تلك القضية المثيرة للجدل التي تتكرر فيها قصة العميان والفيل مع فارق أن فيلنا متناهٍ في الضخامة والتعقيد والشراسة .. وعمياننا ضعفت لديهم سائر قوى الإدراك .. وقلَّ أن تجد معنى في بطن شاعر .. وعز من يداوي..!

وفي ندوتنا هذه نتناول الجانب الاقتصادي للعولمة، والذي لا نقول: إنه الأخطر ولكنه بحق من أخطر الجوانب.

والأمر الذي نريد بلوغه وإبلاغه هو تصوُّر لمستقبل هذه الأمة المتحنة في ظل هذا الخطر.

لا نزعم أنا سنتناول كل شيء عن القضية .. ولكن حسبنا أن ننصب الأقدام على الطريق الصحيح .. ونخطو عليه خطوات، ونرتقب الرافد من بعد. نحن على ثقة أن المستقبل بيد الله - تبارك وتعالى - وهو - سبحانه - يداول الأيام بين الناس .. ثقتنا هذه هي لب زادنا ونحن نسعى لأن نقدم لأمتنا ولأنفسنا كما أمرنا ربنا.

معنا في ندوتنا هذه أربعة من خيرة الاقتصاديين المتخصصين:

- **الأستاذ. يوسف كمال، أستاذ الاقتصاد الإسلامي غير المتفرغ بكلية التجارة جامعة عين شمس - الدراسات العليا.**
- **الدكتور/ عبد الرحمن يسري، رئيس قسم الاقتصاد الإسلامي بجامعة الإسكندرية.**
- **الدكتور/ عبد الحميد الغزالي، أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.**
- **الدكتور/ رفعت العوضي، أستاذ الاقتصاد بجامعة الأزهر.**

والضيوف الكرام أصحاب إسهامات قوية في مجال الاقتصاد الإسلامي كما أن لبعضهم كتابات متنوعة أخرى في التفسير والمنهجية والحضارة.

نبدأ ندوتنا عن العولمة بوصفها مصطلحاً.. فماذا يعني هذا المصطلح في حقيقته وفق نظرة موضوعية مدققة؟

د. عبد الرحمن يسري:

قضية العولمة قضية من أعقد قضايا العصر؛ فهذا المفهوم ظهر في الحقبة الأخيرة، وحاول أنصاره أن يروِّجوا لفكرة أن العالم أصبح قرية واحدة، بينما رأى غيرهم أنه في سبيله لأن يصبح تلك القرية، ورأى فريق ثالث أنه لن يصبح كذلك أبدًا، كما كثر الجدل حول حيادية هذه الفكرة ومصداقيتها.

وتحريًا للموضوعية علينا أن نبحث في المضمون حتى يمكننا استخلاص صياغة تقربنا من فهم العولمة.

هذا المصطلح ظهر من خلال الأطر الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية التي تعكس تجربة العالم الغربي التاريخية والحضارية واتجاهاتها المستقبلية. وإذا كنا سنتناول هذه القضية من شقها الاقتصادي ـ كما هي طبيعة الندوة ـ فإني لا أزعم أن الشق الاقتصادي هو أهم الجوانب، وإنما بمنظورنا الإسلامي يجب أن يلحق البعد الاقتصادي دائمًا بأبعاده العقدية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وحتى لا نسهب أكثر يمكن أن نستخلص مفهومًا اقتصاديًا للعولمة من خلال كتابات أنصار العولمة في الفكر الغربي؛ حيث تعني: «تحرر العلاقات الاقتصادية القائمة بين الدول من السياسات والمؤسسات القومية والاتفاقات المنظمة لها بخضوعها التلقائي لقوى جديدة أفرزتها التطورات التقنية والاقتصادية تعيد تشكيلها وتنظيمها وتنشيطها بشكل طبيعي على مستوى العالم بأكمله وجعلها وحدة واحدة».

ومن ثم فإن اقتصاديات بلدان العالم ستصبح بلا سياسات قومية، وإنما تخضع لنظام عالمي مسيَّر بقوانين طبيعية حتمية بما يحقق مصالح الجميع، وهذا هو ما يفهمونه أو ربما يريدونه في العالم الغربي الذي يقود قاطرة الحضارة في عصرنا الحاضر.

د. رفعت العوضي:

الدكتور عبد الرحمن حاول أن يقدم صياغة قريبة لمفهوم العولمة، ولكنها من حيث إنها مفهوم أو مصطلح ـ حتى في الغرب ـ ما زال يشوبه قدر كبير من الغموض .. هذا الغموض ربما ينتج من أن العولمة ما زالت في طور التشكُّل؛ حيث تقابل الصياغة الفلسفية بمشاكل تطبيقية ضخمة وغير متوقعة، وأرى أن من المهم هنا أن أربط بين العولمة باعتبارها فكرة وبين الرأسمالية باعتبارها نظرية؛ لأن العولمة تعني إخضاع العالم كله لطور من أطوار هذه الرأسمالية التي مرت بثلاث مراحل يمكن التمييز بينها:

المرحلة الأولى: رأسمالية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين: في هذه المرحلة كانت الرأسمالية تتسم بسمتين بارزتين:

الأولى: اعتمادها على استنزاف موارد الدول الأخرى من خلال الاستعمار.

والثانية: تغييبها العدالة الاجتماعية. وانعكس ذلك من خلال تركُّز الملكية في شريحة داخل المجتمع، ومن



تغييب الاهتمام بإعادة توزيع الدخل، وجعل علم الاقتصاد يدور محورياً حول التوازن.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد قيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م وحتى سقوطها عام ١٩٩٠م: وفي هذه المرحلة أخذت الرأسمالية في تهذيب أنيابها لتحافظ على وجودها في مواجهة المد الاشتراكي. في هذه المرحلة أعادت (الكينزية) دورًا للدول، كما طرح الاهتمام بقضية الفقر وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وهذه المرحلة شهدت حركة الاستقلال بعد نضال قاس ومرير من الدول التي كانت محتلة.

المرحلة الثالثة: ما بعد ١٩٩٠م حيث انفردت الرأسمالية بالسيطرة على العالم، وعادت إلى نهب موارد العالم الثالث من جديد؛ ولكن النهب هذه المرة لم يكن باستعمار مباشر وإن كان واردًا، وإنما من خلال منظومة فكرية ومؤسسات دولية، وهنا غاب البعد الاجتماعي بصورة أبشع. وتسويقاً للفكرة صدرت عدة كتب في الغرب ككتاب «نهاية التاريخ» لفوكوياما الذي حاول أن يوصل للعالم أن الإنسان في كل تجاربه التي مرَّ بها من حيث النظم التي ابتدعها وأخضع نفسه لها قد انتهى إلى نظام واحد هو النظام الليبرالي سياسيًا ـ الرأسمالي اقتصاديًا، ولعله حاول أن يقنن لواقع كان يصنع.

أ. يوسف كمال:

العولمة كغيرها من القضايا لا بد من أن أناقشها من زاوية كوني مسلمًا له رؤيته المستقلة ومنهجيته في تناول الأمور، وله عالمه الخاص بمنأى عن أي انتماء آخر سواء كان عالمًا ثالثًا أو غير ذلك، حتى وإن كانت هناك اتفاقات جوهرية. لهذا يروق لي جدًا أن نبدأ مناقشة العولمة من كتاب «صراع الحضارات» لهنتنجتون؛ لأن مؤلفه حدد بصراحة أن ما يواجه الغرب المسيحي إنما هو الإسلام.

والمتفحص للأحداث العالمية يجد أنهم لا يُحكمون الحصار إلا على العالم الإسلامي، ولذا نبدأ المسألة من كونها حربًا عقدية في الدرجة الأولى، وهنا نفهم القرآن ونستطيع أن نفهم حركة التاريخ فهمًا جيدًا فاعلاً.

في هذا الكتاب يشير مؤلفه إلى طبيعة المواجهة المقبلة؛ حيث يقول: إن عصر الحروب القومية انتهى، والعالم مقبل على حروب حضارات، وهو لا يعني بالحضارات مجرد الثقافات، وإنما يعني الأديان التي تشكل الحضارات، ويحصرها في ثلاث: الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية المسيحية، والحضارة الصينية الكنفوشيوسية، ثم يؤكد ويؤكد أن المواجهة الرئيسة ستكون مع الإسلام.

د. عبد الحميد الغزالي:

العولمة ليست مصطلحًا، وإنما اكتسبت هذا الانتشار وهذه الشهرة؛ لأن الغرب وأمريكا يحاولون أن يجدوا إطارًا لتنفيذ سياساتهم على العالم بعد انتهاء نظام القطبين، بعد أن أصبح العالم يسير وفق نظام دولي أحادي القطبية، ومن ثم فهي محاولة نقل ما هو محلي إلى بقية دول العالم، ليس في الاقتصاد وحده وإنما في السياسة والاجتماع والثقافة، وكأي ظاهرة يتعين أن ندرسها بموضوعية وبهدوء وبعمق، ولهذا أرى أن كتاب نهاية التاريخ وصراع الحضارات كلاهما مكمل للآخر. فالأول يبشر بسيادة النموذج الغربي، وبالذات في بُعده الأمريكي، والثاني يحذر من الحضارات الأخرى، ويقترح تآمريًا «الآخر» الجديد، بعد انهيار «الآخر» القديم، وهو الاتحاد السوفييتي السابق؛ وذلك بالتركيز على الحضارات الشرقية، وبالذات الإسلام.

وفي الحقيقة فإن صانعي العولمة لم يعنوا بعولمتهم نهاية التاريخ فحسب وإنما جعلوها خمس نهايات:

النهاية الأولى: نهاية التاريخ التي تعني سيطرة النموذج الرأسمالي على العالم بعد انتهاء الشيوعية.

والنهاية الثانية: نهاية الجغرافيا: وهو أمر مهم جداً؛ لأن نهاية الجغرفيا تنقلني مباشرة إلى الشركات العملاقة التي تجاوزت الحدود الجغرافية والتي تعادل ميزانية إحداها ميزانية العالم الإسلامي بأسره!

والنهاية الثالثة: نهاية الدولة: وهذا يتم من خلال استخدام الشرعية الدولية للتدخل في شؤون الدول الأخرى وضرب السيادة الوطنية من قبل الناتو.

ثم النهاية الرابعة: ـ وهي أبشع ـ وهي نهاية الهوية: ومن ثم القضاء على الخصوصية بالنسبة للشعوب.

أما خامس النهايات: فهي نهاية الأيديولوجية «الدين»: وإحلال آلهة المادة ويقولون ـ أستغفر الله ـ بموت الإله!

هذه النهايات الخمس تشكل الأساس المذهبي للعولمة، ومن ثمَّ لنا أن نتصور كيف تكون العولمة المطروحة والتي تقابلها عولميتنا أو عالمية الإسلام، ومن ثَمَّ فهي تستخدمها لذاتها.. ولمصالحها، بينما قامت عالميتنا لصالح البشرية جمعاء، نوراً وهدى للعالمين.

د. عبد الرحمن يسري:

كي تكتمل الصورة ـ وباعتبار العولمة هي بدعة غربية جديدة ـ علينا أن نفرق بين العولمة «Globalizaion» وبين التدويل «internationalism»، فالعولمة كما ذكر الدكتور عبد الحميد الغزالي تتجه إلى إلغاء كل السلطات الشرعية الوطنية وعلى رأسها سلطة الدولة التي عرفت في النظام السابق على العولمة وما زالت قائمة. وأود هنا أن أقول: إن النظام العالمي القائم على تشابك سلطات الدول المختلفة واتفاقها على إجراءات «مستقلة» من قِبَل كل دولة قد بلغ شأوه في حقبة التسعينيات. وهذه هي ظاهرة التدويل. لقد نمت ظاهرة التدويل وشهدت تصاعداً بعد الحرب الأوربية العالمية الثانية؛ فقامت مؤسسات مختلفة ذات طابع دولي: الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وصندوق النقد، والبنك الدولي، واتفاقية الجات. هذه المؤسسات هيأت للعولمة ابتداءاً، ثم هي الآن في طور تعديل برامجها وأهدافها ومواثيقها لتتماشى مع العولمة.

د. رفعت العوضي:

لا بد أن نبين أن العولمة ارتبطت بالفكر الأمريكي؛ لأن الولايات المتحدة هي التي تقود المدنية الغربية اليوم من خلال ذراعها القوي الذي يرهب العالم باسم الشرعية الدولية وسيطرتها على حلف الناتو، ومن خلال قيادتها لمجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى استطاعت أن تفرض سياستها الاقتصادية على العالم، إضافة إلى فرض معاييرها وقيمها من خلال المنظمات الدولية ونفيرها الإعلامي، ومن خلال اتفاقية التجارة العالمية كذلك التي حولتها إلى منظمة ملزِمَةٍ ولها سلطتُها على الجميع. ونذكر في هذا الصدد أن مصطلح النظام العالمي الجديد استخدمه لأول مرة (جورج بوش) الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٩١م بعد حرب الكويت ـ العراق.

البيان: هذا يذكرنا بكلمة لأحد الكتاب: «إن الدولة التي لا تتصهين سياسيًا ولا تتعولم اقتصاديًا يكون مصيرها الحل العسكري» فالخيارات واضحة ومحددة ومعلومة للجميع، والأمثلة على ذلك معروفة تكاد



تنحصر في عالمنا الإسلامي! لكن هنا يجدر سؤال حول السرعة التي تسير بها العولمة وتنتشر وتتطور، لو قورنت بأي نظرية سابقة حتى قال عنها أصحابها: «ستدرككم العولمة ولو كنتم في بروج مشيدة!» مشبهًا إياها بالموت الذي يتجاوز كل الحصون، ومع أن العبارة تحمل نوعًا من المبالغة وربما الحرب النفسية، إلا أن الجميع يعترف بعموم بلواها مع أننا موقنون من هشاشتها بنسبة كبيرة ولذا لا بد من معرفة السر الذي ربما لم يعد سرًا.

د. عبد الرحمن يسري:

السر وراء هذه المقولات التي شاعت أخيرًا هو أن العولمة تمتلك قوى غير عادية لم تتوفر لأي مشروع من قبل، وأهم هذه القوى تتمثل في الأمور الآتية:

- حرية الاستثمار في أي مكان في العالم، وهذه الحرية اقترنت بحرية تحرك رأس المال الخاص دون قيود على مستوى العالم.
- حرية إقامة الصناعة في أنسب الأماكن لها في العالم بغض النظر عن الجنسية أو السياسة القومية لأي دولة.
- عالمية الاتصالات التي تعتمد على التقنيات المتطورة والأقمار الصناعية التي سهلت عملية انتشار الفروع وإمكانية إدارتها من أي مكان في العالم.
- عالمية المعلومات التي ترتبت على تطور تقنيات الكمبيوتر ووسائل الاتصال، وتوفر شبكات معلومات عالمية تخدم صناع القرار في كل المجالات.
- توحد النمط الاستهلاكي عالميًا، وإطلاق حرية المستهلك في اختيار مصدر شرائه؛ بحيث استطاعت العولمة أن تدخل أسواقًا جديدة وتنافس عليها دون عقبات.

هذه القوى أتاحت للعولمة الانتشار والسيطرة في ظل تهميش السلطات الوطنية؛ فحرية الاستثمار تعتمد على حرية رأس المال، وكلاهما يفتح الطريق أمام حرية إقامة الصناعات في أنسب مكان في العالم هذا المكان يتم انتقاؤه بعناية من خلال التراكم المعلوماتي وتقنيات الاتصال العالمية والتي من خلالها أيضًا يستطيع المستهلك العالمي التعرف على كل الخيارات.

أ. يوسف كمال:

تستخدم العولمة شعارين للسيطرة على العالم: شعار التحرير، وشعار التجديد؛ وشعار التحرير معناه فتح الأسواق دون قيود أمام حركة التجارة الخارجية.

ولتقوم الشركات الدولية بعمليات إغراق وتكتل واندماج يمكنها امتلاك السوق المحلية كليًا، ومن ثم القضاء على الصناعات المحلية في أي لحظة تريدها، وتدفقت رؤوس الأموال قصيرة الأجل لصناديق الاستثمار الدولية التي تملكها الشركات الاحتكارية ذات النشأة الدولية كما حدث في ماليزيا؛ حيث قام (سوروس) بلعبته وانهارت العملة، واتجهت العولمة بشراء المؤسسات هناك بثمن بخس تحت مسمى الإصلاحات، متسترة بستار التحرير، ولكن (محاضر محمد) عاد إلى لون من التقييد في سعر العملة وحركة رؤوس الأموال؛ ليحافظ على البقية الباقية من الاقتصاد المنهار ورفض معونة صندوق النقد وشروطه التي تربط سياسات

الإصلاح ببرامج تدمر الاقتصاد لخدمة العولمة؛ ولهذا شددوا الحملة عليه.

وبهذا حين نسحب رؤوس الأموال قصيرة الأجل تعاني البنوك من قلة السيولة، ثم تعاني المؤسسات وراءها، ثم تنخفض أسعار العملة وتهوي وراءها أسعار الأسهم.

وهذه العولمة التمويلية تجذب معها إلى الهاوية القطاعات الحقيقية لإنتاج السلع والخدمات رغم أن لديها المقومات التكنولوجية والمادية، والحاجة إليها ماسة.

أما التجديدات المالية فتؤدي إلى تضخم القطاع التمويلي بصورة مبالَغ فيها إذا ما قيس بالقطاع الإنتاجي الحقيقي، وهو ما يعرف «باقتصاد البالونة»؛ نظرًا لاستحداث أنواع من عقود المقامرة والاتِّجار في المال التي أصبحت مصدر ثراء واسع للعالم الغربي واليابان في منتصف التسعينيات؛ حيث كانت حركة التجارة العالمية ٣٠ تريليون دولار، بينما حجم التجارة الحقيقي ٣ تريليونات فقط، و٢٧ تريليون بيع وشراء في الهواء بعقود ما أنزل الله بها من سلطان.

التجديدات المالية تحيل المال الذي تُقَوَّم به الأشياء سلعةً تباع وتشترى؛ وهذا فساد كبير لحياة الناس كما قال فقهاؤنا.

د. رفعت العوضي:

آليات العولمة ومؤسساتها تركِّز الغنى في جانب والفقر في الجانب الآخر، ويزيد التضخم لأسباب كثيرة منها نظام الفائدة، وهو نظام يواجه انتقادات حادة من الاقتصاديين.

البيان: ذكر الدكتور عبد الرحمن أن الحرية هي أحد الأسس أو القوى التي تقوم عليها العولمة ولكنها حرية ذات مذاق خاص غير الحرية التي يتحدث عنها مروِّجو العولمة في بلادنا، أليس هذا صحيحًا؟!

د. عبد الرحمن يسري:

فكرة الحرية هنا تحمل ازدواجية؛ فهي حرية من طرف واحد وإذعان من طرف آخر؛ والمراد ألاَّ تمارس الدولة أي ضغوط لتحقيق مصالحها أو حمايتها ضد أي دولة أخرى، ولكن الولايات المتحدة نفسها تكسر هذه القاعدة حين يمارس كلينتون ضغوطًا شديدة على اليابان بشأن شراء سيارات أمريكية، وحين يمارس كوهين وزير دفاعه مرارًا ضغوطه على دول عديدة لشراء أسلحة رغم عدم الحاجة إليها ورغم أن هذه الدول مدينة وستستدين من أجل إنعاش الصناعة الأمريكية!

هناك كذلك حروب القوانين الاقتصادية كقانون داماتو، حرب الموز. أما حرية الاستثمار فلا تحمل مصلحة للدول الفقيرة؛ لأنه كما يدخل بسهولة يمكن أن يخرج أيضًا بسهولة مخلفًا الدمار.

وفي المقابل لا تملك الأيدي العاملة الحرية نفسها في الانتقال. إذن! هي حرية لطرف ضد طرف؛ فإذا وضعنا في الاعتبار أن غالبية المشروعات الاستثمارية الوافدة لا تستهدف خدمة اقتصاد البلد المضيف بل ربما ذهبت إلى مجالات قد تضر أكثر مما تنفع كمجال السياحة والفنادق والأعمال الإباحية وصناعات التجميل وسلع الرفاهية.

د . رفعت العوضي:

اتفاقية تحرير التجارة تحوّل العالم إلى سوق شاملة واحدة يعمل فيها قانون واحد هو قانون الأقوى الذي يتاح له كل شيء بهدف تضخم أرباحه بأكبر قدر في أقصر زمن وإن تضرر من تضرر.

أشير في هذا الصدد إلى أن دراسة تاريخ الاقتصاد للدول المتقدمة الآن كشفت عن أنها كلها استخدمت الحماية وهي في بداية تقدمها؛ ففرنسا استخدمت قوانين خاصة لحماية صناعتها الناشئة في مواجهة إنجلترا التي سبقتها إلى الثورة الصناعية، وألمانيا فعلت الشيء نفسه، والولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر فعلت ذلك. ولهذا فإن إجبار الدول المتخلفة التي تسعى الآن إلى التقدم - إجبارها على فتح أسواقها وعدم حماية صناعتها الناشئة يعتبر أمرًا غريبًا على تجارب النمو.

د . عبد الرحمن يسري:

يؤسفني أن أقول: إن الدول الإسلامية دخلت مرحلة التحرير - أعني تحرير الأسواق وحركة رؤوس الأموال - وعولة للاستثمار دون رصيد، بل وهي محملة بأعباء الماضي التي تراكمت فيها المديونيات نتيجة لعدم اكتراث الحكومات العلمانية بالشريعة وتبعيتها للغرب؛ وهنا أشير إلى أن استمرار ارتباط إنتاجنا المحلي - بوصفنا دولاً إسلامية - بالسياسات العالمية دون أية ضوابط أو حتى تفهم لاتجاهاتها ومضامينها قد لا يكون من ورائه كسب على الإطلاق بل ربما خسائر محققة خاصة إذا احتكمنا إلى معاييرنا الإسلامية الصحيحة.

البيان : وماذا عما يردد من أن الاقتصاد العالمي في طريقه لأن يقاد من خلال قوى خفية من شأنها أن تنظم السوق العالمي بحياد تام ودون تحيز.

د . عبد الرحمن يسري:

فلسفة اليد الخفية التي تدير النشاط الاقتصادي وتهيمن عليه هي مسألة فلسفية غير واقعية وقد وضع أساسها آدم سميث في القرن التاسع عشر ليدل على أن استخدام الموارد المتاحة والقيام بالإنتاج والاستهلاك لا يستدعي تدخل الدولة، بل إن هذا التدخل يفسد الأمور. ويريد الآن فلاسفة العولمة في العالم الغربي أن يقولوا مثل ما قال سميث ولكن على مستوى العالم بأسره، وهذا غير مقبول. إن مثل هذه المقولة التي ثبت إخفاقها من قبل على مستوى الاقتصاد القومي حينما ظهرت الاحتكارات وحينما اضطرت الحكومات إلى تقديم برامج للخدمة الاجتماعية أو للتكافل الاجتماعي سوف تثبت إخفاقها بشكل أكبر على المستوى العالمي. وغير مقبول أن نصبح - ونحن أمة إسلامية - جزءًا من العالم ليس لنا إلا التبعية لما يجري فيه وليس لنا دور التأثير فيه.

إن الحق - تبارك وتعالى - جعل للإنسان عقلاً وإرادة وتدبيرًا وقدرة على تصحيح الأخطاء وهو ملزم بذلك، وهذا لا يعني أن الإنسان مطلق الإرادة وإنما هو محكوم بسنن ربانية؛ وهذه السنن لا تلغي إرادة الإنسان. كذلك فإن سنة نبينا وهدي القرآن العظيم تجعلنا نقيم أهمية كبيرة لدور الدولة الراعية، ومن ثَمَّ فإن أي مجتمع إسلامي لا يمكن أن يقبل أو يسلِّم لهذه الفكرة ظنًا بأن الخير قد يأتي في نهاية الطريق؛ لأن هذا مخالف لعقيدتنا بوصفنا مسلمين.

د. عبد الحميد الغزالي:

كيف لنا أن نقبل بفكرة من هذا النوع في ظل وجود آليات تتدخل وتدير وتراقب وتتابع وتخطط، هذه الآليات ذات أشكال وملامح مختلفة، ولكنها في الحقيقة تهدف إلى تكريس العولمة وخدمة أهدافها ومصالحها، وهو ما يعني بالطبع سيطرة النموذج الغربي!

البيان: إذنْ فكرةُ حيادية قوى العولمة غيرُ متصوَّرة في ظل المعطيات الواقعية.

د. عبد الرحمن يسري:

فكرة الحيادية أو سيادة منافسة خالصة بين جميع الأطراف في معاملاتهم وتحرك عناصر الإنتاج من مكان إلى آخر وفقًا للقدرة على استخدام هذه العناصر بشكل أكفأ ليست حقيقية؛ فالتجربة التاريخية للنظام الاقتصادي الحر الذي تحكمه قوى الطلب والعرض في إطار المنافسة الكاملة بعيدًا عن التدخل الحكومي - والذي كان الاعتماد فيه على فلسفة اليد الخفية للمواءمة بين المصالح الفردية والمصلحة الجماعية على مستوى المجتمع الواحد - لم يدم طويلاً وتعرض لهزات أدت إلى تغيرات هيكلية وأزمات اقتصادية تفشت فيها البطالة .. فإذا كان هذا على مستوى المجتمع الواحد فهل يمكن أن نثق بتجربة مشابهة تجري على مستوى العالم؟ ولهذا فعلينا من حيث إننا دول إسلامية أو فقيرة ألاّ نسلِّم بقضية الانصهار في عالم بلا حدود بحجة حتمية فلسفية لا أكثر.

حتى وإن سلمنا بحياديتها التامة وبما سنجنيه من مكاسب اقتصادية، فهل يجوز لنا نبذ سياستنا المستمَدة من شريعتنا.. وخاصة ان الجانب الاقتصادي لا يمكن فصله عن الجوانب الأخرى؟ وهذا يعني دخولنا - بوصفنا مجتمعات إسلامية - في أطر لا نقبلها إطلاقًا لأنفسنا ولنسائنا وأولادنا.

أ. يوسف كمال:

العالم بكل مستوياته يتوجس خيفة من العولمة ولا يتصور حياديتها، أما نحن المسلمين فربنا يقول لنا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] والتاريخ يروي لنا عن حروب القرصنة التي شنَّت على البلاد الإسلامية في الأندلس، وحروب العصابات التي جاءت لنهب العالم الإسلامي والتي استمرت حتى اليوم من خلال المعايير المزدوجة بمخالبهم في الشرعية الدولية في مجلس الأمن والجات والشركات الدولية النشاط.

ولعل أزمة جنوب شرق آسيا تكشف لنا بعض هذه الحيادية؛ فبعد تلك الأزمة قدم صندوق النقد الدولي لكوريا الجنوبية ٨٠ مليار دولار دون أي شروط في حين اشترط لتقديم ٤٣ مليار دولار لأندونيسيا مزيدًا من التحرر الاقتصادي من أجل بيع مؤسساتها بأبخس الأثمان في الوقت الذي انهارت فيه العملة الأندونيسية؛ مع العلم أن عدد السكان ٤٣ مليوناً في كوريا بينما في أندونيسيا أكثر من ٢٢٠ مليون.

فالمسألة واضحة سواء من زاوية الواقع أو من زاوية الرؤية القرآنية التي تعطينا المفاتيح الصحيحة.



د . رفعت العوضي:

في كتاب « المدخل الاستراتيجي للقرن الحادي والعشرين » لبول كينيدي وهو من أقوى المفكرين المؤثرين في الغرب يقول المؤلف : إذا كنا نريد أن ندخل القرن الحادي والعشرين فمن خلال نظرية (مالثس) في السكان ، وهي نظرية مؤسسة على أن السكان أكبر من الموارد ؛ ولذلك لا بد من التخلص من جزء منهم ، والحروب القائمة في العالم الآن وخاصة في الدول الإسلامية هي إعمال لهذه النظرية .

العولمة - وهي تتبنى نظرية مالثس - تفرض صيغة معينة على العالم .. هذه الصيغة هي نظرية ٢٠ : ٨٠ أي : ٢٠ ٪ فقط من سكان العالم هم الذين لهم حق الملكية والعمل وكذلك العيش ، في مقابل ٨٠ ٪ يمثل فائضاً بشرياً في دول العالم الثالث ، والحديث عن هذه النظرية جاء في كتاب : (فخ العولمة) وقد ترجم إلى العربية ونشر في سلسلة عالم المعرفة التي تصدر من الكويت .

د . عبد الحميد الغزالي:

أعتقد أن الصورة الحالية أبشع من هذا ، فقد تكون ١٠ : ٩٠ ٪ أو أقل من عشرة .

١٠ ٪ دول متقدمة في مقابل ٩٠ ٪ متخلفة أو نامية تأدباً !!

د . عبد الرحمن يسري:

لا يمكن تصور الحيادية في ظل سيطرة القلة على كل شيء واحتكاره لصالحهم ؛ فهم يدَّعون أنه في ظل تحرير التجارة ستتكافأ الفرص ، وأنا أقول : إنها حتى في ظل ذلك لن تتكافأ لا إنتاجياً ولا استهلاكياً ؛ ففي ظل توحيد النمط الاستهلاكي على مستوى العالم هل نتصور أنه سيكون هناك تكافؤ فرص بين مواطن من سيراليون متوسط دخله السنوي ١٨٠ دولاراً ومواطن ياباني متوسط دخله السنوي ٣٠٠٠٠ دولار؟

وحتى على المستوى الثقافي فإن تعميم النمط الاستهلاكي العالمي يحمل في طياته نمطاً أخلاقياً مغايراً ، وعلى سبيل المثال : فلسفة « السندويتش » أو الوجبات الخفيفة .. تعني أن الأسرة لا تجتمع على طعام واحد أو مائدة واحدة!

أما على المستوى الإنتاجي ففي ظل احتكار الأموال والمعلومات ، وانعدام القدرة التنافسية والتفاوضية لدى العالم الفقير .. لا يمكن تصور هذه الحيادية!

د . رفعت العوضي:

أود أن أشير أيضاً إلى جانب آخر من عدم الحيادية ؛ إذ إن الغرب بما يملكه من تراكم معلوماتي وجرأة تجريبية وعمل مؤسسي قوي وتبني الشخصيات النابغة استطاع أن يولِّد ثورة في المعلومات اختص نفسه بها ، وزاد من سُعار هذه الثورة توفر التقنيات الحديثة من كمبيوتر وشبكات اتصالات ومعلومات لديه مع احتفاظه بأسرارها ، كما أنه يملك برامج متكاملة ومتطورة للتعامل مع قاعدة البيانات . إن احتكار الغرب لهذه الأمور باعتبارها ضمانة أخرى لتفوقه لن يولد الحيادية بصورتها الوردية كما يزعم منظِّرو العولمة .



د. عبد الرحمن يسري:

يشبّه بعض الكُتّاب الثورة العلمية بالجنّي الذي خرج من القارورة ليخدم سيده، ولكن علينا أن ندرك أن القارورة ما زالت بيد السيد الذي صنعها، أعني بذلك أن العالم الغربي هو وحده الذي يملك أسرار التقنيات ويتحكم في استخداماتها.

وهذا تحدٍّ آخر أمام الفقراء كما أشار الزميل الدكتور رفعت؛ فرغم أن المعلومات متاح كثير منها عبر شبكة الإنترنت إلا أن الفجوة ما زالت في اتساع بين عالمين متقدم ومتخلف، هذه الفجوة تمثل في جانب منها تحديًا اقتصاديًا وسياسيًا، كما تمثل في جانبها الآخر تحديًا ثقافيًا يشكل خطرًا على الهوية الإسلامية.

البيان: تحدثنا فيما سبق عن العولمة ومفهومها وبعض القضايا الفلسفية والتطبيقية المتفرعة على ذلك، وتحدثنا كذلك عن القوى التي تمتلكها العولمة في بسط سيطرتها وهيمنتها على العالم، ولا شك أنها تعتمد مع هذه القوى على آليات تدعمها وتسعى على خدمتها من خلال أدوار يكمل بعضها بعضًا؛ ولذلك نود تسليط الضوء على هذه الآليات وما تقوم به في خدمة العولمة.

د. عبد الحميد الغزالي:

هناك آليات عملت واستفادت من القوى التي توفرت للعولمة بل وساعدت هي على تكريسها، هذه الآليات ذات طبائع مختلفة لكنها متكاملة الأدوار ابتداءً من المنظمات الدولية: منظمة الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وما يعرف الآن بهيئة برلمانات العالم، هذه المؤسسات فرضت ما يسمى بالبرامج الإصلاحية وتنظيم حركة الأسواق ومتابعة التشريعات القانونية على مستوى الدول لضمان التجاوب الأسرع مع سياسات العولمة.

- هناك كذلك منظمة التجارة العالمية التي ورثت الجات عام ١٩٩٤ والتي تنظم عمليات انفتاح الأسواق وتحرير التجارة من القيود الحكومية وتتابع ذلك.

- ثم يأتي بعد ذلك المؤتمرات الدولية المتخصصة (ابتداء من مؤتمر الأرض - مؤتمر السكان - مؤتمر المرأة.. الخ) لفرض ثقافة العولمة.

- ثم الشركات العملاقة عابرة القارات والتي تعد المستفيد الأكبر والمحرك القوي للعولمة.

- ثم التكتلات الاقتصادية (أوروبا الموحدة - النافتا - دول النمور فيما سبق .. وما تبع ذلك من تكتلات أخرى).

ولهذا أقول: إن الربط بين العولمة وفكرة اليد الخفية - بمعنى الحرية بعامة والاقتصادية بخاصة - المراد منه إلغاء المقاومة الذاتية في مواجهة قوى الجذب الغربية.

أ. يوسف كمال:

هناك آلية أخرى من آليات العولمة وهي المشاريع المطروحة للتطبيق في منطقة القلب الإسلامي لإذابة إسرائيل في المنطقة أولاً من خلال المشروع الشرق أوسطي الذي تطرحه الولايات المتحدة والذي بدأ مؤتمراته من الدار البيضاء في عام ١٩٩٤ في العام نفسه الذي تشكلت فيه منظمة التجارة العالمية بل وفي الدولة ذاتها

المغرب؛ حيث عقد في مراكش. أما المشروع الثاني فهو الشراكة الأوروبية المتوسطية وهو المشروع الذي تطرحه أوروبا في مقابلة المشروع الأمريكي، وهو يهدف لذات الهدف بحيث يتحول الصراع العقدي تدريجيًا إلى تنافس اقتصادي ثم تكامل تتزعمه إسرائيل بما لديها من تقدم صناعي يموله رأس المال الإسلامي ويمده بالأيدي العاملة وبالمواد الخام وبأسواق الاستهلاك في الوقت ذاته .. وبالمناسبة فإن المؤتمر الاقتصادي الشرق أوسطي الخامس يجري الإعداد له هذه الأيام على قدم وساق.

د. رفعت العوضي:

بالنسبة لاتفاقية تحرير التجارة التي ترعاها الآن منظمة التجارة العالمية ويساعد في ذلك كل من صندوق النقد والبنك الدولي، هذه الاتفاقية هي في الواقع أقرب إلى سياسة الفرض منها إلى الاتفاق؛ لأن الدول الإسلامية مرغمة على التعامل مع صندوق النقد والبنك الدولي كي تتهيأ للدخول في منظمة التجارة العالمية، وهي بذلك أمام قائمة طويلة مما يعرف بالإصلاحات الاقتصادية باتباع سياسات نقدية ومالية معينة وسياسات سعر الصرف وتخصيص القطاعات الإنتاجية العامة وفرض أسلوب معين في الإدارة وفق معايير هم يضعونها.

وهنا نلاحظ أن منظمة تحرير التجارة تؤدي الدور نفسه الذي أداه الاحتلال قديمًا في استغلال موارد الدول الفقيرة لصالح الدول الغنية وفرض التخلف والتبعية على هذه الدول.

لهذا فإن التحرير لن يؤدي بالضرورة إلى نمو كل من المبادلات وحركة الاستثمار والتشغيل في كل الدول التي يحلم شعوبها بالرفاهية والرخاء؛ لأنه في ظل الإنتاج من جانب واحد تفقد الدول الميزة النسبية لخاماتها؛ حيث تبيع الخامات بأسعار رخيصة ثم تشتري نفس الخامات بعد تصنيعها بأسعار كبيرة جدًا.

د. عبد الحميد الغزالي:

لم تتضمن اتفاقية تحرير التجارة أي إشارة لانتقال الأيدي العاملة مع العلم أننا دول الفائض، ولكن الدول الغربية لم تشأ النص على حرية انتقال العمالة خوفًا على الخصوصية الثقافية والسكانية والمصالح الاقتصادية لمجتمعاتها، وحفاظًا على الوضع الاقتصادي حيث متوسط الدخل هناك ٢٠,٠٠٠ دولار سنويًا في مقابل ٢,٠٠٠ دولار في المتوسط للدول الفقيرة وهذا من شأنه أن يزيد الفجوة الاقتصادية.

د. عبد الرحمن يسري:

قد ترحب الدول الغربية بشيء من النمو الاقتصادي يتحقق في بعض الدول كي تضمن أسواقًا لمنتجاتها لكن دون أن يبلغ هذا النمو حد المنافسة الحقيقية، وإذا ما استشعرت خطرًا على مصالحها سارعت بالانقضاض على تلك التجارب الناجحة.

ولهذا فإن العالم الغربي دائم الحرص على توسيع الفجوة التقنية ليضمن عدم اللحاق به؛ وهذا من شأنه أن يضعنا في الجانب الأضعف في أي وضع تفاوضي. كما أشير إلى أنه ينبغي علينا ألا نُخدع - بوصفنا مسلمين - بموجة التخصيص المطلقة التي تأتي على كل شيء؛ لأن هناك - على الأقل - ملكية مشتركة حددها النبي ﷺ بـ «الماء والنار والكلأ» والاجتهادات الحديثة تقول: إن النار تشمل موارد الطاقة، والماء يشمل جميع

الموارد المائية، والكلأ : الموارد الطبيعية غير المملوكة ملكًا خاصًا لأحد؛ وعليه يجب علينا المحافظة عليها بعيدًا عن استنزاف الشركات عابرة القارات، ويدخل في هذا أيضًا كل ما من شأنه أن يحافظ على المصالح العامة للأمة أو للشعوب.

قد يقال إن مجهودات الشركات الأجنبية وما تتملكه من موارد وطنية يمكن أن يندرج تحت مسمى حق الإحياء، وهذا لا يصح؛ لأن حق الإحياء لأراضينا يكون للمسلمين وحدهم ولمن عاش معهم من أهل الذمة دون غيرهم، أما حق الإقطاع مقابل الاستصلاح فينبغي ألاّ تُملَّك الأرض وإنما تؤجَّر لمدة معلومة مقابل الاستصلاح إذا دعت إلى ذلك الحاجة.

البيان: وماذا عن الشركات دولية النشاط التي أشار الدكتور عبد الحميد الغزالي إلى أنها أصبحت إحدى آليات العولمة وأحد أكبر المستفيدين منها في الوقت ذاته، هذه الشركات بعد أن كانت عابرة الحدود عبرت اليوم حدودًا أخرى من خلال ما أصبحنا نسمع عنه من ثورة اندماجات عالمية يصعب على المتابع إدراك أبعادها، وبعض المتابعين والمحللين عدها أهم آليات العولمة على الإطلاق؛ لنفاذها إلى مجالات أكثر تأثيرًا، هذه الشركات نريد أن نلقي الضوء على نشاطها وأهدافها وسياساتها ومخاطرها.

د . رفعت العوضي:

هناك حركة اندماجات عنيفة جدًا بين الشركات فوق العملاقة؛ والدراسات في هذا الموضوع مخيفة للغاية؛ فلم يكتف العالم المتقدم بإقامة تكتلات اقتصادية بين الدول كالاتحاد الأوروبي، والنافتا في أمريكا، فقام بتطوير أشكال التكتل كي يضمن الهيمنة المطلقة على السوق الدولية.

ومن هنا فإن اندماج الشركات دولية النشاط من شأنه أن يُحْكِمَ السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية لصالح قطب واحد.

هذه الشركات تسعى للاستفادة من اقتصاديات الحجم الكبير والانتشار الجغرافي في توسيع أسواقها، وتخفيض تكلفة الإنتاج والنقل، وإعادة تقسيم العالم على المستوى الدولي بما يدعم كفاءتها الاقتصادية وفرض سيطرتها على الأسواق. هذه الشركات أصبحت تتضخم بشكل مفزع من خلال الاندماجات السريعة والمتلاحقة حيث أصبح العالم أمامها سوقًا واحدة.

على سبيل المثال سوق السيارات يتوقع أن تسيطر عليها أقل من عشر شركات في العالم في الدول المتقدمة.

سوق البترول سوف تسيطر عليها أقل من خمس شركات.

حتى الشركات غير الوطنية دخلت في عمليات اندماج؛ فشركة كهرباء لندن اشترت شركة كهرباء نيويورك.

أما مصرفيًا فسوف يسيطر على العالم ٢٦ بنكًا .. ومن ذلك أن اندماج بنكين في الولايات المتحدة الأمريكية كانت حصيلته رأس مال يقدر بـ ٦٠٠ مليار دولار، علماً بأن هذه الشركات تدير ٧٠٪ من تجارة العالم.



وبينما نجد أن شركات الدول الكبرى تتوحد وتكبر فإن العالم كله يتفتت؛ ومن ثَمّ فإن الكلام عن عجز الحكومات أمام هذه الشركات في ظل تحرير التجارة أمر لم يعد جديداً؛ لأن هذه الشركات أصبحت تمارس ضغوطًا شديدة وتملك صلاحيات في كثير من البلدان ـ وعلى المستوى الدولي أحيانا ـ بما يمكنها من تحقيق مآربها وأهداف الدولة الأم.

د. عبد الرحمن يسري:

الدول العربية والإسلامية لم تنتفع بوجود الشركات الدولية خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات على أراضيها إلا قليلاً، وما يقال حول دور هذه الشركات في عمليات الإنماء لا تشهد له التجارب ولا الواقع.

فعلى مستوى التقنية الحديثة فإن هذه الشركات تحتفظ بأسرارها للدولة الأم ولا تصدرها إلا في مجالات محدودة جدًا وهامشية؛ وإذا ما اضطرت إلى نقل فعلي للتقنيات الحديثة فإنها تسعى جاهدة للاحتفاظ بإدارة أجنبية للنشاط بعيدًا عن الخبرة المحلية؛ وعلى سبيل المثال فإن فرنسا عندما خرجت من الجزائر قامت بتدمير كل تقنيات البترول الحديثة التي خلَّفتها.

وفي الإطار نفسه إذا ما اضطرت إلى توسيع نشاطها الإنتاجي من خلال عقود التراخيص ـ كما فعلت في دول جنوب شرق آسيا ـ فإنها تقصر تلك العقود على حلقة إنتاجية واحدة حتى لا تتسرب الأسرار التقنية.

وهناك نوع ثالث من العقود التي تلجأ إليها وهي عقود تسليم المفتاح الذي يكثر تطبيقها في التعامل مع دولنا؛ حيث إن الخبرة المحلية لا تعرف عن التكوين التقني إلا مجرد الاستخدام دون اطلاع على أسرار أو معرفة كيفية الصيانة ومن ثم تقوم بإدارة المشروع إما من خلال الخبرة الأجنبية أو من خلال الإرشادات المملاة كما هو الحال في الأجهزة المنزلية.

وهناك نوع آخر هو نقل الصناعات كثيفة العمالة خفيفة التقنية التي تحتاج إلى العمالة الرخيصة ـ وهي متوفرة لدينا بالطبع ـ أو المشروعات ذات معدل التلوث العالي التي تلاحقها منظمات البيئة هناك وتفرض عليها ضرائب باهظة فتلجأ إلى البلاد الفقيرة التي نحن منها، وذلك هربًا من القيود التي تفرض عليها في بلادها.

وأخيرًا لجأت هذه الشركات إلى تضمين اتفاقية تحرير التجارة بنودًا عن حفظ حقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع وبهذا تحجز هذه التقنيات من المنبع خاصة، وأكثر الدول قد وقَّعت على هذه الاتفاقية.

أ. يوسف كمال:

لا بد من التنبيه إلى خطر فتح الأبواب على مصاريعها أمام الشركات الدولية النشاط والاستثمار الأجنبي، فبالإضافة إلى ما ذكره الأخ الدكتور عبد الرحمن يسري فإن هناك جانباً آخر ربما كان أكثر خطورة وهو جانب الاستثمار؛ لأن هذه الشركات نادرًا ما تدخل في شكل استثمارات مباشرة (أي طويلة الأجل)، وإنما تدخل بما يعرف «بالأموال الطائرة» في استثمارات قصيرة الأجل وسريعة العائد التي تحقق لها عوائد هائلة دون أن يكون لذلك مردود على التنمية المحلية، بل ربما يحدث مثلما حدث في دول النمور.

وإن حدث وقدمت استثمارات مباشرة فإنها قبل ذلك تأخذ ما يكفيها من التسهيلات والضمانات السياسية والاقتصادية التي لا تحظى بها رؤوس الأموال المحلية، بما يعرقل الاقتصاد المحلي.

أضف إلى هذا أن جُلّ أنشطتها يقتصر على السلع الاستهلاكية ذات العائد الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد والذي يشكِّل خصيصًا لأجل هذا الغرض في بلادنا! ومن هنا فالواضح أن الاعتماد على هذه الشركات في إقامة قاعدة إنتاجية تنموية في بلادنا أمر مستبعد، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الشركات تقوم بامتصاص الفوائض المالية لدى المستهلكين عن طريق الإغواء والإغراء الاستهلاكي.

وغالبًا ما تعيد تصدير عوائدها إلى الدولة الأم أو إلى أي مكان يمكن استثمارها فيه بشكل أفضل، وبهذا تتآكل المدخرات المحلية وتضعف القدرة الشرائية لدينا مع الوقت.

وفي أحيان أخرى تدخل هذه الشركات شريكاً بالخبرة والإدارة إلى السوق المحلية، ثم تقوم بتمويل نشاطها من خلال الاقتراض أو الاكتتاب المحلي دون أدنى مخاطرة بأموالها لفتح أسواق جديدة لها!

ومن ثم يتعين علينا أن نمحِّص المزايا التي يتحدثون عنها، والتي قد يصعب أن تتحقق للاقتصاد المحلي من جراء فتح الأبواب أمام هذه الشركات للاستثمار في بلادنا.

البيان: وماذا عن التكتلات الدولية التي أصبحت تنذر بمزيد من التهميش لعالمنا الإسلامي في ظل العولمة.

د. رفعت العوضي:

هناك بعض الدول ذات الحجم الكبير التي تُعَدُّ بذاتها كتلة سواءاً بمعيار حجم الإنتاج القومي أو عدد السكان أو حجم التجارة الخارجية، وهذه الدول بالتحديد هي: الولايات المتحدة والصين والهند واليابان، ومع بروز الصراع الاقتصادي في ظل العولمة سارعت بعض هذه الدول في الدخول في تكتلات تضمن لها بقاءًا أقوى، فدخلت اليابان في مجموعة الآسيان، وشكلت الولايات المتحدة مع كندا والمكسيك مجموعة النافتا وهي عبارة عن اتحاد جمركي ذي سياسة واحدة، فيما تسعى الولايات المتحدة إلى دمج الأمريكتين في منطقة تجارة حرة تمهيداً لخطوات أخرى نحو التكتل.

وفي الاتجاه نفسه سارت الدول الأوروبية بعد أن قطعت شوطًا؛ حيث وصلت إلى مرحلة الوحدة؛ إذ أصبح لها برلمان واحد وعملة واحدة «اليورو» وسياسة اقتصادية واحدة في مواجهة الدول والتكتلات الأخرى، وعلى غرار هذه التكتلات قامت تكتلات أخرى في كل من آسيا وإفريقيا؛ ولكنها لا تعتبر تكتلات بالمعنى المعروف لضعف التنسيق بين دول المجموعة الواحدة، وضعف مستواها الاقتصادي كذلك.

ولهذا فإن العالم الفقير ـ والذي منه الدول الإسلامية بالطبع ـ سيحاول اللحاق بهذه التكتلات في أحسن أحواله لضمان الفتات! وإذا تصورنا أن الاقتصاد العالمي عبارة عن طاولة فإن الذين يملكون الجلوس عليها في ظل العولمة هم الكبار فقط والذين يملكون زمامها هم الكبار جدًا؛ لأنهم يملكون سياسة واحدة! ومن ثَمَّ فإن الأمر ينذر بمزيد من ضعف القدرة التنافسية وباتساع أكبر للفجوة الدخلية والفجوة التكنولوجية وبانخفاض أسعار صرف العملات الإسلامية؛ مما يعني مزيدًا من الاعتماد على الخارج ومزيدًا من التبعية.





الانسحاب من لبنان وسياسة عض الأصابع

د. يوسف الصغير

إن ما يجري في لبنان وإن كان يمثل الفصل ما قبل الأخير من مسرحية السلام، فإنه يمثل حالة نادرة ومعقدة تتداخل فيها القوى، وتختلط فيها المصالح، وتبرز فيها القدرات العالية للأطراف المختلفة على المناورة والبراعة في لعب الأوراق مما يؤهلها لتقدم حالات دراسية في أقسام العلوم السياسية.

إن العامل المشترك في المفاوضات على مختلف المسارات هو حرص اليهود على التعامل مع كل طرف عربي على حدة والانفراد به بمعونة مباشرة من أمريكا، وبعد الانفراد بكل طرف فإن رئيس الوزراء اليهودي يدخل المفاوضات مكرراً أنه يمثل دولة ديمقراطية تديرها المؤسسات، وأنه لا هو شخصياً ولا حزبه يستطيع تجاوز خطوط حمراء في المفاوضات؛ لأنها ستثير المعارضة وتسقط مشروع أي تسوية إما بواسطة تهديد بعض الأحزاب الصغيرة بالخروج عن الائتلاف الحكومي، أو التهديد بطرح الثقة بالحكومة، أو اشتراط قيام استفتاء حول أي اتفاقية. وأيضاً فإن أي اتفاق يوقعه الرئيس يظل عرضة للقبول أو الرفض من قِبَل الكنيست. إن هذا التكتيك يريح المفاوض اليهودي من التعرض لأي ضغوط؛ لأن الرد البسيط هو أنه ولو وافق الكنيست فإن الموضوع لن يمر؛ وهنا تتجه الضغوط على الطرف المقابل؛ حيث إن الجانب العربي يمثله شخص وحيد تنجح المفاوضات بمجرد إقناع الزعيم أو إغرائه أو إجباره على صيغة تناسب الطرف المقابل؛ ولهذا فإن الاتفاقيات تتم غالباً بعد مفاوضات سرية؛ لأن علنية المفاوضات ستجعل الزعيم يحس بالحرج.

فمثلاً اتفاقية كامب ديفيد كانت المفاوضات سرية وبرعاية الحسن الثاني في المغرب. أما زيارة القدس واحتفالات التوقيع فهي من قبيل الإخراج المسرحي ليس إلا.

أما المسار الأردني فإن الاتفاقية تتوج حوالي عشرين سنة من العلاقات الحميمة والاتصالات السرية مع الملك حسين، أما المسار الفلسطيني وهو أهم المسارات على الإطلاق لحيويته في إضفاء الشرعية على وجود الدولة اليهودية وحدودها الحالية والتي تتجاوز قرار التقسيم فإن الزعيم حريص على أن تكون جميع الأوراق بيده وأن يكون هو الوحيد الذي ينال شرف الانحناء أمام ضغوط الراعي الأمريكي والقبول بمطالب الجانب اليهودي.

لقد كانت اتفاقية أوسلو صدمة شخصية لحيدر عبد الشافي وكان عليه إن يتساءل أولاً عن السر في اختياره لقيادة مفاوضات المسار الفلسطيني وكان أصعب ما فيها الوقوف أمام الناس وتسويغ أول مفاوضات علنية ومباشرة أساسها الاعتراف بشرعية وجود دولة اليهود في فلسطين، ومن ثم مطالبتها بالتكرم بالتنازل عن جزء عزيز من أرض (إسرائيل) ليقيم عليها الشعب الفلسطيني «إن لفظة التنازل يحرص الساسة اليهود على ترددها ومن ورائهم الإعلام الموجه؛ حيث إنها تعني أن اليهود يتنازلون عن شيء هو من حقهم».

إن حيدر عبد الشافي ليس من رجال عرفات وليس بذي توجُّه إسلامي، ولكنه من الشخصيات الوطنية التي تحظى بشيء من الاحترام، وقد تعب المسكين من كثرة ركوب الطائرات، وكان عزاؤه الوحيد هو التركيز الإعلامي على أخبار المفاوضات، وأصبح اسم حيدر عبد الشافي وحنان عشراوي على كل لسان، وفجاة وبدون مقدمات يُعلَنُ التوصل إلى اتفاقية تم التفاوض عليها بصورة سرية في أوسلو واكتشف الناس أن حيدر عبد الشافي وأعضاء وفده الكرام كانوا مجرد شلة من المهرجين في نظر الزعيم؛ وكم كان منظرهم مضحكاً بالنسبة إليه عندما يقدمون لسيادته التقارير المطولة عن مفاوضاتهم الجادة مع الوفد اليهودي ويتكرم عليهم الزعيم بتوجيهاته الكريمة بعدم التفريط بحقوق الشعب الفلسطيني!!

إن اعتراف عرفات بدولة (إسرائيل) ـ وهو الذي يُتَعامَل معه على أنه الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني! «لأنه هو المنظمة» هذا الاعتراف فتح مجالاً واسعاً لعلاقات علنية مع كثير من الدول العربية (تونس، والمغرب، وعمان، وقطر، وموريتانيا) والإسلامية مثل أندونيسيا ودول إفريقيا، وكان العذر المباشر هو أنه إذا كان أصحاب الشأن قد أقاموا علاقات مع (إسرائيل) فما المانع من القيام بالشيء نفسه.

وأخيراً لم يبق إلا سوريا ولبنان؛ لأن جميع الدول العربية المترددة والرافضة للتطبيع مع اليهود قد تترست خلف سوريا، وربطت التطبيع

بالمسارين السوري واللبناني وكلها أمل أن تطول المفاوضات وهي مرشحة لذلك؛ نظراً لكثرة اللاعبين وإجادتهم لفن شد الحبل وسياسة عض الأصابع، وسنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على مطالب كل طرف وأهدافه وطريقة إدارته للقضية؛ ولكن نظراً لتغير الظروف واللاعبين فإننا سنضطر للتعريج على كل طرف أكثر من مرة.

سوريا والجولان:

إن من الأمور الغريبة في قضية الجولان أنه بعد حرب ١٩٦٧م ثم حرب ١٩٧٣م واتفاقية فض الاشتباك التي رعاها وزير الخارجية الأمريكي اليهودي هنري كيسنجر، ومرابطة قوات تابعة للأمم المتحدة على الحدود فإن الهدوء التام يعم الجولان، ولم تقم سورية بأي عمل من شأنه تعكير صفو المحتلين الذين هدموا مئات القرى السورية، وهجروا أهلها الذين يبلغ عددهم وفق التقديرات السورية حوالي نصف مليون، وبدؤوا إقامة المستوطنات ومعسكرات الجيش بل وأصدر الكنيست قانوناً بضم الجولان.

لم نسمع بقيام أحد من المهجرين من الجولان بأي عمل عدائي مسلح، ولم تقم الدولة بأي محاولة لاستعمالهم ورقة ضغط مع تضلعها وبراعتها في رعاية المنظمات الفلسطينية المختلفة واحتضانها، ورعايتها التامة لحركة أمل، وتعاونها مع حزب الله في عملياته الموجهة في لبنان، لقد كان وما زال بمقدور سورية تكوين مجموعات من أهل الجولان مهمتهم إزعاج المحتلين وإبقاء قضية احتلال الجولان حية، وكان يمكن أن يكون مركز هذه المجموعات الجار المفتوح «لبنان». إنني ادعو القارئ أن يتساءل معي عن سر هذا الإحجام مع براعة النظام السوري في استغلال أوراق أخرى أقل أهمية!

إن المتتبع ظاهرياً للأحداث يكتشف بسهولة أن جهود النظام السوري منصرفة بصورة شبه كلية نحو استغلال الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان وظروف الحرب الأهلية من أجل الهيمنة على لبنان مع تجنب الدخول في مواجهة عسكرية مع (إسرائيل) تحت أي ظرف.

لبنان:

عندما دخلت القوات الفرنسية دمشق، وزار الجنرال الفرنسي غورو قبر صلاح الدين الأيوبي قال: «ها قد عدنا» نعم لقد عاد أحفاد لويس التاسع ليقيموا دولة نصرانية في المشرق، ولم يخرجوا من الشام إلا بعد إرساء قواعد دولة يهيمن عليها الموارنة النصارى اسمها لبنان. ويمكن إعادة كثير من أحداث لبنان إلى سيطرة هاجس الحفاظ على الهيمنة الذي أدى إلى ارتكاب الموارنة أخطاءاً ساهمت في تعقيد الوضع نظراً لكثرة اللاعبين وتبدل أدوارهم.

لقد تعرضت الهيمنة المارونية للتهديد منذ أواخر الخمسينيات عندما برز المد القومي الناصري مما اضطر الرئيس اللبناني كميل شمعون لطلب تدخل الأسطول السادس الأمريكي عام ١٩٥٨م، وقد استقرت الأوضاع لهم طوال الستينيات، ولكن الأحوال تغيرت بعد استقرار القيادات الفلسطينية في لبنان بعد خروجهم من الأردن بعد أحداث أيلول الأسود ١٩٧٠م. لقد استفاد قادة المنظمات من وجود عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين الموزعين على مخيمات في مختلف أنحاء لبنان. ومع بداية العمل المسلح الفلسطيني في لبنان بدأت الحساسيات تظهر، واشتبك الجيش اللبناني مع الفلسطينيين مما أدى إلى تدخل الدول العربية، وتم التوقيع على اتفاقية القاهرة التي تنظم الوجود الفلسطيني. لقد وقع الموارنة تحت ضغط ذاتي للتخلص من الوجود الفلسطيني الذي يهدد هيمنتهم إضافة إلى ضغط إسرائيلي لتكرر الحكومة اللبنانية ما فعله الأردن من قبل. ولما كانت الحكومة اللبنانية أعجز من أن تقوم بذلك حتى لو رغبت، فقد بدأت (إسرائيل) تقوم بعمليات داخل لبنان، ومن ناحية أخرى نسجت خيوطها حول الأحزاب المارونية وخاصة حزب الكتائب الذي بدأ يشكل ميليشيات مسلحة. وللأسف فإن السنَّة في لبنان غافلون عما يدبر لهم، وقد خدرتهم أسطوانة أن لبنان مثال حي للتعايش بين الطوائف التي كان يرددها الموارنة لعشرات السنين، وتكشف مدى الحقد الدفين الذي أعماهم عن هدف الحرب التي أشعلوها؛ فقد بدأت ضد الوجود الفلسطيني بحادث الحافلة المشهور، ولكنها سرعان ما تحولت إلى عملية فرز طائفي دموية قام خلالها الموارنة بتصفية التجمعات الإسلامية والفلسطينية المتداخلة مع مناطقهم بصورة وحشية كما حصل في تل الزعتر والكرنتينا، ودارت معارك طاحنة للسيطرة على وسط بيروت؛ ولا أنسى صور النصارى وهم يسحلون جثث أهل السنة ويشربون أنخاب الخمر احتفالاً بانتصارهم الذي سرعان ما انقلب إلى هزيمة مروعة، ولا أنسى القصص المأساوية لعمليات القتل على الهوية التي بدأها النصارى. لقد أفلت زمام الحرب من الموارنة التي تحولت إلى صراع من أجل البقاء اضطر فيه النصارى إلى طلب العون الخارجي. وإذا كانت (إسرائيل) على استعداد للدخول ضد الفلسطينيين فإن الأمر صعب نظراً لتوسيع النصارى دائرة الحرب بحيث شملت جميع الطوائف وخصوصاً السنة؛ ولهذا فإن دخول (إسرائيل) الحرب في تلك الفترة سيكون محرجاً وحساساً خاصة أنه في تلك الفترة لم يكن أحد يجرؤ على التصريح بعلاقات مع

(إسرائيل) ولهذا تم التوجه إلى سوريا التي كانت تنتظر الفرصة السانحة بالدخول الأول في حزيران ١٩٧٦م، وخاضت معارك عنيفة خاصة في بحمدون وصيدا، وبعد فترة من الزمن خمدت فرصة النصارى بالتدخل السوري، وبدأت أصواتهم ترتفع بخروج قوات الردع العربية؛ لأنهم اكتشفوا أن التدخل السوري الذي حصل بناءاً على طلب ماروني ومباركة إسرائيلية مع غطاء عربي ليس بالضرورة معنياً بالرغبة المارونية بإعادة الأمور إلى ما قبل الحرب التي أشعلوها؛ لأن (إسرائيل) يهمها أساساً تصفية الوجود الفلسطيني المسلح، ولهذا فقد أطلقت يد سوريا في لبنان ما عدا خطوطاً حمراء تم الاتفاق مع سوريا على عدم تجاوزها. لقد كان هدف التدخل السوري كما أعلنه الرئيس الأسد هو «الحفاظ على التوازن في لبنان» الذي إذا كان يعني أنه لن يسمح بسيطرة المسلمين فإنه يعني أيضاً أنه لن يعيد السلطة كما كانت للموارنة. أو بصورة أخرى فإن سوريا ستحكم لبنان؛ لأنها ببساطة هي الوحيدة القادرة على حفظ التوازن وستعمل جاهدة لإثبات ذلك.

لقد قامت سوريا بنصف المهمة، وكان تسرُّع الموارنة بالتمرد على سوريا عاملاً أساسياً في عودة العلاقة المصلحية مع الفلسطينيين الذين عادوا لشن عمليات داخل فلسطين المحتلة. وفي المقابل قامت (إسرائيل) باحتضان قوات نصرانية يقودها الرائد سعد حداد مرابطة في منطقة الشريط الحدودي. وبدأت (إسرائيل) باحتلال مناطق في جنوب لبنان، وتوالت عمليات الجيش الإسرائيلي داخل لبنان مثل عملية غزو الجنوب عام ١٩٧٨م. (عملية الليطاني).

لقد وصل الموارنة إلى طريق مسدود؛ فالمخابرات السورية هي التي تحكم لبنان، والرئيس لا يستطيع اتخاذ أي قرار بدون الرجوع إلى دمشق وكان بشير الجميل ذاك الشاب الطموح ذو الابتسامة التهكمية يمنِّي نفسه بقيادة لبنان؛ ولذا فقد وطد سلطته في قيادة القوات اللبنانية، وعمل على تصفية أقرانه من الزعامات المارونية مثل طوني سليمان فرنجية (حزيران ١٩٧٨م) وداني كميل شمعون ليخلو له الجو، وفي الوقت نفسه عمل على توطيد علاقات خاصة مع قيادات الجيش الإسرائيلي وضباط المخابرات، وكانت الزيارات المتبادلة لا تنقطع، وحصل على كثير من المساعدات العسكرية، وتم تدريب المئات من جنود الكتائب على خوض المعارك والاشتراك في مناورات مشتركة منذ عام ١٩٧٩م، وبدأ بشير الجميِّل بالتحرش بالسوريين ومحاولة جر الإسرائيليين لضربهم، وفيما كان السوريون

يخططون لوصول سليمان فرنجيه لسدة الحكم اعلن بشير الجميِّل ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية التي لا أمل له بالفوز فيها إلا بالتدخل الإسرائيلي المباشر وهو ما أقره مجلس الوزراء الإسرائيلي برئاسة بيغن في كانون الثاني ١٩٨١م.

وبدأت عمليات غزو لبنان في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٨٢م، وسميت: (عملية سلامة الجليل) واستمرت الحرب حتى ٢١ آب (أغسطس) وبلغت الإصابات تقريباً ٢٩٥٠٦ شخص بين قتيل وجريح. وبعد يومين من بدء عملية إخلاء الفلسطينيين انتُخب بشير الجميل رئيساً لجمهورية لبنان، وبعد أسبوع سافر بشير إلى نهاريا، وقابل بيجن ومما قال له: «هدفنا الآني الآن إخراج الفلسطينيين والسوريين من البقاع وشمالي لبنان وبعدها يمكننا التصرف كدولة ذات سيادة» وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من أيلول في بيت الكتائب في الأشرفية وأثناء إلقائه خطاب وداع لأنصاره بمناسبة فوزه برئاسة الجمهورية تم تفجير المبنى، وقتل بشير الجميل على يد حبيب طانيوس الشرتوني النصراني من الحزب القومي السوري. وبعيد ذلك قامت القوات الإسرائيلية بمحاصرة مخيمي صبرا وشاتيلا، ونقلت إليهما قوات الكتائب التي ارتكبت مجزرة رهيبة بحق النساء والأطفال والعزل. وبقدر ما صدمت هذه المجزرة الراي العام فقد حكمت بالموت على حزب الكتائب، وعجلت بانسحاب الجيش الإسرائيلي من بيروت، وتولت القوات متعددة الجنسية ـ والتي تتكون أساساً من قوات أمريكية وفرنسية ـ تولت تهدئة الأوضاع ومحاولة ترتيب الأمور بما يناسب المصالح الإسرائيلية والمارونية، وبقيت القوات الإسرائيلية في منطقة الجنوب والشوف وأجزاء من البقاع وفي صيدا. وإلى هنا تم التخلص من الوجود الفلسطيني المسلح، وبقي تقديم الشكر لسوريا على خدماتها وإبلاغها بانه آن الأوان لمغادرة قواتها لبنان، ولكن هذا لم يحن بعدُ؛ حيث برزت حركة أمل الشيعية الموالية لسوريا لملء الفراغ في بيروت الغربية والمخيمات الفلسطينية؟ وذلك بعد انسحاب القوات الدولية من بيروت بعد تفجير مقري قيادة القوات الأمريكية والفرنسية وقتل حوالي ٥٠٠ جندي ثلثلهم من مشاة البحرية الأمريكية، واقتصر الرد الأمريكي على إطلاق البوارج الأمريكية قذائف مدافعها الضخمة على أهداف وهمية، وحتى الآن لم يتم التأكد مَنْ هم المدبرون. وفي الوقت نفسه تمت عملية مماثلة في صيدا ضد مركز القيادة الإسرائيلية خلفت حوالي سبعين قتيلاً، وبالمثل قامت (إسرائيل) بتقليص المنطقة

العازلة إلى الشريط الحدودي الحالي، واعترفت الدول الثلاث بعجزها عن التعاطي مع الوضع في لبنان وتسليم الملف إلى سوريا. وتولت حركة أمل مهمة تصفية بقايا الوجود الفلسطيني المسلح في المخيمات، وبدأت مرحلة ما يسمى بحرب المخيمات، وبقدر ما نجحت الحركة في إنجاز المهمة الموكلة إليها فقد أفرزت وضعاً جديداً؛ حيث إن المجازر غير المسوّغة بحق الفلسطينيين وحصار المخيمات الذي طال أمده قد أدى إلى موت الحركة وضمورها وانشقاق مجموعة منها كونت حزب الله وارتبط (حزب الله) بإيران، ونما بسرعة في البقاع والضاحية الجنوبية من بيروت؛ بحيث أزاح حركة أمل. وأما في الجنوب فما زال التنافس بينهما على أشده في أوساط الشيعة.

إن محاولة (إسرائيل) الاحتفاظ بالشريط الحدودي لدعاوى أمنية فارغة بعد تصفية الفلسطينيين تخفي مطامع اقتصادية وسياسية؛ حيث إن (إسرائيل) دأبت على استنزاف موارد الشريط من المياه والتربة، وترددت في حل مشكلة المتعاونين معها؛ فهي ليست على استعداد لقبولهم، ولم تستطع إقناع الحكومة اللبنانية بالعفو عنهم، وضيعت الوقت بالبحث عن ممول لتوطينهم في فرنسا أو كندا.

لقد كان هذا الوجود أكبر ورقة وأهم دعوى استغلها حزب الله في سبيل تثبيت أقدامه في لبنان والحصول على رصيد شعبي تجاوز الطائفة الشيعية، وكان الغطاء الإيراني ضرورياً لتأمين عدم ضربه من قِبَل سوريا لحساب حركة أمل؛ وذلك للتحالف الاستراتيجي بين البلدين، ولذلك رضيت سوريا بالتنسيق مع الحزب، بل وإعطائه الحق بحمل السلاح عن طريق استثناء السلاح المقاوم من قانون تجريد الميليشيات من السلاح.

الانسحاب من لبنان شعار أم هدف؟

لقد كانت محاولة الرئيس العماد ميشال عون إخراج القوات السورية ودخوله في معارك طاحنة معتمداً على الحماية الغربية آخرَ صِدَام جدي مع الموارنة، وقد طال الصراع لسبب بسيط هو أن سوريا تنتظر الضوء الأخضر الذي جاء عندما تمنعت عن المشاركة في حرب الخليج، وقد تم الهجوم على قصر بعبدا «وهرب عون إلى السفارة الفرنسية التي أمنت نقله إلى فرنسا؛ حيث يعيش حتى اليوم» وفي الوقت نفسه وافقت سوريا على المشاركة؛ ومنذ ذلك اليوم فهم الموارنة أن على الرئيس اللبناني ورئيس الحكومة أن يدبر أمورهما مع سوريا، ولكن المشكلة أن مجرد رفع الغطاء الدولي عن وجودها في لبنان كفيل بارتفاع الأصوات

الداعية لخروج القوات الأجنبية من لبنان؛ ولذا فمن المهم لسوريا أن يعرف العالم أنها الجهة الوحيدة القادرة على الإمساك بخيوط اللعبة في لبنان، وهذا ما تقوم به عن طريق توثيق العلاقة مع حزب الله، والتأكد من ولاء كبار السياسيين الموارنة المقيمين في لبنان، وأخيراً التلويح بالعودة لاستعمال الورقة الفلسطينية؛ حيث صرح رئيس الجمهورية اللبناني رداً على تهديد باراك بالانسحاب من جنوب لبنان بأن لبنان لن يسمح بتوطين اللاجئين الفلسطينيين في أراضيه، وأن من حقهم الكفاح من أجل العودة.

إن تهديد باراك بالانسحاب من لبنان دون اتفاق مع سوريا يوحي أنه يعرف أن سوريا تستخدم ورقة عمليات حزب الله للضغط من أجل الحصول على أكبر قدر من المكاسب في الجولان، وأن نجاحه في جمع التأييد لهذا الانسحاب وتصويره بأنه تنفيذ لقراري مجلس الأمن ٤٢٥، ٤٢٦ اللذين مضى عليهما أكثر من عشرين سنة والحماس الفرنسي المريب واستعداد فرنسا لإرسال قوات للمنطقة، ومسارعة الشرع إلى باريس لاستجلاء الموقف الفرنسي بعد تصريحات وزيري الخارجية والدفاع الفرنسيين الموالية لـ (إسرائيل).

إن موقف باراك المعلن أنه بعد الانسحاب ستكون سوريا مسؤولة عن أي عملية ضد (إسرائيل) وأن الرد سيكون قاسياً وسيتجاوز لبنان؛ لأن ضرب البنى التحتية اللبنانية أصبح عمليات اعتيادية. إن وضع سوريا العسكري صعب، والنظام مشغول بترتيب انتقال السلطة السلس لبشار الأسد، وعمليات فصل كبار المسؤولين ومحاكمتهم الذين قد يفكرون في منافسة المرشح الأثير بتهمة إساءة استعمال السلطة والفساد لا تسمح للنظام بخوض أي مغامرة عسكرية هي في الأساس مرفوضة من جانب النظام السوري.

إن أخطر وضع يمكن أن يحدث هو ما لم يتحدث عنه باراك خوفاً من مسارعة سوريا للموافقة، ماذا يحدث عندما تعلن سوريا أنها ستقوم بالانسحاب من لبنان بالتزامن مع انسحاب (إسرائيل) من جنوب لبنان لتعود الأوضاع إلى نقطة الصفر؛ حيث إن سوريا لن يكون لها ـ نظرياً ـ أي قدرة على التحكم بالتنظيمات اللبنانية.



الدور الغربي في الصراعات الإفريقية

حسن الرشيدي

«إننا خليط ثقافي، ثمرة تحول أوجده الغرب، لقد جاؤوا إلينا وقالوا لنا: سنستعمركم، اتركوا جانباً التنّورات وأوراق الشجر واستخدموا الترجال والبلوجينز ونظارات ريبان. ثم إذا بهم يغيِّرون رأيهم في منتصف الطريق ويقولون: أنتم مستقلون لقد قهرنا الرجل الأبيض. والآن بعد أن غيَّروا عاداتنا وثقافتنا ووضعوا لغتهم على لساننا يقولون إننا أبناء غير شرعيين لحضاراتهم!!!».

هذه مقولة أحد مثقفي دولة ساحل العاج يعبر فيها عن حالة الاغتراب التي يعيشها الأفارقة وتحياها إفريقيا وتبلغ معاناة إفريقيا ذروتها في الحروب التي يبدو أنها لا تنتهي في هذه القارة، فأصبحت تظهر كأنها مستودع للنزاعات لا تكاد تخبو حتى تنفجر مرة أخرى حاصدة الآلاف من الأرواح ومشردة الملايين من البشر.

فالدم ينزف في أنجولا وغينيا بيساو وسيراليون ويكاد ألاّ يتوقف في الكونغو، ولا زالت حروب القبائل في الصومال مشتعلة بين الحلفاء ـ أو قل العملاء ـ في إثيوبيا وأرتيريا. أما مذابح الجزائر فحدث عنها ولا حرج. وفي إحصائية حديثة «منذ بداية هذا العقد شهدت إفريقيا أكثر من مئة نزاع حدودي»[1] وتقول إحصاءات أخرى: «إن عدد الدول الإفريقية المتورطة الآن في معارك مباشرة قد وصل إلى نحو ١٢ دولة»[2] ولا يقتصر العدد على هؤلاء وحدهم؛ ذلك أن أعداداً أخرى من الحكومات الإفريقية مشاركة بصورة غير مباشرة، وهناك دول إفريقية تنتج السلاح وتبيعه للمتقاتلين، وهناك دول أخرى ينتقل السلاح عبر أراضيها وبرضاء حكوماتها، وهناك دول تقف بعيدة عن أتون الحرب ولكنها لا تنكر تعاطفها مع طرف أو آخر من المتحاربين ولا تخفيه، وهكذا فإن السحب السوداء توشك أن تغطي المدى الإفريقي بأكمله.

ولا شك أن العامل الاستعماري الغربي بأشكاله القديمة والحديثة له الدور الأكبر في إثارة هذه النزاعات وتجددها المستمر، هذا المكر الغربي تجاه إفريقيا هو جزء من عدائه وحقده العقدي والتاريخي

(١) التقييم الاستراتيجي، ص ٣٢٨، إصدار مؤسسة راند الأمريكية ـ ترجمة مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

(٢) الخليج الإماراتية، ٦/٣/١٩٩٩م.

على الإسلام؛ فلقد انتشر الإسلام في القارة الإفريقية انتشاراً واسعاً في شمالها وشرقها وغربها وفي أجزاء من وسطها وجنوبها، وبلغ انتشاره في القارة درجة أصبح معها المسلمون يشكلون نسباً كبيرة من السكان في جميع أنحائها؛ فهناك أغلبيات عظمى أو أغلبيات كبيرة وأقليات تتراوح بين نصف السكان وأقل من عُشْرهم في بعض البقاع، وكان لانتشار الإسلام ـ باعتباره ديناً وطريقاً للحياة ـ أثره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعوب القارة، كما كانت له قوته الثقافية والحضارية التي بها استطاع أن يوجد كياناً ويسهم في صنع جانب من الشخصية الإفريقية ويحقق فيما بين شعوب القارة بعضها مع بعض وبينها وبين غيرها خارج نطاق القارة صلات متعددة الجوانب.

إفريقيا في المنظور الغربي:

ينظر الفكر الغربي على وجه العموم إلى المجتمعات الإفريقية باعتبارها مجتمعات غريبة الشأن؛ فهي مضطربة ومثيرة للأطماع ومتخلفة ومخنوقة بالمجاعات والحروب الأهلية والجفاف وغارات الجراد والإيدز. فالإنسان الإفريقي في المفهوم الغربي «نشأ وتطور من الخلية الحية التي نشأت في البرك والمستنقعات»[1]، ويوضح فرانسوا بيار هذا الجنس بقوله: «لقد كان من المفهوم أن جنس السود نوع من البشر مختلف عنا؛ إنها بلاد الذهب المنغلقة على نفسها، بلاد الطفولة المغلفة بلون الليل الأسود قبل أن يبدأ نهار التاريخ الذي أدركه الوعي»[2] وهو طبعاً التاريخ الذي يصنعه الأوروبيون بجهودهم الكريمة كما كتب القبطان فاليه في عام ١٩٠٠م وهو في أغوار غابات الكونغو: «لا نجد هنا سوى الفوضى وسوء النية، وباختصار مجتمع لا يزال في عهد الطفولة بلا أي تنظيم وهو عبارة عن شتات من البشر يستحيل التعامل معهم، ويشلُّون جهودنا الكريمة بجمودهم»[3].

ويعترف جان فرانسوا بيار قائلاً: «إن الإحجام عن الاعتراف بالمجتمعات الإفريقية باعتبارها مجتمعات تاريخية وسياسية كاملة الأهلية يرتبط بإقدام الغرب على إخضاع أهلها ابتداءاً من النخاسة وحتى الاستعمار»[4].

وكان اللورد جونستون وهو من منظِّري الإمبراطورية البريطانية «يشك في أن يكون للأفارقة تاريخ قبل هجمات الغزاة الآسيويين والأوروبيين»[5].

باختصار: كانت المفاهيم الغربية بالنسبة للمجتمعات الإفريقية تدور حول عدة عناصر:

- افتقادها لتاريخيتها.
- بلاهة شعوبها ووحشيتها وهمجيتها.

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (إفريقيا)، ص ١٤، د. جمال عبد الهادي.

(٢) سوسيولوجية الدولة الإفريقية، ص ١٨، جان فرانسوابيار، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨.



- انعزالها عن بقية العالم وبعضها عن بعض.

ولكن هل ما يزال هذا المفهوم هو المسيطر على عقول الغربيين وخاصة الساسة منهم؟ بالطبع هؤلاء الساسة لا يصرحون بذلك؛ فطبيعة السياسة - وخاصة هذه الأيام - لا تدع للصراحة مجالاً؛ ولكن الأفعال هي التي تجعل الانطباع السائد أن الفكر الغربي لم يغير نظرته إلى الأفارقة، ويبدو هذا في تصرفات الساسة الغربيين.

مظاهر الدور الغربي في تأجيج النزاعات في إفريقيا:

لقد فعل الغرب بإفريقيا الأفاعيل واستغل شعوبها وثروتها أبشع استغلال، واستناداً إلى تقديرات كتاب (الزنجي) الصادر في نيويورك عام ١٩١٥م فإن تجارة الرقيق الأمريكية أدت إلى إزالة ستين مليون زنجي على الأقل من إفريقيا توفي منهم حوالي خمسين مليوناً قبل وصولهم إلى أمريكا»[١].

وتتجلى ممارسات الغرب الاستعمارية في إفريقيا - خاصة منها الذي يساعد على إثارة الخلافات - في ثلاثة مسارات:

أولاً: الصراع العرقي:

العرقية أو القبلية أو كما يسميها علماء الاجتماع (الإثنية) هي ظاهرة شديدة التعقيد؛ فهي تتميز بالتمركز حول النوع والوعي المشترك والإحساس بالهوية والانغلاق»[٢] وهي مثل أي ظاهرة في المجتمع ليست ثابتة بل يمكن أن تتغير شكلها وموقعها ودورها في حياة المجتمع؛ بل وربما تظهر عناصر جديدة في محتواها؛ ومن أهم خصائصها أنها «لا تتواجد في شكل نقي بل ترتبط وبشدة بالرؤى السياسية القانونية والاجتماعية الأخرى التي تشكل مكوناتها الضرورية»[٣].

لقد ظهرت القبلية لأول مرة على يد الاستعماريين؛ فهم أول من نشر هذا المنظور؛ إذ كان جزءاً من جهودهم لإخضاع إفريقيا المستعمرة، واحتلت القبلية موقعاً هاماً في الأيديولوجية العنصرية للاستعمار فقد صُوِّرت أمراً يتسم بالسحر والبدائية والبربرية تميز الإفريقي وينظر إليها رابطاً رئيساً بين الماضي الإفريقي اللاتاريخي البدائي البربري المزعوم الخالي من أي مبدأ إنساني من ناحية والمهمة الحضارية وعبء الرجل الأبيض الاستعماري من ناحية أخرى.

ولكن كيف افتعل الاستعمار هذا الصراع؟

«بدأ الاستعمار يقسم المجموعات الإفريقية اللغوية إلى قبائل لتسويغ هذه الرؤية العنصرية للأفارقة لينشأ بينها تفاوت في الثقافة ويروج فكرة أن الصراع فقط هو ما يميز التواصل بينهم ويتجلى امتداد هذه العنصرية في ميل المستعمر إلى اعتبار المجموعات اللغوية الإفريقية بعضها أعلى أو أدنى من بعض حسب تشابه تنظيمها الاجتماعي - السياسي لتنظيم المستعمر وتقدمهم في بلوغ مصائر المستعمر السياسية والاجتماعية»[٤].

ثم جاءت الخطوة الثانية «جمع الاستعمار

---

(١) الاستعمار الأمريكي في إفريقيا، ص ٢٧، ستيورات سميث، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، دار الثقافة الجديدة.

(٢، ٣) الصراع العرقي في إفريقيا، ص ٧، أوكواديا نولي، ترجمة عادل شعبان، مركز البحوث العربية.

(٤) المرجع السابق، ص ١٨، ٢٦.

مجموعات عرقية متباينة تحت إدارة سياسية واحدة، وفي بعض الحالات نجد مجموعة عرقية واحدة مقسمة إلى أقسام تديرها قوى استعمارية مختلفة أو منضوية تحت إدارات سياسية مختلفة بين قوة استعمارية واحدة»[1] وقد وضّح بايار دور المستعمر في صنع الصراع العرقي وإن لم يعتبره العامل الوحيد؛ فإن هناك عوامل أخرى أسهمت في هذا الصراع فقد «حرصت نظرة المستعمر على تصور الأوضاع البشرية التي يعوزها الوضوح على شكل هويات متميزة تخيلها وفق نموذج هابط (للدولة - الأمة) لعدم تصوره ما هو أفضل، وكان مفهوم الإدارة الفرنسية المعتادة على المركزية الإدارية مفهوماً قائماً بكل وضوح على تحديد المساحات؛ بينما كانت فكرة الحكم غير المباشر البريطانية أميل إلى النزعة الثقافية. وأياً كانت هذه الفروق فقد تم تنظيم الحكم الاستعماري حسب هذه التصورات، واتجهت النية لترتيب الواقع على هذا الأساس. وقد استخدم القهر لتثبيت الإقامة قسراً والتحكم في حركات الهجرة وتجميد الهويات العرقية بطريقة مفتعلة إلى حد أو آخر من خلال البطاقات الشخصية وجوازات السفر الداخلية»[2].

إن الصراع العرقي استخدم من قِبَل الغرب لإخضاع الشعوب، ولقد كان المحدِّد الرئيس لهذا السلوك الاستعماري هو رغبة المستعمرين في إخضاع الأفارقة، كما لعبت سياسة (فرِّق واحكم) دوراً هاماً في عملية الإخضاع هذه؛ فشجعوا المشاعر العرقية بين الأفارقة، واستغلوا كل فرصة متاحة لنشر اسطورة تمايزهم.

تأخذ القبلية في إفريقيا أشكالاً عدة:

- يغالي القبلي باستمرار في صفات رجال قبيلته وعشيرته وأعمالهم ويفاخر بها، وعلى العكس فإنه ينكر عيوبهم، ويحاول التستر عليها باستمرار؛ وموقفه من القبائل الأخرى هو عكس ذلك تماماً.
- يمارس القبلي المحسوبية بالنسبة لأفراد قبيلته في توزيع المزايا المادية وإسناد كافة المناصب المسؤولة إليهم.
- يعتقد القبلي أن مَنْ هم ليسوا من أفراد قبيلته وعشيرته لا يستحقون مساعدته.
- ويتمادى بعضهم في القبلية إلى حد الاعتراض على الزواج بين القبائل وإلى تفضيل الزواج بين البيض والسود عليه.
- ويتمثل الشكل الأقصى للقبلية على الصعيد السياسي في المطالبة بتأسيس جمهوريات ذات استقلال مزعوم ولكن على أساس قبلي، وإذا لم يتيسر ذلك الحل تتم المطالبة باتحاد فيدرالي واستقلال ذاتي إقليمي على أن تتم تجزئة السلطة السياسية والإدارية في إطار طبقي.

كذلك كان للمبشرين البروتستانت الذين قدموا مع الاستعمار دور في إثارة صراع الأعراق فقد «ساعد المبشرون خاصة البروتستانت منهم على تنميط لغات إقليمية ونشرها عن طريق التعليم وترجمة الكتاب (المقدس) وتكوين نخب محلية رفيعة المستوى. ومن أشهر هؤلاء: الأب جونسون في بلاد اليوروبا، والقس كاجام في رواندا»[3] ويقول

(١) المرجع السابق، ص ١٨، ٢٦.

(٢) الصراع العرقي في إفريقيا، ص ٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٥.

الشيخ عيسى جيسيسي مفتي رواندا: «القبيلتان المتناحرتان (التوتسي والهوتو) يعود أصلهما إلى أسرة واحدة؛ إلا أن الاستعمار استطاع أن يخلق جواً من التوتر بينهما، وأصبحت كلتا القبيلتين في صراع محتدم للوصول إلى السيطرة على البلاد، وكان للكنيسة دور أساس في إشعال نار الفتنة بين القبيلتين كلما أوشكت أن تهدأ، وكانت تبذل كل ما يمكن لقتل المزيد من الناس. أما عن موقف المسلمين من هذا التناحر والصراع فهو موقف مشرف؛ فقد التزموا الحياد ولم يسببوا أي توتر بين القبيلتين حتى إن الحكومة الحالية قامت بجمع تقارير عن سبب الفتنة، فأبرزت أنه لا يوجد مسلم واحد متورط في هذه الفتنة مما دفع رئيس الجمهورية ومعه نائبه معلنين أمام حشود كبيرة من الناس أن المسلمين لهم دور كبير في إخماد نار الفتنة التي أشعلتها الكنيسة حتى إن رئيس الدولة أمسك بيديه القرآن الكريم وقال للناس: إن هذا الكتاب هو الذي منع المسلمين أن يتدخلوا في الصراعات التي حدثت، وإن ما دعاهم لذلك هو الدين السمح الذي يعتنقونه»[1] ويعترف أحد علماء الاجتماع الفرنسيين المعاصرين بأثر الإسلام في تجانس الأعراق وتوحدها فيقول: «إن الحركات الثقافية الكبرى التي انتشرت في القارة قبل الاستعمار تتجاوز الأعراق ومنها الإسلام»[2] ويقول آخر عن قبائل كوتوكو التي تعيش في غانا: «بفضل الإسلام الذي اعتنقوه توحدوا برغم العناصر المتباينة بينهم»[3].

لقد تغلغلت فكرة التقسيم العرقي التي ابتدعها المستعمر حتى بات كثير من الأفارقة يتقبلونها ظناً منهم أنها الأصل، وأضحت العرقية المعاصرة قناة يتحقق من خلالها التباري من أجل الحصول على الثروة والمركز. وتستفيد المجموعة العرقية لحزب الطبقة الحاكمة من الامتيازات والاستثناءات، وتغدو الجماهير الضحية الحقيقية لهذا الاستقلال السياسي وما يصاحبه من تميز إثني وعرقي.

ثانياً: إيجاد الصفوة المختارة:

أوجد الغرب - قبل أن يرحل - فئةً من الشباب الإفريقي تلقوا تعليمهم في مدارس وجامعات غربية وتربَّوا على مناهج الغرب فكانوا صنيعته في إفريقيا، وساهمت الإرساليات التبشيرية الأوروبية في هذا المخطط «ففي أوغندا ظل التعليم حتى عام ١٩٢٥م تتولاه الكنائس، وفي غرب إفريقيا ٥٥٧ مدرسة تعينها الحكومة مالياً منها ٥٢١ مدرسة تشرف عليها أو تديرها البعثات التبشيرية؛ وذلك بخلاف ٢١٧٥ مدرسة غير معانة معظمها تمولها هيئات التبشير المختلفة. وفي الكونغو تسيطر الكنيسة الكاثوليكية على نسبة ٨٠٪ من التعليم، وفي هذه المدارس تلقَّى التعليمَ القادةُ الذين برزوا في الحركات التي خلفت الاستعمار مثل نكروما ولومومبا وسيكوتوري ونيريري وغيرهم»[4]

---

(١) مجلة الفرقان الكويتية، فبراير ١٩٩٩م.

(٢) الصراع العرقي في إفريقيا، ص ٧١.

(٣) المرجع السابق، ص ١١.

(٤) مشكلات القارة الإفريقية السياسية والاقتصادية، ص ٣٠، د. راشد البراوي.

والجامعة الإفريقية في أوغندا التي يشرف عليها البريطانيون تخرج منها أفورقي وزيناوي وموسيفيني وجارانج[1]، وعمدت كل دولة غربية إلى تهيئة الظروف أمام هذه النوعية لتتمكن من أخذ زمام الأمور بيدها «لقد عمد البرتغاليون إلى خلق فئة من أهل المستعمرات وثيقة الصلة بالبرتغال وموالية لها؛ وطبقاً لهذه الفكرة يمكن للإفريقي أن يندمج إذا استوفى شروطاً معينة مثل معرفة القراءة والكتابة باللغة البرتغالية، واعتناق المسيحية، والاستعداد لنبذ بعض العادات السائدة كتعدد الزوجات. وهذه الطبقة من المتطورين التي أطلق عليها (الطبقة المختارة) أريد منها أن تعرقل سير الحركة الوطنية[2]، وطبقاً لهذه الفلسفة فإن الفرد لن يتمتع بحقوق متساوية، وسوف يرغم أغلبية الأفراد لزمن غير محدود في المستقبل على الخضوع لأقلية تحمي امتيازاتها الخاصة.

لقد استخدم الاستعمار على نطاق واسع وسطاء من سكان البلاد الأصليين الذين استغلوا امتيازاتهم فرصة للإثراء من خلال عملهم معاونين للإدارة، وهكذا أصبح الفساد أحد تروس جهاز الحكم غير المباشر.

ولم يغادر الاستعمار الدول الإفريقية إلا بعد أن وضع على رأس الحكم مجموعات أو طبقة موالية له تتكون من الأفراد الذين كانوا وسطاء بين الاحتلال والأهالي؛ ففي رسالة بعث بها أعضاء من الحركة الوطنية في الكونغو إلى رؤسائهم في الحزب الحاكم: «نحن أصحاب الفضل في الحركة الوطنية الكونغولية بتنا أشبه بالكلاب وسيدها؛ ففي الصباح الباكر يذهب الكلب مع سيده إلى الغابة للبحث عن صيد والكلب مستعد دائماً لالتقاط الصيد وإحضاره للسيد... وفي المساء يعودان للقرية لأكل الصيد، وعندما يُطهى اللحم يوضع في الطبق ويبدأ السيد بطرد الكلب قبل أن يبدأ الأكل مع أن الكلب هو الذي أحضر اللحم؛ ونحن أيضاً حاربنا للمطالبة بالاستقلال؛ وكثيراً ما كانوا يدبرون المؤامرات (يقصد زعماء الحزب) مع المستعمرين لإلقاء القبض على مناضلي الحركة الوطنية الكونغولية، وهم حتى الآن جالسون فوق كافة المقاعد ولا يزالون يواصلون إلقاء القبض علينا لكي يضعوا حداً لنشاطنا»[3].

لقد أصبح المركز في السلطة موقعاً للنهب، ويلجأ القائمون على هذه السلطات إلى احتكارهم للقوة الشرعية للمطالبة بمنتجات وإتاوات وخدمات «ففي شمال الكاميرون مثلاً فرضت على القرويين غرامة قدرها ٦٠ نايرا (عملة محلية) بسبب سرقة جرس دراجة، وثمن هذا الجرس يعادل ٥ نايرا في السوق، والنايرا يتمكن من إطعام شخص بالغ طوال اليوم، ومن المفروغ منه بالطبع أن رئيس الناحية احتفظ لنفسه بكل بساطة بمبلغ الغرامة»[4].

وهناك نوع آخر من النهب أشد خفاءً يرجع إلى علاقات أصحاب المراكز في السلطة في المدن مع أوساط الإجرام «ففي كينيا نسبت موجة من

---

(١) الأسبوع، ٢٠/١٢/١٩٩٧م.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٣، ٤) مرجع سابق، ص ١١٢.



عمليات السطو مع استخدام القوة إلى بعض رجال السياسة، كما تورط رأس السلطة في زامبيا وهو رئيس الجمهورية في مختلف عمليات التهريب ومنها تهريب المخدرات» كما يعطي المركز في السلطة الفرصة للحصول على الرشاوي تحت مسميات عديدة؛ فنجد في الكونغو (زائير سابقاً) أغنى هذه المسميات فتسمى الرشوة : «شيء بسيط - حافز - مظروف - لزوم آخر الشهر - التفاهم - حق الدخان - الأخذ والعطاء - التوصل إلى حل زائيري؛ وجميعها تعبيرات للإشارة إلى المتاجرة في الأختام والتوصيات وقرارات التعيين»[1].

كذلك يمتد الفساد ويتشعب مع الخارج «فقد اتهمت شركة فرنسية بدفع ١٠,٧٩ مليون نايرا داخل نيجيريا لحساب الحزب الحاكم هناك وذلك من أجل عقود يبلغ إجمالي قيمتها ٧٤٦ مليون نايرا» كما تطبق الحكومات الإفريقية نظاماً للجمارك يدعو للسخرية «فلقد فرض حسين حبري عام ١٩٨٣م في تشاد رسوماً على المعدات العسكرية الفرنسية التي كان يلح في المطالبة بها، وأقدمت سلطات موزامبيق على فرض جمارك على التوابيت التي كان سيشيّع فيها جنازة الرئيس سامورا ميشيل وأصحابه في كارثة الطائرة التي سقطت بهم»[2].

لقد سلم الغرب إلى هؤلاء السلطة بعد أن أفسدوا الضمائر وخربوا العقائد وأشاعوا الفساد في جميع جنبات الحياة؛ فكان هؤلاء المفسدون ثمرة تربيتهم وخططهم الخبيثة، وعانت إفريقيا، ولا يزال يعاني أهلها من الظلم والاستبداد والفساد.

ثالثاً: اللعبة الأمريكية:

منذ بداية التسعينيات نزع عدد من الزعماء الأفارقة إلى التعامل مباشرة مع الولايات المتحدة بصفتها القطب الأوحد في عالم اليوم، وتقديم خدمات لمصالحها المباشرة وغير المباشرة في المنطقة، والمساهمة في الجهود الأمريكية الخاصة بإعادة هيكلة القارة الإفريقية، وإقامة حلف أمني وعسكري معها متمثل في دفع المبادرة الخاصة بإنشاء قوة حفظ سلام إفريقية تتبناها بجانب الولايات المتحدة كل من فرنسا وبريطانيا عبر تقديم السلاح والتدريب والاستشارات الفنية، والتأكيد على أن هذه القناة هي المؤهلة فقط لإمدادات السلاح الأمريكي للدول الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء. والمعروف أنه برغم عدم موافقة منظمة الوحدة الإفريقية على هذه المبادرة فقد تمت مرحلتها الأولى «حيث أنهى الأمريكيون تدريبات للجيشين الأوغندي والسنغالي في سبتمبر ١٩٩٧م، وأشرف البريطانيون في إبريل ١٩٩٧م على تدريبات في زيمبابوي لقوات من ٨ دول إفريقية تنتمي إلى مجموعة الكومنولث في حين تقوم فرنسا بإنشاء قاعدة للتدريبات العسكرية في ساحل العاج»[3].

إن السياسة الأمريكية تتوجه إلى قادة الدول الإفريقية وتهتم بالأشخاص لاعتبارات تتعلق بمدى قربهم من وجهات النظر الأمريكية أكثر من كونهم قادة متمسكين بسياسات انفتاحية أو بعيدة الصلة عن الفساد في بلدانهم؛ فدولٌ مثل أوغندا وغانا ورواندا تفتقر إلى الحد الأدنى من الحريات

(١ ، ٢) مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣) الأهرام، ٣/٥/١٩٩٨م.



السياسية، وقادتها محاطون بنخب ليست بعيدة عن التورط المباشر في الفساد، ومع ذلك فهم موضع اهتمام أمريكي لاعتبارات أمنية واستراتيجية.

وفي أثناء زيارة كلينتون الأخيرة إلى إفريقيا ترددت عبارة على لسانه قبل الزيارة وأثناءها وبعدها: «إنه باسم الولايات المتحدة سوف نقدم مظلة الحماية لكل إفريقيا»[1] وقد أثارت هذه الجملة الكثير من الشكوك التي أحاطت بحقيقة النيات الأمريكية الكامنة وراء الانقلاب الذي حدث في السياسة الأمريكية تجاه إفريقيا، وقد بلغت هذه الشكوك حد الحديث عن عودة للاستعمار ولكن في ثوب جديد وبأسلوب متطور يتفق مع سمات العصر وتوجهات النظام العالمي الجديد.

والواقع أن الحديث عن محاولات الهيمنة الأمريكية لم يأت من فراغ؛ فهو يمثل امتداداً طبيعياً للسياسات الأمريكية المنفَّذة حالياً في كثير من مناطق كثيرة من العالم سواء في آسيا أو أوروبا أو الشرق الأوسط، والغريب أن يعلن كلينتون عن هذه المظلة دون أن يطلب منه أحد من قادتها هذه الحماية ثم يتحدث عن الاستقلال الكامل والحرية المطلقة للدول الإفريقية؛ ومثل هذا القول قد اعتبرته العديد من الدوائر الإفريقية أنه يعني استبدال الحماية الفرنسية البريطانية الاقتصادية على العديد من دول القارة بالحماية الأمريكية. لقد تركزت السياسة الأمريكية على فتح أبواب القارة أمام الاستثمارات الأمريكية وفتح أسواقها الضخمة أمام السلع الأمريكية.

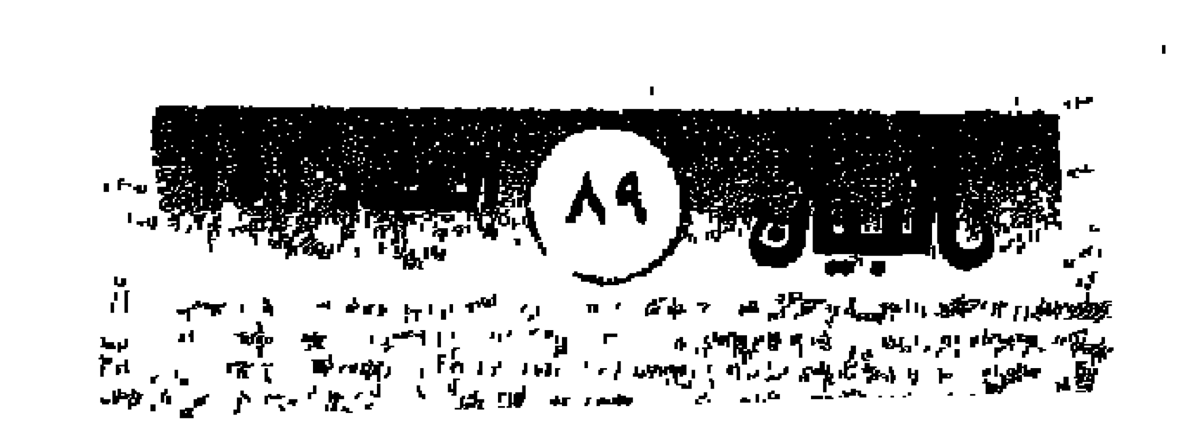
أما الحديث عن حقوق الإنسان والديمقراطية فهما وسيلتان للضغط على الدول الإفريقية بوصفهما ورقة مساومة عند اللزوم وفي الوقت نفسه تغطية لأهداف التدخل الأمريكية في الشؤون الداخلية للدول الإفريقية وتكريس الزعامة الأمريكية عالمياً.

هذا النفوذ الأمريكي المتعاظم استتبعه زيادة حدة الصراع في القارة المتمثل في:

- التنافس على السيادة الإقليمية ولقب شرطي المنطقة ولعل النموذج الإرتيري الأثيوبي خير شاهد على ذلك وما تلاه من حرب ضروس وهلاك الحرث والنسل بين أكثر حلفاء أمريكا في القارة: أفورقي، وزيناوي.
- زيادة حدة المذابح؛ وأوضح مثال على ذلك منطقة البحيرات العظمى نتيجة دعم قبيلة أو نخبة ضد أخرى مما أطال أمد الحرب بين موبوتو وكابيلا ثم بين كابيلا نفسه والمتمردين التوتسي.
- الحرب على الإسلام وخاصة في السودان، ولولا دول الحزام المسيحي المحيط به الداعم لتمرد جارانج لانتهى تمرده من فترة طويلة.

ومنذ عشرات السنين والكتب تنشر، والشعر يُلقى، والقصص تُروى عن نضال إفريقيا وكفاح شعوبها ضد الاستعمار ورموزه وأدواته، وعن المارد الذي كسر الأغلال، وحطم القُمْقُم، وتحرر من الرق والاستبداد؛ فهل يجيء اليوم الذي يصبح فيه هذا الحلم حقيقة؟

(١) الأهرام، ٢٠/٥/١٩٩٩م.



مسلمو شبه جزيرة القرم
صورة عن قرب

مبارك عبد اللطيف

معلومات أساسية:

جمهورية القرم: هي جمهورية ذات حكم ذاتي، وداخلة في تكوين جمهورية أوكرانيا. وتقع شبه جزيرة القرم في الجزء الجنوبي لأوكرانيا.

عاصمتها: سيمفيروبل.

السكان: ٢,٤٠٠,٠٠٠ نسمة. (الروس ٥٥٪، الأوكران ٣٠٪، التتار ١٢٪).

تاريخ القرم وتتار القرم:

كل الدراسات والأبحاث العلمية المتعلقة بشبه جزيرة القرم تؤكد أن هذه المنطقة ذات المناخ المعتدل وطبيعتها المميزة كانت من أول المناطق الصالحة لحياة الإنسان، وأن أول من سكنوها هم التتار والمغول والأتراك. أما السكان الأصليون لشبه جزيرة القرم فهم التتار وهم خليط من سكان المناطق الجبلية كريمسي (وهم السكان الأصليون)، اسكيفي، قوتي، الإغريق، سارماتي والمناطق الشمالية (كبشاكي - أتراك). وفيما يتعلق باللغات التي كانت سائدة في شبه جزيرة القرم فنجد أنه لكل قومية لغتها الخاصة بها، ولكن نمو العلاقات وتطورها في مجالات التجارة والاقتصاد أدى إلى ظهور لغة موحدة هي اللغة التركية التي أصبحت اللغة السائدة التي يتحدث بها الجميع في شبه جزيرة القرم التي كانت في ذلك الحين تعد مركزاً كبيراً للتجارة والاقتصاد.

دخول الإسلام إلى أوكرانيا والقرم:

الإسلام يعتبر الديانة الثانية بعد المسيحية (أرثوذكس). أما دخول الإسلام إلى أوكرانيا والقرم وتعرُّف شعب أوكرانيا والقرم على الإسلام فإنه يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر الميلادي عن طريق الرحالة والتجار المسلمين الذين كانوا يصلون إلى مدينة كييف عاصمة دولة روس الأوكرانية والقرم محملين بالبضائع المختلفة؛ وهذا ما تثبته المراجع والعملات النقدية التي عثر عليها مصكوكة بأحرف عربية يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي. أما البداية الحقيقية لدخول الإسلام إلى القرم فكانت متمثلة في اعتناق (بركة خان) أمير القبيلة الذهبية في القرم للإسلام في عام ١٢٦٧م. هذا العام يعتبر بداية لمرحلة جديدة في انتشار الإسلام في شبه جزيرة القرم وخروج الإسلام من مرحلة الانتشار عن طريق الأفراد إلى

مرحلة أخرى تدعمها السلطة، ولقد أسس الأمير بركة خان دولة إسلامية امتدت من حوض الفولجا وحتى شبه جزيرة القرم؛ حيث كانت عاصمتها مدينة بخشيساراي (حديقة الزهور).

السيطرة الروسية:

أما عن وضع المسلمين بعد أن تمت لروسيا السيطرة الكاملة عام ١٨٧٣م على القرم فلم يزدد إلا سوءاً، وأصبحت أمامهم خيارات الهجرة والإبعاد أو ترك دينهم واعتناق المسيحية. بدأت السلطات الروسية حملات التطهير العرقي والديني لمسلمي القرم؛ حيث قامت السلطات بإغلاق المدارس والمساجد، ومصادرة الأوقاف، ومطاردة المسلمين وملاحقتهم وإجبارهم على مغادرة موطنهم القرم، وقامت بإبعاد الأئمة والمعلمين وترحيلهم إلى المدن الروسية وإجبار أبناء المسلمين في الخدمة العسكرية على أكل لحم الخنزير وكل ما هو محرم من طعام وشراب.

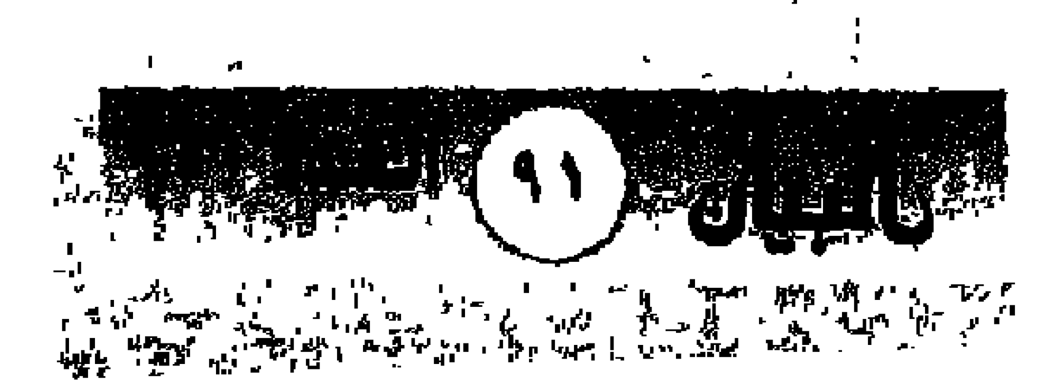
نتيجة لهذه السياسات القمعية والإرهابية اضطر كثير من المسلمين إلى الهجرة من موطنهم القرم، فهاجر إلى تركيا تقريباً أربعة ملايين مسلم هرباً من سياسات القمع الروسية، أما الذين لم يتمكنوا من الهجرة فتم ترحيلهم إلى مدن روسيا المختلفة لتذويبهم في المجتمع الروسي، وكان كل من يتم إبعاده أو طرده من القرم يفقد حق العودة إلى القرم مرة أخرى.

من الواضح أن السلطات ركزت في المقام الأول ـ وبشدة ـ على إبعاد المسلمين عن دينهم ووطنهم، وثانياً على طمس معالم الحضارة الإسلامية وإزالة كل شيء له علاقة بالإسلام من أرض القرم؛ ففي عام ١٨٣٣م قامت السلطات بالاستيلاء على المكتبات وهدمها وحرق الكتب الإسلامية وإبادتها. أما المساجد فأكثر من ٩٠٠ مسجد تم هدمها وتحويلها إلى مجالات أخرى؛ وحتى الآن توجد في كثير من قرى القرم معالم لتلك المساجد تقف شاهداً ودليلاً. لم تكتف السلطات بما فعلته في المساجد والمدارس بل وصلت يدها إلى مقابر المسلمين التي تم نبشها والعبث بها، وسُرقت الحجارة منها لاستخدامها مواد للبناء.

وهكذا سارت حياة المسلمين على هذا النمط حتى قيام الثورة الاشتراكية الشيوعية في أكتوبر ١٩١٧م لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام والمسلمين في القرم.

تتار القرم في ظل ثورة أكتوبر الاشتراكية الشيوعية وقيام الاتحاد السوفييتي:

لم يُخفِ البلاشفة منذ الأيام الأولى لثورة أكتوبر الاشتراكية في ١٩١٧م عداءهم ومحاربتهم لتتار القرم؛ حيث قاموا منذ الأيام الأولى للثورة بأعمال إرهابية ضد التتار، وعندما قام التتار برفض تلك الأعمال الإرهابية وإدانتها أغضب ذلك البلاشفة، وقاموا بحرب شعواء واسعة النطاق ضد التتار في القرم واصفين القرم بأنهم بؤرة الرأسمالية والتجسس، وكانت نتيجة ذلك حمامات دماء وحرق جماعي وقتل بالرصاص وبالتجويع وبالتعذيب أودى ذلك بحياة أكثر من ٦٠٠٠٠ تتري (ستين ألفاً)، وفي عهد ستالين ازداد الحال سوءاً؛ حيث أعدم بالرصاص حوالي ٣٥٠٠ تتري (ثلاثة آلاف وخمسمائة) من المثقفين وعلماء الدين، وكذلك عشرات الآلاف من الشباب ورجال الأعمال الذين رفضوا الاتحاد مع المزارع الحكومية. في سنة ١٩٢٩م تم إبدال أحرف اللغة التترية بأحرف لاتينية، وتم إبعاد أي مطبوعات باللغة التترية من كتب وغيرها عن المكتبات الحكومية، وكذلك قاموا بنزع كل الكتب والجرائد وكل ما يمت إلى اللغة التترية بصلة وحرقوه وأصدروا قانوناً يمنع حفظ أي مطبوعات باللغة لها علاقة بالتترية.



الحرب العالمية الثانية:

بحلول عام ١٩٤١م قل عدد تتار القرم ووصل تقريباً إلى ربع مليون نسمة، وعند قيام الحرب العالمية الثانية تم تجنيد ٦٠٠٠ تتري في الجيش الأحمر. عندما وصل الألمان إلى القرم سعوا إلى تمكين وجودهم في القرم وقاموا بترحيل حوالي ٨٥٠٠٠ تتري إلى معسكرات حول برلين للاستفادة منهم أيدي عاملةً، مما دفع التتار إلى مقاومة الألمان باللجوء إلى حرب العصابات وتكوين مجموعات فدائية أدت إلى إزعاج الألمان الذين قاموا بأعمال انتقامية ضد التتار؛ حيث قاموا بالقتل وحرق ٥٢ قرية بسكانها. والحقيقة التي لا بد من ذكرها هي أن حوالي ألفين من سكان القرم تعاونوا مع الألمان ومن بينهم تتار؛ إلا أن عدد التتار ما كان يصل إلى الحد الذي يمكن أن يوصفوا فيه بالعمالة؛ فقد تعاون مع الألمان كذلك روس وأوكران بأعداد أكبر من التتار.

كارثة ثقافية وأخرى إنسانية:

لم تُخفِ الثورة الاشتراكية منذ لحظة قيامها محاربتها وعداءها للأديان وبالأخص للإسلام والمسلمين؛ فلقد شهدت العشرينيات والثلاثينيات حرباً شعواء واسعة النطاق ضد الدين والمتدينين على حدود الاتحاد السوفييتي سابقاً، وكانت مطرقة النظام موجهة وبقوة ضد مسلمي أوكرانيا والقرم على وجه الخصوص وهو ما أثّر تأثيراً مباشراً على المسلمين وعلى حياتهم الدينية. قام النظام في القرم وبصورة واسعة وبقسوة متناهية بإغلاق المساجد والمدارس الإسلامية والمكتبات الدينية والقبض على الزعماء الإسلاميين وتعذيبهم في السجون، وكانت الدعاية البلشفية تربط وبصورة مباشرة بين التوجه الإسلامي وعدم الوعي الاشتراكي والخرافة البورجوازية. وتحت ضغط السياسة الاشتراكية ومحاربتها للإسلام بَعُدَ المسلمون شيئاً فشيئاً عن دينهم ودين أجدادهم، أما ذوو العزيمة والإيمان الصادق الذين ثبتوا على دينهم فإنهم عاشوا ـ وبصورة دائمة ـ في خوف واضطهاد. وبصورة واضحة وعلنية ودعائية كان يقوم النظام بوضع الحواجز في طريق العمل المنظم للجمعيات الإسلامية، وفي نهاية الثلاثينيات تم إبطال أي نشاط إسلامي وإعدام كل القيادات الإسلامية تقريباً ونفيها بحجج واهية كقيادتهم لجماعات وحركات عنصرية؛ وذلك لتسويغ الأعمال الوحشية وغير الإنسانية تجاه القيادات الإسلامية.

هكذا كانت حياة تتار القرم مقبوضاً عليها بيد من حديد حتى بداية الستينيات عندما رُدَّ إليهم اعتبارهم في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي بإدانة أعمال ستالين الوحشية التي ارتكبها ضد التتار بتهجيرهم من وطنهم الأصلي القرم. رغم الصعاب الكثيرة التي كانت تعترض طريق التتار المتمثلة في فقدانهم لوطنهم وممتلكاتهم وسيطرة الروس والأوكران الذين حلوا مكانهم عليها لم ييأس التتار من مواصلة صراعهم من أجل الحياة والرجوع إلى وطنهم الأم القرم؛ حيث قاموا بتجميع صفوفهم وتنظيمها وتأسيس الحركة القومية لتحرير القرم التي ترأسها (مصطفى جميلوف) وقامت في المدن والقرى في القرم حملات توعية وسط السكان لشرح أهداف الحركة الوطنية وإمكانية اتحاد الحركة مع الحركات الديمقراطية والدينية التي كانت تقاوم النظام، كما تم إرسال ممثلين إلى موسكو لمقابلة رؤساء الكريملين وتسليمهم رسائل حول مشاكل التتار وعودتهن إلى وطنهم الأصلي في القرم، وقامت الحركة بإرسال المعلومات والوثائق والأخبار والخطابات إلى الجميع عن طريق البريد والإذاعات مثل صوت أمريكا وهيئة الإذاعة البريطانية وراديو الحرية وموجة ألمانيا وراديو كندا؛

وهذا شكّل بدوره ضربة كبيرة للشيوعية التي كانت تتبجح بالمساواة بين جميع البشر.

بعد هذه الأحداث قامت السلطات بإعفاء أعضاء الحركة من العمل الحكومي ثم محاكمتهم وسجن بعضهم. وفي يونيو ١٩٦٩م خرجت مجموعة من التتار في مظاهرة إلى إحدى الساحات المركزية في موسكو مطالبين بإطلاق سراح (بيتر قريقورينكا) الذي دافع عن حقوق تتار القرم، وكان ذلك في يوم لقاء رؤساء الأحزاب الشيوعية للدول الشيوعية الصديقة، ولقد تمكن المتظاهرون التتار من توزيع بعض المنشورات والأوراق عن تتار القرم ومشاكلهم وعن (بيتر قريقورينكا) إلا أن المظاهرة لم تستمر أكثر من ست دقائق؛ حيث قامت الشرطة مع جهاز الأمن بتفريق المتظاهرين.

ورغم أن مجلس السوفييت الأعلى في سنة ١٩٦٧م أصدر قراراً يعطي تتار القرم حق السكن في أي مكان في الاتحاد السوفييتي إلا أن هذا كان مجرد قرار. أما الواقع فكان يقول إن من حق التتار السكن في أي مكان في الاتحاد السوفييتي ما عدا القرم؛ فقد كانت أراضيه محرمة عليهم، وحتى بعد أن بدأت تهب رياح الحرية والديمقراطية عادت إلى القرم مئات الأسر، ولكنهم في القرم فوجئوا بالرفض لعودتهم ومنعهم من السكن والحصول على قطع سكنية وطردهم مرة أخرى من وطنهم بحجج واهية مثل عدم الإقامة والتسجيل، وعدم قانونية البيع والشراء في مجال الأراضي. بهذه الأسباب تم طرد أكثر من عشرة آلاف منهم. وصاحب حالات الطرد الأخيرة مآسٍ كثيرة بعد أن فقدوا كل شيء في حياتهم من أجل الوصول إلى وطنهم القرم؛ ولكن عندما وُوجِهوا بالرفض لرجوعهم دخل بعضهم في اشتباك مع السلطات التي زجت ببعضهم في السجون التي توفي فيها الكثيرون، وآخرون قاموا بالانتحار وحرق أنفسهم في مناطق عامة احتجاجاً على سياسات الدولة ضدهم.

تتار القرم في ظل أوكرانيا المستقلة:

المجلس التتري:

لقد بدأ الظهور الفعلي للتتار في الحياة السياسية وممارسة حرياتهم والمطالبة بحقوقهم في ١٩٩١م عندما أعلنت أوكرانيا استقلالها. وفي مدينة سيمفيروبل يوم ٢٦/٢/١٩٩١م تم عقد مؤتمر عام لكل التتار بالقرى (قارورتاي) وحضر المؤتمر وفود من عدد من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، وفي المؤتمر تم تكوين المجلس التتري ممثلاً وحيداً للشعب التتري، وتم انتخاب (مصطفى جميلوف) رئيساً للمجلس التتري و (رفعت شوباروف) نائباً لرئيس المجلس. وقد التف حول المجلس التتري جميع التتار وأصبح الجهة الوحيدة التي تمثلهم على الصعيد السياسي. هذا ويقود المجلس التتري منذ تأسيسه نضالاً متواصلاً للحصول على المزيد من الحقوق والمكاسب للشعب التتري، ويسعى المجلس كذلك للمشاركة في الحكومة باعتباره الممثل الشرعي للشعب التتري صاحب الحق والشرعية في شبه جزيرة القرم؛ إلا أن الحكومة حتى الآن تعترف به حزباً سياسياً لا غير، وأعطت المجلس التتري في الانتخابات البرلمانية في القرم لعام ١٩٩٤م مقعداً في برلمان شبه جزيرة القرم من جملة ٩٤ مقعداً من غير انتخاب. وبينما المجلس التتري يسعى جاهداً لزيادة عدد المقاعد إلى الحد الذي يمكنه من التأثير في اتخاذ القرارات قامت الحكومة بسحب الـ ١٤ مقعداً من المجلس التتري وطالبت المجلس التتري بخوض الانتخابات البرلمانية في عام ١٩٩٨م كبقية الأحزاب الأخرى، ولقد خاض المجلس التتري الانتخابات كبقية الأحزاب إلا أنه لم يحصل على أي مقاعد في

البرلمان؛ وذلك لأن أغلبية التتار لم يشاركوا في الانتخابات لعدم وجود الجنسية الأوكرانية.

وللمجلس التتري دور كبير في حياة التتار السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية؛ ففي المجال السياسي ما زال المجلس يقود نضالاً متواصلاً للحصول على المزيد من الحقوق والمكاسب للشعب التتري.

وفي المجال الاقتصادي نجد المجلس في سعي دائم مع الحكومة لتوفير أماكن عمل للتتار وتسويق مشاريع في القرم وخارج القرم لدعم الأسر الفقيرة، كما يسعى جاهداً لجذب الاستثمارات الخارجية وخاصة من العالم العربي والإسلامي لتحسين الوضع الاقتصادي للتتار، وكذلك لفت أنظار العالم العربي والإسلامي لمشاكل التتار الأخرى المتمثلة في السكن والتعليم والعلاج والخدمات العامة من ماء وكهرباء وغاز وغيرها وكذلك الجانب الخيري والإنساني.

وفي المجالات الاجتماعية والثقافية نجد أن للمجلس مؤسساته الاجتماعية والثقافية بين التتار التي لها خططها وعملها ونشاطاتها المتمثلة في التوعية والتربية الوطنية، والاهتمام بالمواهب وإعداد الكوادر التنظيمية، والمحافظة على العادات والتقاليد، وعرض الوجه الحضاري والثقافي للتتار على مستوى القرم وأوكرانيا والعالم أجمع، وفي المجال الإعلامي يمتلك التتار قناة للبث التلفزيوني لساعات معينة يومياً، وبرامج إذاعية في عدد من الإذاعات، وكذلك هنالك عدد من الجرائد التي يصدرها التتار باللغتين التترية والروسية.

هذا ورغم الجهود المبذولة من جانب المجلس التتري في الحلول المناسبة لمشاكل التتار إلا أنه ما زالت هناك عدد من المشاكل ذات الأهمية الكبيرة التي لا بد من تضافر الجهود مع المجلس التتري وخاصة من جانب العالم العربي والإسلامي لإيجاد الحل المناسب لها، وهذه المشاكل تتمثل في إيجاد أماكن عمل للتتار وخاصة لحاملي الشهادات العليا والجامعية. والذي يعتبر من المشاكل التي تتطلب تدخلاً سريعاً هو توفير فرص للتعليم في القرم وخارجه وخاصة بالنسبة للتعليم الجامعي وبناء المدارس واللغة التترية، والعلاج وبناء المستشفيات، ومشاريع صغيرة لدعم الأسر ذات الدخل المحدود. وكما ذكرنا فإن هذه المشاكل تتطلب تضافر الجهود؛ ولذا فسوف نتطرق لها بالتفصيل.

الإدارة الدينية لمسلمي القرم:

لم يستطع المسلمون ممارسة شعائرهم الدينية بحرية إلا بعد أن أعلنت أوكرانيا استقلالها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وتفككه. لقد وعت أوكرانيا المستقلة الخطأ الكبير الذي ارتكبه النظام الشيوعي في محاربة الأديان، ولذلك لم تعطِ شعبها فقط حرية الدين والعبادة بل أعطت كل الديانات الحق في استرجاع كل المباني والممتلكات التي سلبها منها النظام الشيوعي. بدأ مسلمو القرم في تجميع صفوفهم والعودة إلى دينهم الإسلامي، والتنسيق فيما بينهم، والاستفادة من خبرات إخوانهم في جمهورية روسيا الاتحادية لتوحيد كلمة المسلمين وضم صفوفهم والعودة بهم إلى تعاليم الدين الإسلامي، وفي هذه الفترة وجدوا مساعدة كبيرة وتعاوناً تاماً من جانب المؤسسات الإسلامية والخيرية وطلبة الجامعات والدراسات العليا من الدول العربية والإسلامية مما ساعدهم كثيراً في وضع اللبنات الأساسية لعملهم الإسلامي.

في عام ١٩٩١م تم تكوين أول إدارة دينية في أوكرانيا وتسجيلها في مدينة (سيمفيروبل) عاصمة القرم، وعلى رأسها المفتي (سيد جليل إبراهيم). تولت الإدارة الدينية شؤون المسلمين التتار العائدين من أوزبكستان وكازاخستان ومساعدتهم في شتى المجالات، وأصبح مقر الإدارة الدينية يتوافد عليه

كل المسلمين من مختلف مناطق القرم بمختلف الأسئلة الدينية والدنيوية. وفي الإدارة الدينية أصبحت تقام دروس اللغة العربية والتربية الإسلامية في المبادئ الأساسية للإسلام.

قامت الإدارة الدينية لمسلمي القرم بتشجيع المسلمين في مختلف مناطق القرم على تكوين الجمعيات الإسلامية وبذلت الإدارة الدينية مجهودات كبيرة في هذا المجال، حتى إن عدد الجمعيات الإسلامية التي تم تسجيلها في مناطق القرم المختلفة الآن يقارب مئتي جمعية إسلامية تولت شؤون المسلمين من تعليم إسلامي واحتفال بالمناسبات الدينية، وعقد القران والختان وغيرها من الأمور التي تهم المسلمين، وعملت في تنسيق تام مع الإدارة الدينية مما كان له كبير الأثر في دفع المسلمين إلى الإسلام والتعاليم الإسلامية.

عملت الإدارة الدينية والجمعيات الإسلامية بالتنسيق والتعاون والاستفادة من المنظمات الخيرية من الدول العربية والإسلامية العاملة في المجال الدعوي والخيري، وعلى الرغم من أن المنظمات الخيرية العربية العاملة في المجال الدعوي والخيري تركز وبشكل أساس في عملها الدعوي والخيري على مسلمي روسيا وأوزبكستان وأذربيجان، إلا أنها مع ذلك كان لها الدور الكبير في تعريف مسلمي القرم بالإسلام وتعاليم الدين الإسلامي وتعميق معاني الحب والإخاء بين المسلمين، ولقد لعبت هذه المنظمات دوراً كبيراً في توفير الكتاب الإسلامي باللغة الروسية في علوم القرآن الكريم والعقيدة والفقه والأحاديث والسيرة النبوية الشريفة، وقامت هذه المنظمات أيضاً ببناء عشرات المساجد وترميم بعضها، وبمساعدة تلك المنظمات يتم وبصورة شبه منتظمة تنظيم المخيمات التربوية الصيفية للرجال والنساء والأطفال، وكذلك بمساعدة تلك المنظمات تنظم مشاريع الأضاحي والإفطارات الجماعية، كما أن لتلك المنظمات دوراً محموداً في مجال الإغاثة والأعمال الخيرية.

أما عن المسائل الملحّة التي تقف الآن أمام الإدارة الدينية والتي لا بد من تضافر الجهود لإيجاد الحل المناسب لها باعتبارها مسائل لا تهم فقط مسلمي القرم ولكن يجب أن تجد الاهتمام من كل المسلمين فإنه يمكن تلخيصها في عدم وجود الكادر المحلي المؤهل لقيادة العمل الإسلامي في المستقبل؛ فالعمل الإسلامي لا زال يعتمد على الأجانب من طلبة ومنظمات؛ لذا لا بد من العمل الجاد لتأهيل فريق محلي يفهم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً ويكون بمقدوره قيادة العمل الإسلامي ورفع راية الإسلام على أساس عالمية الدين الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم الإسلامي وفتح مدارس إسلامية تستقبل أبناء المسلمين من المرحلة الإعدادية وحتى المرحلة الجامعية، وتخرِّج للمجتمع الأوكراني أجيالاً من علماء ودعاة ومثقفين يحملون القيم الإسلامية الأصيلة فهماً وعملاً وسلوكاً.

وبما أن بناء المدارس والإشراف عليها يتطلب مجهودات كبيرة وإمكانيات ضخمة يقف أمامها مسلمو القرم عاجزين فإن الأمل يظل على المنظمات والهيئات الخيرية والدعوية العاملة في المجال الخيري والدعوي وعلى الخيِّرين من أبناء الأمة الإسلامية. ومسلمو القرم لا ينسون أبداً الدور الكبير والمجهودات الجبارة التي بذلها - وما زال يبذلها - إخوانهم المسلمون عبر المنظمات والهيئات الخيرية والدعوية في مساعدتهم على العودة إلى دينهم الإسلامي.

قامت الإدارة الدينية لمسلمي القرم بالتنسيق مع مركز الجمعيات الإسلامية المستقلة (الجمعيات التي تعمل خارج إطار الإدارة الدينية لمسلمي أوكرانيا) لعقد المؤتمر الأول لمسلمي أوكرانيا يوم ٢٤/٩/١٩٩٤م في سيمفيروبل عاصمة القرم للأهداف الآتية :

● توحيد المسلمين والجمعيات الإسلامية في إدارة دينية واحدة لكل مسلمي أوكرانيا.

● اختيار مفتٍ لمسلمي أوكرانيا بدلاً عن (أحمد تميم) مفتي الإدارة الدينية لمسلمي أوكرانيا التي مقرها في مدينة كييف عاصمة أوكرانيا.

● يكون مقر الإدارة الدينية لمسلمي أوكرانيا في سيمفيروبل عاصمة القرم باعتبار أن القرم يمثل مركز ثقل المسلمين. وبعد أن اكتملت كل الاستعدادات لانعقاد المؤتمر جاء القرار المفاجئ يوم ٢٣/٩/١٩٩٤م من السلطات المحلية بمنع قيام المؤتمر بحجة عدم ملاءمة الظروف الصحية لقيام المؤتمر. وهكذا أخفق أول مؤتمر لمسلمي أوكرانيا في ظروف غامضة وأسباب حتى الآن لم يكشف عنها أحد.

مشكلة الإسكان:

معاناة التتار من السكن كثيرة ومتشعبة حتى يمكن القول بأن ٣٦٢ ألف تتري يملك سكناً دائماً بينما ١٣٣,٢ ألف وحوالي ٤٠٠٠ ألف أسرة لا تملك سكناً دائماً، ويعيشون في ظروف غير ملائمة من السكن الجماعي أو المعيشة مع الأقارب ومع اتخاذ بعض التدابير لتوفير السكن عن طريق الدعم المقدم للبرامج الخاصة بتحسين الأوضاع للتتر العائدين بمبالغ زهيدة، وترى السلطات أن الدعم سيقتصر على الأسر الفقيرة، ولتوفير سكن دائم للتتار لا بد من بناء مليون متر مربع، سيكون جزء يسيرٌ منها على حساب الحكومة ومصادر أخرى بينما سيتم توفير معظم السكن بصورة أساسية على حساب التتار أنفسهم وبمواردهم الذاتية.

وقد نتج عن ضعف التمويل الحكومي الخاص بتوفير سكن للتتار العائدين مشكلة كبيرة هي ديون على الحكومة للشركات العاملة في مجال البناء والتي وصلت في عام ١٩٩٦م إلى ٢,٥ مليون دولار أمريكي. هذا ونجد أن الحكومة تخفض دعمها لمشاريع توفير السكن للتتار بينما عدد التتار يزداد في كل يوم حتى إنه في الفترة الأخيرة خفضت دعمها لدرجة تمكنها فقط من دعم أسرة واحدة من مائة أسرة.

مشكلة التعليم والمدارس واللغة:

في مجال التعليم نجد التقصير الكبير من جانب الحكومة؛ حيث إن عدد المدارس التي يُدَرَّس فيها باللغة التترية قليل جداً بالمقارنة بحاجة التتار إليها؛ مع العلم بأن التدريس باللغة التترية من حقوق التتار المثبتة في الدستور.

وحسب الدستور في أوكرنيا فإنه توجد لغة رسمية واحدة هي اللغة الأوكرانية، وحتى على مستوى القرم فإن اللغة التترية لا تعتبر لغة رسمية؛ ولكن التدريس بها مسموح به في المدارس الحكومية. وفي فترة الخمسين سنة الماضية، وبسبب سياسة التفرقة تعرضت اللغة التترية لخسارة كبيرة؛ وذلك لأنها في هذه الفترة كانت محصورة فقط في محور الأسرة، وتم تحويل حروفها إلى اللاتينية بطريقة ليست علمية كان الغرض منها دمج الشعوب في ثقافة شيوعية موحدة، وكذلك اختلطت ببعض اللغات مثل الروسية والأوزبكية، بينما في فترة ما قبل التهجير كانت اللغة التترية تعتبر اللغة الرسمية، فكانت هي لغة التعامل والتعليم في كل مراحله.

في عام ١٩٦٥م في أوزبكستان بدأت بعض المدارس تدرس اللغة التترية ابتداءاً من الفصل الثالث لمدة ساعتين في الأسبوع، ولكنها كانت مخلوطة ببعض الكلمات الروسية. وفي الفترة من ١٧ إلى ٢٠/٦/١٩٩٢م في مدينة سيمفيروبل وبطلب من المجلس التتري ومعهد التشريق في أكاديمية العلوم الأوكرانية عقد مؤتمر علمي عالي في القرم لتحويل حروف اللغة التترية من الروسية إلى اللاتينية، وتم تكوين لجنة تضم بين أعضائها علماء من القرم وبولندا والمجر وتركيا وعدد من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق ذات اللغات التي تنحدر من أصل تركي، حيث قامت هذه اللجنة



بوضع أحرف جديدة للغة التترية. ويتم الآن تدريس اللغة التترية القرمية في عدد من المدارس مادة اختيارية ما عدا المدارس التترية السالفة الذكر.

وفي النهاية نخلص إلى أن اللغة التترية محتاجة أولاً إلى أن يُعترف بها لغة رسمية في جمهورية القرم؛ وهذا السؤال ما زال معلقاً، والجميع في انتظار الحل من البرلمان الأوكراني والقرمي، وثانياً محتاجة إلى حماية وتطور؛ وهذا بدوره يحتاج إلى إمكانات ضخمة لإعداد المعلمين والمترجمين، وطبع الكتب والمناهج العلمية ونشرها. ولا شك أن حماية اللغة التترية هي حماية لتاريخ التتار وثقافتهم.

مشكلة العمالة:

من المشكلات الكبيرة والمعقدة التي تواجه التتار هي مشكلة الحصول على عمل؛ حيث نجد أن نسبة ٤٩٪ من التتار ليس لهم عمل ثابت ولا مؤقت؛ ومن جملة ١٣٢١٠٦ تتري يشكلون اليد العاملة، منهم حوالي ٦٨٧٣ تتري لهم عمل ثابت أو مؤقت أو موسمي. وتتار القرم يعملون بشكل أساس في مجالات منها: الزراعة ٣٠٥٦٤ تتري، والبناء والصناعة ١١٠٣٩ تتري، والتعليم ٤٢٨٢ تتري، والصحة ٣٦٤٢ تتري. أما في المجالات الأخرى فأعدادهم قليلة جداً؛ فمثلاً في أقسام وزارة الداخلية يعمل ٢٠٠ تتري (١,٣٪ من العدد الكلي للعاملين) وفي أقسام وزارة المالية يعمل ٦ تتار؛ أما بين المسؤولين فلا يوجد أحد. وحسب التقرير الحكومي الخاص بالعمالة بالقرم لسنة ١٩٩٧م الذي أعدته اللجنة الحكومية الخاصة بالعمالة كان ينتظر أن يصل عدد التتار العاطلين عن العمل في القرم بنهاية العام ١٩٩٧م إلى ٧٠٧٤٤ تتري. لقد قامت الحكومة بوضع برنامج لتطوير عدد من المدن وتوفير فرص عمل فيها مثل جانكوي وبخشيساراي وكراسنقفارديسكي ونيجناقورسكي وسافيتسكي ومناطق أخرى يصل عدد التتار العاطلين عن العمل فيها إلى ١٧٩٨٨ تتري إلا أن هذا المشروع لم ينفذ؛ ولذا نجد أن اغلب التتار يتمسكون بأعمال مؤقتة أو موسمية أو يلجؤون إلى أعمال هامشية في المزارع والأسواق. والحقيقة المؤلمة هي أن من بين هؤلاء حملة شهادات جامعية في مجالات الطب والهندسة وغيرها وذوو خبرة في هذه المجالات. أما المشاكل التي تقف عائقاً في طريق التتار للحصول على فرص عمل فيمكن أن نلخصها في الآتي:

١ - العامل القومي: هذا من المشاكل الكبيرة التي تواجه التتار في مجال البحث عن العمل؛ وذلك لأن كثيراً من التتار لا يتم استيعابهم في العمل؛ لأنهم تتار؛ وهذه المشكلة نجدها بشكل ملحوظ في مجالات التعليم والهندسة، وكذلك مجالات الفن والثقافة؛ والسلطات المحلية تعي تماماً تلك الحقائق وتعترف بها أيضاً.

٢ - الجنسية الأوكرانية: في القرم الآن حوالي سبعين ألف تتري ليس لديهم الجنسية الأوكرانية؛ والسبب في ذلك هو صعوبة إجراءات الحصول على الجنسية الأوكرانية وتعقيدها، وكذلك تكاليفها الباهظة؛ والقاعدة تجاه هؤلاء واضحة وثابتة: من ليس له جنسية ليس له فرصة في العمل الحكومي.

٣ - التقصير من جانب المسؤولين: وهذا واضح في عمل اللجان العاملة في هذا المجال، وكذلك الأقسام الخاصة بالعمالة والتي لا تقوم بواجبها في توصيل المعلومات الكاملة من التتار وإليهم، إضافة إلى ذلك التقصير في عمليات التسجيل ومراكز التسجيل(*).

(*) كل الأرقام والإحصائيات التي وردت في الفقرات الخاصة بمشكلات السكن والتعليم والعمالة مأخوذة من تقارير لوزارة الداخلية وجهات رسمية متخصصة فيما يتعلق بعودة التتار وتوطينهم.



يرصدها: حسن قطامش

في الشيشان.. فتش عن الأمريكان

في القوقاز تشترك شركات بترول أمريكية في بناء أنابيب بترول من بحر قزوين عبر أذربيجان وجورجيا ومن تركمانستان إلى تركيا. وفي هذا يقول مدير وكالة المخابرات المركزية: «حكام كثير من الدول في تلك المنطقة أصدقاء لنا. ولكن الأنظمة والحكام ليسوا مستقرين وهناك كثير من الجرائم والمخدرات وتجارة الأسلحة».

معنى هذا أن وكالة المخابرات المركزية انتقلت إلى منطقة القوقاز لحماية هذه المصالح الأمريكية الجديدة.

ولا ينسى مدير وكالة المخابرات المركزية أن أغلبية سكان هذه الدول مسلمون. ولأنه قال إن الفقر والظلم من أسباب مشكلة الإرهاب فإنه يحذر من إرهاب جديد في دول القوقاز، ويحذر بالذات من المتطرفين الإسلاميين. ولا ينسى أيضاً الحرب في الشيشان، ولا يعطف على المتطرفين الإسلاميين في الشيشان، ويقول: إنهم بعد هزيمتهم سيتسللون إلى الدول المجاورة ويسببون مشكلات لحكامها.

لكنه لا يقول إن واحداً من أسباب مشكلة الشيشان هو ظلم الروس لهم وإن الحرب القاسية والمدمرة ضد الشيشان ستزيد غضب شعوب القوقاز وآسيا الوسطى على الروس. وهذه المنطقة نفسها التي تريد وكالة المخابرات المركزية حماية المصالح البترولية الأمريكية فيها. [مجلة المجلة، العدد: (١٠٤٩)]

ما زال مُصراً

س: تردد أكثر من مرة أنك من مؤيدي فصل الدين عن الدولة؟ فهل هذا صحيح؟

ج: طبعاً بكل تأكيد أنا أؤيد فصل الدين عن الدولة؛ لأن ذلك فيه مصلحة الجميع، وفصل الدين عن الدولة لا يعني الفهم الخاطئ لدى كثير من إخواننا الإسلاميين بأنه لا يوجد دين، بالعكس، وأكثر دولة دينية هي أمريكا وتسمح لأصحاب الأديان بمن فيهم البوذيون الذين يمارسون طقوسهم الدينية واليهود، والمسيحيون والمسلمون، وهؤلاء يمارسون شعائرهم بكل حرية ولا يهيمنون على الآخرين، ولكن لا تسيطر الدولة الدينية على مقاليد الحكم، الدين ليس مقاليد حكم، ولنفترض أننا أقمنا دولة دينية في الكويت فعلى أي مبدأ أو مذهب سياسي ستسير؟ فإذا قلنا على المذهب السني، فعلى نهج ـ أي إمام ـ سنسير: أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو ابن حنبل؟ والأمر الآخر: ماذا عن أبناء الطائفة الشيعية؟ وماذا عن المسيحيين الكويتيين؟

س: أفهم من كلامك أنك ما زلت تفضل الدولة الدستورية على الدولة الدينية؟!

ج: بالتأكيد أفضل الدولة الدستورية على الدولة الدينية؛ لأن التجارب الإنسانية كلها تثبت ذلك، وأعطني دولة دينية عاشت أو تقدمت، وانظر ماذا يحدث عند طالبان أفغانستان؟ والشيشان؟

[د. شملان العيسى، أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت، جريدة الأنباء، العدد: (٨٥٩٥)]

البوابة الجديدة

معلومات محدودة التداول وصلت مؤخراً تفيد أن الوحدة السرية للمخابرات المركزية الأمريكية كانت قد وصلت العاصمة اليمنية صنعاء وباشرت نشاطها الأمني والاستخباري. وتنفذ C.I.A بعض المهام السرية في اليمن والمنطقة.

وتؤكد المعلومات أن نشاط هذه الوحدة يجري بموافقة الحكومة اليمنية التي لم تعارض وجودها طمعاً في الحصول على مساعدات مالية أمريكية في ظل تدهور الأوضاع الاقتصادية في البلاد.

المعلومات أشارت أيضاً إلى أن جميع عناصر الوحدة يجيدون التحدث باللغة العربية وكذلك يجيدون التقاليد والعادات العربية، ومنهم من يظهر في شوارع صنعاء وهو يرتدي لباساً تقليدياً يمنياً. ويحاولون التصرف كمواطنين يمنيين بهدف الاندماج في المجتمع اليمني.

والهدف الرئيس لهذه الوحدة ـ بعد رصد الحركات والجماعات الإسلامية في ظل تصاعد نفوذ التيار الإسلامي في اليمن والذي بات يشكل إزعاجاً وقلقاً للإدارة الأمريكية ـ هو محاولة التقرب من المسؤولين اليمنيين باعتبارهم دبلوماسيين أمريكيين.

ويبدو أن ليس من مهام الوحدة حالياً تجنيد عملاء سريين من المواطنين اليمنيين للعمل لحساب المخابرات الأمريكية كما هو الحال في دول عربية أخرى، غير أنه من غير المستبعد أن يكون هذا الهدف من بين الأهداف المكلفين بتحقيقها خلال فترة وجودهم في اليمن.

وعلم أن جميع عناصر الوحدة هم من فئة الشباب وهم يتحركون بحذر شديد ويحيطون نشاطاتهم بسرية تامة خاصة في ظل التدهور الأمني في اليمن أو ما تسميه الدوائر الأمنية الغربية «الانفلات الأمني».

[السبيل الأردنية، العدد: (٣٣٠)]

لا فائدة

قامت عدة منظمات نصرانية بحملة إعلامية ضخمة لتشجيع النصارى في الولايات المتحدة على قراءة الإنجيل بعدما دلت الإحصاءات على جهل كبير لدى القوم هناك بدينهم، إذ إن الاستبيانات التي جرت هناك بتمويل من هذه المنظمات بينت أن أكثر من نصف الذين تم سؤالهم لا يتذكرون خمساً من النصائح العشر التي أمر بها الإنجيل، ورغم أن معدل ما تقتنيه الأسرة الأمريكية النصرانية من أناجيل يبلغ حوالي ٣ أناجيل في كل بيت، إلا أن معظم الأمريكيين لا يتآلفون مع الإنجيل، كما قال أحد كبار قادة الحملة.

ورغم أن المؤسسات التنصيرية في سباقها لكسب الإنسان الأمريكي النصراني قد خصصت أناجيل للأطفال، وأخرى للمراهقين، وثالثة لمخاطبة السيدات، ورابعة لمخاطبة الرجال، وأخرى للتائبين، إلا أن تدني مستوى قراءة الإنجيل أصبح مشكلة تؤرق المؤسسات المسيحية هناك.

[مجلة الكوثر، العدد (٥)]

مخربون لا قرآنيون

قلتَ عن حرية الاعتقاد: إنه لا توجد في الإسلام استتابة؛ فهل تعني أنه لا يوجد لها أصل؟

– نعم لا يوجد لها أصل مطلقاً لا في القرآن الكريم ولا من الرسول ﷺ، فالقرآن الكريم فتح باب حرية الاعتقاد على مصراعيه «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» وفي عهد الرسول ﷺ هناك من كفر أو ارتد أو نافق، ومع ذلك لم يعمل الرسول لهم شيئاً ولم يستتبهم.

تريد أن تقول إنه يجب أن لا نتعرض لمسلم غيَّر عقيدته؟

– مع السلامة. لا أستطيع أن أعمل له شيئاً ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولكننا نجد أن العلماء توسعوا في هذا الباب بعبارة: «من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة»، وبهذه العبارة حكمت محكمة سودانية بالإعدام على الشيوعي محمود محمد طه، فمن السهولة أن أوجه لشخص واحد ٥٠٠ تهمة استناداً إلى هذه العبارة.

لكن هناك حديث شريف يقول: «من بدل دينه فاقتلوه»؟

– هذا حديث. الله أعلم به لا يمكنني قبول هذا الحديث؛ لأنه لا يوجد حديث يناقض عشرات الآيات القرآنية الكريمة التي تقرر حرية الاعتقاد، إن هذه الآيات هي الأصول وطبائع الأشياء.

أنت إذن لا ترى داعياً لدعوة تطبيق الشريعة في القوانين؟

الشريعة هي العدل فإذا طبق العدل طبقت الشريعة باي قانون وباي صورة، وثق أن هناك دولاً أوروبية أقرب إلى تطبيق الشريعة بقوانينها.

تفاسير القرآن: لك رؤية مختلفة أيضاً عن تفسير القرآن الكريم؟

– كل هذه التفاسير افتئات وجناية على القرآن الكريم وهي المسؤولة عن أن القرآن لم يقم إلى اليوم بالدور الذي قام به أيام الرسول ﷺ. فإذا أردت أن تفهم القرآن فاقرأه وسلم قلبك له ولا تقرأ تفسيره.

ولكن «التفسير» علم قائم بذاته؟

– علم ضال أساء إلى القرآن الكريم، إن كلام الله إعجاز محكم فكيف يفسره بشر؟ إذا فسره فسيفتئت عليه ويحكمه رأيه الخاص.

[جمال البنا، صاحب كتاب: (نحو فقه جديد)، مجلة المجلة، العدد: (١٠٥٢)]

العولمة و«الشم»!

ربط تقرير دولي حديث بين ازدهار تجارة المخدرات وموجة العولمة الاقتصادية التي يشهدها العالم، وقال التقرير السنوي لجمعية ـ جيوبوليتيكال درج ووتش ـ المعنية بمراقبة المخدرات: إن العولمة الاقتصادية جعلت عمليات غسيل الأموال أكثر سهولة، وذكر التقرير أن مهربي المخدرات تمكنوا في العام الماضي من دمج ما يتراوح بين ثلاثمائة وخمسين مليار دولار وأربعمائة مليار دولار من أرباح المخدرات في الاقتصاد العالمي.

ويلقي التقرير باللائمة على فتح الحدود ورفع القيود على تنقل الأموال وتزايد عمليات الخصخصة التي عادة ما تتضمن انتقال كميات كبيرة من الأموال عبر شراء الأسهم، ويشير التقرير إلى أن أموال المخدرات عادة ما تستخدم في تمويل الصراعات وتأجيجها في كل أنحاء العالم.

[موقع هيئة الإذاعة البريطانية / بي. بي. سي أولاين ـ http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news]

الفكر المستنير!

س: لماذا أنكرت عذاب القبر؟

ج: هذا كلام في غيب لا يوجد شيء اسمه عذاب القبر في القرآن كله؛ لأن الإنسان في نفس لحظة موته يبدأ حسابه، والآية الصريحة في القرآن تقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] انتهت الآية، أين عذاب القبر؟ هنا العذاب يبدأ منذ لحظة الحشرجة.

معنى كلامك أنه لا يوجد شيء اسمه عذاب القبر؟

– الحديث عن شيء اسمه عذاب القبر جدل في جدل، وكل إنسان حر في أن يكذّب أو أن يصدق كلامي.

س: ولكن أنت أول من ينكر عذاب القبر؟

ج: علماء غيري قالوا هذا الكلام، ولكن أنت لا تقرأ! الناس في غفلة ويصدقون الكلام الفارغ والكتب المنتشرة على الأرصفة.

س: ولماذا اعترضت على صحيح البخاري؟

ج: لأن صحيح البخاري ليس كله صحيحاً.

س: وما الأدلة؟

ج: قصة سيدنا موسى الموجودة في صحيح البخاري والتي تقول إن سيدنا موسى ضرب ملك الموت عزرائيل على عينه، عندما أرسله ربنا له ليقبض روحه فيرفض سيدنا موسى أن يموت، ثم يضرب الملك على عينه فيفقا عينه، فيعود عزرائيل إلى ربنا يشتكي من موسى الذي فقأ له عينه، فيرد له الله بصره. هذه قصة في البخاري هل يمكن تصديقها.

س: عفواً يا دكتور لماذا تشاهد عروض الأزياء؟

ج: حتى أستطيع الحكم عليها.

س: وما جدوى حكمك ـ وأنت عالم الدين ـ على عروض الأزياء؟

ج: وكيف أحكم عليها من دون مشاهدتها؟ لا بد أن أشاهدها حتى أستطيع الحكم عليها.

س: وما أهمية الحكم عليها؟

ج: أليست عروض الأزياء حدثاً ضمن أحداث الحياة؟

[د. مصطفى محمود، مجلة الأهرام العربي، العدد: (١٥٩)]

هؤلاء هم حماة حقوق الإنسان

خلف جدران السجون والمعتقلات، يقول تقرير صدر في الولايات المتحدة مؤخراً إنه ـ بعيداً عن أعين المحققين الخارجيين ـ تمارس أشد أنماط العنف، ويتعرض السجناء، بشكل خاص لانتهاكات حقوق الإنسان، علماً بأن هناك أكثر من ١,٧ مليون سجين في الولايات المتحدة. ويتعرض بعض السجناء للأذى على أيدي زملائهم السجناء أنفسهم، من دون أن يقوم حراس السجن بحمايتهم، ويتعرض بعضهم الآخر للاعتداء والضرب على أيدي حراس السجن أنفسهم، كما تتعرض النساء والرجال على السواء لاعتداءات جنسية وجسدية. أما السجون المزدحمة بالنزلاء والتي تفتقر إلى التمويل الكافي، والتي تمت خصخصة العديد منها، فتحكم السيطرة على النزلاء من خلال عزلهم لفترات طويلة واستخدام أساليب تقييد وحشية ومهينة. وتشكل في بعض الأحيان خطراً على حياتهم، ويبدو أن النساء وحتى الحوامل منهن لا ينجين من هذه المعاملة السيئة وانتهاك حقوقهن؛ حيث يقول التقرير بهذا الصدد: «ومن بين الضحايا نساء حوامل ومتخلفون عقلياً، وأطفال، وقد أدى ضعف المعاينة المستقلة، إلى جانب وجود مزاج شعبي يطالب بمعاملة أقسى للمجرمين إلى خلق مناخ مناسب لانتهاكات حقوق الإنسان، ويضيف التقرير إلى ذلك «تعرض السجينات للضرب والاغتصاب والبيع من قبَل حراس السجن لممارسة الجنس مع مساجين في سجن فيدرالي بكاليفورنيا، ويذكر التقرير أيضاً أن «اغتصاب النزيلات من قبَل موظفي السجن يعتبر أحد ضروب التعذيب» ويورد أيضاً كيفية انتهاك حقوق الأطفال بمقاضاتهم وكأنهم بالغون، ويذكر أن احتجازهم في معتقلات البالغين يعرضهم للانتهاكات البدنية والجنسية من قبَل البالغين.

[مجلة المجلة، العدد (١٠٥٤)]

صلوا قبل أن تدفعوا!!

وكالة جديدة للصلاة بالإنابة عن من يجعلهم الإيقاع السريع للحياة من الغافلين.. تلك كانت الفكرة التي راودت شابة إيطالية تبحث عن مشروع جديد تدخل به الحياة العملية.

تقول مونيكا باليناري وهي ربة منزل (٢٦عاماً) إنها حريصة على مساعدة من لا يؤدون فريضة الصلاة بسبب انشغالهم، وأن وكالتها الجديدة (الجنة) التي تديرها من منزلها في فاريسي بشمال إيطاليا حددت أسعاراً لكل صلاة.

فالصلاة من أجل الموتى على سبيل المثال تتكلف ٣٠٠٠ ليرة (١,٥٠ دولار) أما إذا كانت الصلاة المطلوبة ستقام في منزل الزبون فيرتفع السعر إلى ٢٥ ألف ليرة بل قد يصل سعر الصلاة إلى ٥٠ ألف ليرة إذا كانت الصلاة مصحوبة بدعاء على المسبحة، وتقول مونيكا ـ وهي أم وممثلة سابقة ـ شارحة فكرتها: «الحياة أصبح إيقاعها سريعاً للغاية لدرجة أن وقت الناس لا يكفي سوى للعمل والمنزل، لهذا السبب انشغل الناس عن الصلاة رغم أنهم قد يشعرون باحتياج نفسي لها» وفي محاولة لجذب الزبائن تذكِّر مونيكا في إعلاناتها الناس انه ليس هناك أغلى من الروح وتقول: «إذا لم يكن عندك الوقت الكافي لإنقاذها اتصل بي وساعتني بالأمر».

لقيت هذه الخدمة بعض النجاح في إيطاليا؛ إذ تقول مونيكا إن نحو ٣٠ شخصاً من بينهم اثنان من المشاهير تحولوا إلى هذه المهنة الجديدة. [جريدة الرياض، العدد: (١١٦٢٣)]

اختراق واستلاب!!

يتقاضى القنصل الأمريكي العام السابق في القدس الشرقية المحتلة إدوارد أبينغتون مليونين و ٢٥٠ ألف دولار سنوياً عن عمله كمستشار خاص في الولايات المتحدة للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، بحسب ما كشفه أبينغتون نفسه، وهذا يعني أن أبينغتون يحصل على ما قدره ٦٢ ألف دولار في الشهر، وكان أبينغتون البالغ من العمر ٥٥ سنة، قد عمل في سفارات الولايات المتحدة بدول عربية طوال عقدين ماضيين، أنهى آخر ٣ سنوات منها في ١٩٩٧م قنصلاً عاماً لبلاده في إسرائيل، ثم بدأ يعمل لحسابه الخاص، منذ أن أسس في العام الماضي شركة استشارات في واشنطن وأول زبائنها كان الرئيس الفلسطيني الذي وقع معه العقد منذ ٤ أشهر ليكون مستشاره الخاص في تعاملاته مع الإدارة الأمريكية، بوصفه معروفاً لديها.

وبموجب الاتفاق، فإن أبينغتون يعد تقارير إرشادية للرئيس الفلسطيني في الكيفية التي يمكن أن يتصرف بها مثلاً لشرح مواقفه بطريقة يفهمها ويستوعبها المتخذون للقرارات في البيت الأبيض ووزارة الخارجية ومراكز الأبحاث والهيئات الاقتصادية والمؤسسات الإعلامية النافذة في الولايات المتحدة، ويعتقد أبينغتون ـ الذي يقول إنه يتمتع بخبرة تزيد على ٣٠ سنة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي ـ أنه قادر على تأسيس وقيادة أول لوبي حقيقي للفلسطينيين في الولايات المتحدة، يكون هو أول فرد فيه، طبقاً لما أقنع به الرئيس عرفات حين وضعه العام الماضي في جو اتخاذ القرار بتعيينه مستشاراً، وبراتب شهري يزيد ٣ مرات على ما يتقاضاه الرئيس الأمريكي، بيل كلينتون، وحوالي ٣٠ مرة عن راتب أي نائب في المجلس التشريعي الفلسطيني. [جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٧٨٠٨)]

تعليق على الأحداث

لقد جئتم شيئاً إداً!

ضمن سلسلة التجرؤ على المقدسات، ونشر المذهب الإلحادي تحت الغطاء الأدبي والروائي الذي يضرب الأمة في أعز ما تملك من عقيدة وأخلاق، وتحت إشراف وزارة الثقافة المصرية، صدرت رواية «وليمة لأعشاب البحر» للكاتب السوري حيدر حيدر، ضمن سلسلة آفاق الكتابة، العدد ٣٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، والتي يرأس مجلس إدارتها علي أبو شادي، ويرأس تحريرها إبراهيم أصلان، وتقع الرواية في سبعمائة صفحة، ويبدو أن أقلام الردة ما زالت بحاجة إلى من يقصف أسنانها بذلك التجاوز الخطير لكثير من الحرمات التي يتوارى منها ومن الخوض فيها كبار مجرميهم.

ومما جاء في تلك الرواية الآثمة:

«إن رب هذه الأرض كان يزحف وهو يتسلل من عصور الرمل والشمس ببطء السلحفاة» ويسوق في حوار فاجر: «هو من صنع ربي.. لا بد أن ربك فنان فاشل إذن» «داخل هذه الأهواز التي خلقها الرب في الأزمنة الموغلة في القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التي لا تحد في بلاد العرب وحدها حيث الزمن يدور على عقبيه منذ ألفي عام» ويقول: «أقام الله مملكته الوهمية في فراغ السموات» «ربي خذ بيدي في مملكتي لآخذ بيدك في مملكتك، ربي زدني أرصدة في الدنيا والمصارف لأزيدك ابتهالاً في الآخرة، ربي لتكن منافعنا متبادلة وليتحقق القصد الذي من أجله ولدتني فأكون طفلك البار على هذه الأرض الفانية» ويستمر في فجوره وجرأته ويقول: «وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر بقوانين آلهة البدو، وتعليم القرآن .. خراء».

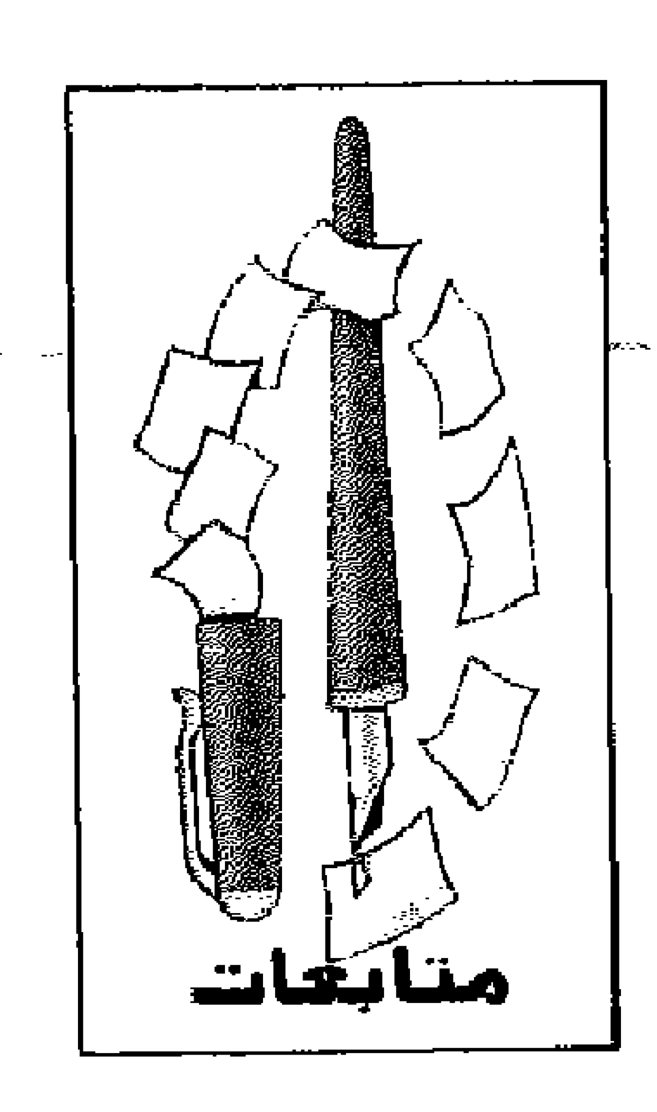
إن ما في هذه الرواية من كفريات لا أحسب أنها تتصادم مع مفاهيم «المتطرفين» فحسب - كما يزعمون -، بل تتصادم مع أصحاب الفطر السليمة، بل إن الفجرة والفسقة لا يتجرؤون برغم كبير جرمهم على الخوض في ذلك، فما بقي لأمة الإسلام بعد سب ربها ووصم كتابه بأنه «خراء»؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد دأبت بعض وزارات الثقافة العربية بين فترة وأخرى على إثارة مشاعر المسلمين، وكأنها تختبر إيمان القوم وردود أفعالهم بتلك المهاترات والكفريات. فتحت مسمى «التنوير» ينشرون ظلام الإلحاد والكفر.

وقد نُشرت هذه الرواية منذ زمن، إلا أن أهل العلمنة دأبوا على إحياء مقبورهم الإلحادي لنشره على أحياء النفوس من المسلمين، هادفين إلى طمس نور قلوبهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

إن هذا التجاوز البشع ليدلنا على مدى كراهية هذه الأقلام الملوثة لرب الناس ولدينه وأنبيائه وأوليائه، ومع ذلك فإن هذه الزندقة تطبع وتوزع بأموال المسلمين.

وإن كانت الرواية قد سحبت من الأسواق المصرية فلم يكن ذلك تطوعاً من الوزارة، وإنما جاء امتصاصاً للغضبة التي غضبها أصحاب أقلام طاهرة وقلوب ما زالت تؤمن بربها، وما زال الوزير يردد أن من يقرأ الرواية سيرى أنها تدعو للعقيدة والإيمان!!. وحسبنا الله ونعم الوكيل.



الشيخ سيد سابق

ودمعة وفاء لرحيل العلماء

نشأت أحمد

في عام واحد فقد العالم الإسلامي كوكبة من خيرة علمائه ممن اشتهر عنهم طول الباع في العلم والعمل ولزوم السنة حتى كان كل واحد منهم أمة وحده.

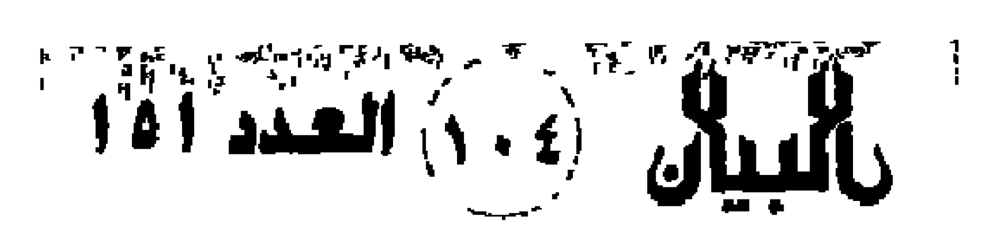
وإذا كان موت العالم موتاً للعالَم فإن مصيبتنا في هؤلاء الرهط تجلُّ وتعظم، ولئن كان مصاب الأمة فادحاً في جراحها في كشمير وفلسطين وكوسوفا والشيشان و.... فإن مصابها في علمائها أفدح؛ وكيف لا، وقد كانوا سمعها وبصرها؟!

وقد كان آخرهم موتاً الفقيه المجاهد الذي كان له من اسمه حظ ونصيب؛ الشيخ سيد سابق ـ رحمه الله ـ إذ توفي في القاهرة على إثر وعكة اشتدت به، لزم فيها المستشفى أسبوعين افتقده خلالهما محبوه وتلاميذه على أمل أن يعود، ثم احتسبوه عند ربهم في جنازة شاهدة مشهودة رأينا فيها أثر عمر عامر بالعلم والجهاد.

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في يناير (كانون الثاني) عام ١٩١٥م بقرية «اسطنها» من مركز (الباجور) بمحافظة المنوفية، وأتم حفظ القرآن ولم يتجاوز تسع سنوات، التحق على إثره بالأزهر في القاهرة، وظل يتلقى العلم ويترقى حتى حصل على العالمية في الشريعة عام ١٩٤٧م، ثم حصل بعدها على الإجازة من الأزهر وهي درجة علمية أعلى[١].

عمل بالتدريس ـ بعد تخرجه ـ في المعاهد الأزهرية، ثم بالوعظ في الأزهر، ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف في نهاية الخمسينيات متقلداً إدارة المساجد، ثم الثقافة.. فالدعوة فالتدريب إلى أن ضُيِّق

(١) حصل الرجل بالإضافة إلى هذا على أوسمة وجوائز عديدة كجائزة الملك فيصل في مجال الدراسات الإسلامية عام ١٩٩٤م عن كتاب فقه السنة، ووسام الامتياز من مصر.



عليه فانتقل إلى مكة المكرمة للعمل أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز، ثم جامعة أم القرى وأسند إليه فيها رئاسة قسم القضاء بكلية الشريعة، ثم رئاسة قسم الدراسات العليا، ثم عمل أستاذاً غير متفرغ.

وقد حاضر خلال هذه الفترة ودرَّس الفقه وأصوله، وأشرف على أكثر من مئة رسالة علمية، وتخرج على يديه كوكبة من الأساتذة والعلماء، وفي الأعوام الثلاثة الأخيرة عاد إلى القاهرة واستقر بها حتى وافاه الأجل.

شاب على الجادة:

تربى الشيخ في مقتبل حياته في الجمعية الشرعية على يد مؤسسها الشيخ السبكي ـ رحمه الله ـ، وتزامل مع خليفته الشيخ عبد اللطيف مشتهري ـ رحمه الله ـ، فتشرَّب محبة السنة. وكان لهمَّته العالية وذكائه وصفاء سريرته أثر في نضجه المبكر وتفوقه على أقرانه، حتى برع في دراسة الفقه واستيعاب مسائله وما أن لمس فيه شيخه تفوقاً حتى كلفه بإعداد دروس مبسطة في الفقه وتدريسها لأقرانه ولم يكن قد تجاوز بعدُ ١٩ عاماً من عمره.

وكان لشيخه أثر عظيم على شخصيته وطريقة تفكيره، ومن ذلك ما يحكيه في بداية حرب فلسطين فيقول: وقد كنا في ريعان شبابنا أخذني الحماس أمام الشيخ السبكي في أحد دروسه فقلت له: ما زلتَ تحدثنا عن الأخلاق والآداب! أين الجهاد، والحث عليه؟! قال: فأمرني الشيخ بالجلوس! فرددت: حتى متى نجلس؟ قال: يا بني إذا كنت لا تصبر على التأدب أمام العالِم فكيف تصبر على الجهاد في سبيل الله؟ قال: فهزتني الكلمة جداً وظل أثرها في حياتي حتى يومنا هذا.

ثم تعرف الشيخ سيد سابق على الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ واشترك في دعوته، وعاونه بعد ذلك في تعليم الإخوان وتربيتهم داخل الشُّعَب، واستمر على طريقته في إعداد دروس الفقه وتدريسها، وصادف أن سمعها منه الشيخ البنا ذات مرة فاستحسن أسلوبه وطلب منه أن يعدها للنشر. يقول الشيخ: فشرعت في جمع المادة من قصاصاتي، وبدأت نشر كتاب «فقه السنة».

مؤلفاته:

أشهر كتبه وأحبها إليه الذي اقترن اسمه به هو «فقه السنة» قدَّم فيه أسلوباً رائداً في تبسيط مسائل الفقه بعد أن ظل عالقاً بالأذهان على درجة من الصعوبة بحيث لا يفهمها إلا القليل، لكنه مع تبسيطه لها لم يُخِلَّ بها حين كان يتعرض لاختلاف العلماء وترجيح ما يشهد له النص وإن خالف رأي الجمهور ـ خلافاً لعادة مدارس التقليد في ذلك الوقت ـ إلى جانب حسن عرض وترتيب للأفكار دفعت ملايين الناس لاقتناء الكتاب والاستفادة منه، وقد اغتنى من طباعة كتابه كثير من الناشرين لم يستأذنوه في النشر ولم يثرِّب عليهم، فضلاً عن ترجمته إلى كثير من لغات العالم(*)، ومما يروى في ذلك: أنه أُوفد رسمياً إلى الاتحاد

(*) ومما زاد الكتاب قيمة علمية تعليق العلاَّمة ناصر الدين الألباني وتحقيقه على فقه السنة تحت عنوان: (تمام المنة على فقه السنة) وهو مطبوع منذ سنوات، ويا حبذا لو جُعِلَ هذا التحقيق على الكتاب عوضاً عن كونه مفرداً. ـ البيان ـ

السوفييتي في الستينيات في أحد المؤتمرات للحديث عن الإسلام، وما أن خرج من المطار في صحبة المسؤول الرسمي الذي جاء لاستقباله حتى فوجئ بحشد ضخم قد جاء لاستقباله في موسكو! بين مقبِّل ليديه أو رأسه وبين هاتف باسمه، فتعجب الشيخ متسائلاً: كيف عرفتموني؟ فكان الردُّ: من كتابك. وإذا بالجماهير تلوِّح بالكتاب المترجم وتهتف باسمه! يقول: فلم أتمالك نفسي من البكاء؛ إذ لم أكن أتصور أن فضل الله عليَّ سيبلغ بي إلى هذا الحد! ولعله حين ألفه استحضر مقولة الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «ستعلمون أيها أريد بها وجه الله غداً».

ومن مؤلفاته أيضاً:

- مصادر القوة في الإسلام.

- الربا والبديل؛ وهو رد على ما أفتى به بعض المعاصرين من جواز فوائد البنوك وشهادات الاستثمار.

- رسالة في الحج وأخرى في الصيام وهما مستلَّتان من فقه السنه بتصرف.

- تقاليد وعادات يجب أن تزول في الأفراح والمناسبات.

- تقاليد وعادات يجب أن تزول في المآتم.

وهذه الأربعة الأخيرة ألفها ضمن نشاطه العلمي في إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف، وتُظهر الأخيرتان أثر الجمعية الشرعية في نشأة الشيخ على حب السنة ومحاربة البدع، في وقت قلَّ فيه من يميِّز بين السنة والبدعة.

جهاده وسجنه:

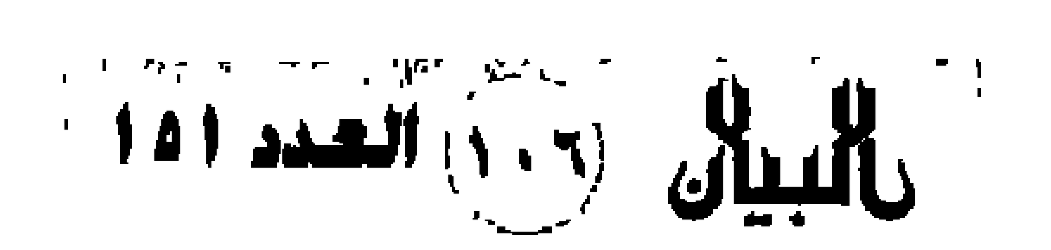
كان مع علمه وعبادته وكثرة صومه ذا شوق للجهاد، وما أن لاحت أمامه الفرصة حتى كان في أول كتيبة في حرب ١٩٤٨م مفتياً ومعلماً للأحكام، ومربياً على القيام والدعاء والذكر، وموجهاً إلى حسن التوكل والأخذ بالأسباب، ومحرضاً على الفداء، ومدرباً على استخدام السلاح وتفكيكه، وبعد مقتل النقراشي اتُّهم الشيخ بقتله وأطلق عليه: «مفتي الدماء» ممن أرادوا وأد الجهاد يومها. وحوكم الشيخ بعد أن قضى عامين من الاضطهاد والتعذيب فما لانت له قناة ولا وهنت له عزيمة بل كان كما عهد عنه مربياً فاضلاً حاثاً على الصبر، مبيناً لسنن الابتلاء والتمحيص، وبعد أن بُرِّئت ساحته خرج ليواصل جهاد الكلمة، وحين تكررت الفرصة بعد النكسة عاد أدراجه لساحة القتال في حرب رمضان يوجه الجنود ويرفع معنويات الجيش.

مكانته وفضله:

يعرف للرجل مكانته وفضله كل من عاشره أو تتلمذ على يديه؛ فقد تخرج على يديه ألوف العلماء وطلبة العلم من عشرات الأجيال، ومن هؤلاء: الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور أحمد العسال، والدكتور محمد الراوي، والدكتور عبد الستار فتح الله، وكثير من علماء مكة وأساتذتها من أمثال الدكتور صالح بن حميد، والدكتور العلياني.

بل إنه في شبابه كان محل ثقة واستعانة علماء كبار في حينها من أمثال: الشيخ محمود شلتوت، وأبي زهرة، والغزالي.

يحكي عنه ولده محمد أنه كان يزوره في بيته علماء كبار من الأزهر، وكان يجلس للتدريس وهم مصغون مستمعون من أمثال:



الشيخ عبد الجليل عيسى، والشيخ منصور رجب، والشيخ الباقوري، كما كان قوله فصلاً بين المختلفين في المسائل.

أخلاقه ومآثره:

كان - رحمه الله - فقيهاً مجرِّباً محنَّكاً - مثالاً للعلم الوافر والخلق الرفيع والمودة والرحمة في تعامله، ويمتاز بذاكرة قوية وذكاء مفرط ونفس لينة ولسان عف وحضور بديهة.

رزق حسن منطق في جزالة وإيجاز، وروحاً مرحة[1] وُضعت له معها المحبة والقبول.

كان ذا وعي شديد واطلاع دائم على الأحداث والمتغيرات: إن شئت أن تراه قارئاً رأيته، أو تجده مصلياً وجدته، أو مستمعاً ومتابعاً لأخبار العالم ونشرات الأخبار وناقلاً لحديثها في دروسه قبل أن تنشره الصحف آنستَ ذلك منه، وما من حدث يقع في الأمة إلا ويعرض له ويبين حكمه في غاية الوضوح بلا مواربة وكانت ردوده حاسمة قاطعة.

وكان ذا جرأة في الحق رغم ما كان يمكن أن يتحمله من نتائج لا طاقة لجسمه الضعيف بها، ومن ذلك أنه حين عُيِّن خلفاً للشيخ الغزالي في مسجد عمرو بن العاص في عهد عبد الناصر ظن الناس أن الشيخ سيُداهن بعد أن غُضب على سلفه، فأفرد في أولى خُطَبه خطبة فريدة في نوعها ومضمونها تناول فيها شروط الحاكم المسلم ذكر فيها ١٣ شرطاً بأدلتها الشرعية وشواهدها التاريخية فكانت جامعة مانعة، حتى قال عنها أحد العلماء الحاضرين: الشيخ قال كل شيء، ولم يؤخذ عليه شيء.

وكان يبلغ مأربه دون عناء؛ ومن ذلك أنه حين سئل عن أحدهم قال: إنه «كُذُبْذُب» (يعني أدمن الكذب).

وحين ساء الحال في السبعينيات سئل عن رؤيته للأوضاع، فقال: «إن علة مصر سؤالان وجيهان...».

ومن سعة صدره: أنه خطب يوماً فأطال، فلما فرغ الشيخ من خطبته وقف أحد الحاضرين - وكان ذا مرض - قائلاً: أنت لا تفهم!

فجاء رد الشيخ هادئاً: وهل قلت لك إنني أفهم؟ فأُسْقِطَ في يد الرجل واعتذر للشيخ.

أواخر حياته:

وبعد أن استقر به الحال في القاهرة قبل ثلاث سنوات، تجول بين عدد من المساجد لإلقاء دروسه في ستة أيام كل أسبوع؛ أربعة أيام للرجال ويومين للنساء.

ولكم أتعبه المرض دون أن يُقعده، وقد حاول ولده الدكتور مصطفى أن يمنعه من التدريس بعد أن نصحه الأطباء بالراحة، فأبى ما دام فيه نَفَس، فكان يذهب لدرسه رغم مرضه ليبلِّغ الحق للناس.

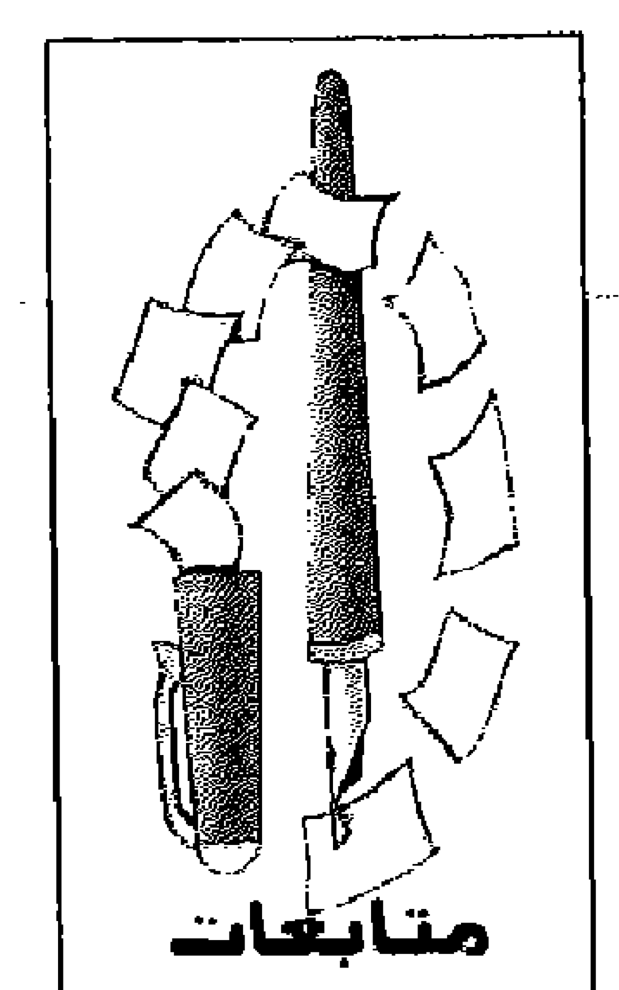
ويكفي الشيخ - وقد لقي ربه بأكثر من سبعين سنة حافلة بالدعوة والجهاد - ما أعقبه الله من ثناء وذكر حسن بين الناس ودعاء.

رحمه الله رحمة واسعة، وأخلف على الأمة في مصابها فيه وفي إخوانه خيراً.

---

(١) كان من مرحه - رحمه الله - أنه كان يحفظ لكل مسألة فقهية موقفاً طريفاً أو دعابة يملأ بها درسه مرحاً ويجتذب انتباه السامعين حتى يسهل عليهم فهم المسائل.





مع رحيل العام رحل الإمام

عبد الله بن سليمان القفاري (*)

لقد استقبل المسلمون في شهر الله المحرم أوائل العام الفائت رحيل عالم الأمة وإمام هذا العصر الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى - واليوم ومع رحيل هذا العام يودع المسلمون عالمَ القصيم وأحد أئمة العقيدة السلفية الشيخ العالم المجاهد محمد بن صالح المنصور، وكان بين رحيل الشيخين الجليلين رحيل كوكبة من علماء الإسلام ودعاته في عام أشبه ما يكون بعام الحزن من هنا وهناك..

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقمتين وبالفسطاط جيراني

وحيثما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لب أوطاني

إن رحيل العلماء ثلمة في مسيرة الأمة.. فهم عمادها المتين وسياجها المنيع أمام تيار الفتن وحوادث الزمن وبموتهم يموت خلق كثير.

لعمرك ما الرزية فَقْدُ مال ... ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد فذٍّ ... يموت بموته خلق كثير

نسبه ونشأته:

هو الشيخ: محمد بن صالح بن منصور المنصور و (المنسلح) لقب لجده صالح الذي انسلح أي انخزل من الشمال في ظروف اختُلِفَ في سببها، وهو من الطوالة من قبيلة شمر القبيلة العربية المعروفة.

من مواليد بريدة عام ١٣٥٠هـ وقد كف بصره بسبب مرض الجدري وهو في السنة السادسة من عمره ولم يكن ذلك عائقاً له عن طلب العلم فقد طلب العلم مبكراً، وحفظ القرآن الكريم ولم يكن تجاوز الثانية عشرة من عمره على يد الشيخ محمد بن صالح الوهيبي.

صفاته:

كان - رحمه الله تعالى - يتسم بصفات عديدة من أبرزها:

١ - حب العلم والعلماء والجد والاجتهاد في تحصيل ذلك مع ما يعانيه من كف البصر؛ فقد أعطاه الله البصيرة الثاقبة والذاكرة الحافظة حتى وهو في مرضه الأخير؛ ولهذا حفظ كثيراً من المتون ومن ذلك: زاد المستقنع، والطحاوية، وألفية ابن مالك، والآجرومية في النحو، والبيقونية في المصطلح، وألفية العراقي وبلوغ المرام وعمدة الأحكام والرحبية في الفرائض، وغيرها. وكان يحفظ عدداً من الوقائع والمناسبات

(*) عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام بالرياض، والمشرف العام على مجلة شباب.

التاريخية بالسنة والشهر واليوم في أحيان كثيرة.. ولهذا يقول عنه الشيخ محمد السعوي: إنه كثيراً ما يحفظ ولا ينسى على كثرة المترددين عليه من سؤالهم عن أقاربهم وأنسابهم.. وإنزالهم منازلهم مع عظيم تواضعه وجميل محياه في لقاء الآخرين سواء منهم الصغير أو الكبير على حد سواء.

٢ - **زهده وبعده عن الدنيا** فلم يكن يحزن عليها كما أنه كان صابراً على البلاء فلا تجده إلا شاكراً لا شاكياً كما يقول الشيخ صالح الونيان، ويقول عنه الشيخ صالح الخضيري إنه كثيراً ما يحمد الله على ما هو فيه من البلاء والمرض ويقول: (إذا عُمِّرَ الإنسان أكثر من سبعين فقد أكل عمره) ويقصد بذلك أنه أخذ نصيباً وافراً من عمره وحياته. ويقول أحد تلاميذه: إي والله! لقد كان الشيخ مشتاقاً إلى لقاء ربه، عازفاً عن الدنيا، مستبطئاً للموت، وكان يقول كل ليلة في مرضه: اللهم إني قد اشتقت إليك. ولقد دعوت له مرة بطول العمر، فقال: وما أصنع بطول العمر؟ ولكن عسى الله أن يقبضني على الإسلام! وفي مثل شيخنا أبي صالح يجمل قول الشاعر:

وكيف تبكي فائزاً عند ربه
له في جنان الخلد عيشٌ مخرفج[١]
وقد نال في الدنيا سناءً وصيتة
وقام مقاماً لم يقمه مزلج[٢]

٣ - الجرأة في قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الخاصة والعامة لا يخاف في الله لومة لائم؛ فقد كان يقول ويكتب ما يراه حقاً في كثير من الأمور التي يحتاجها المسلمون والنوازل التي تنزل بهم والقضايا التي تهمهم، وكان محتسباً ذلك عند الله - عز وجل - لا يرجو من أحد جزاءً ولا شكوراً وهي من أبرز ما اتصف به الشيخ - رحمه الله - وبز به أقرانه.

٤ - العبادة الجمة، والعمل الصالح المبرور من القيام والصيام والذكر والتلاوة مع حرصه الشديد على إخفائها متحرياً بذلك حسن الإخلاص وجميل المتابعة، وكان ذلك ديمة اقتداءً بقول النبي ﷺ: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»[٣] ولهذا لم ينقطع عنه أبداً حتى في أيامه الأخيرة؛ وصراعُه مع المرض لم يمنعه ذلك، مما كان له حسن الختام ورفع المنزلة في قلوب الناس من آلاف المشيعين له والباكين على فراقه.

٥ - حبه للأعمال الخيرية والعلمية على اختلافها وتنوعها وتشجيعه لمن يقوم بها وزيارته والاتصال به ودعمه مادياً ومعنوياً سواء كان على المستوى المحلي أو العالم الإسلامي.

سفره لطلب العلم وصبره عليه:

عند بلوغه السنة السادسة عشرة من عمره وهي مرحلة الحيوية والنشاط والمرح ومع ذلك فإنه كان شغوفاً بالعلم مشتاقاً إلى العلماء مما دفعه للسفر إلى الرياض؛ وكانت تلك الرحلة علامة بارزة في حياته تدل على الصبر والجد والاجتهاد؛ وذلك حينما طلب من أحد سائقي السيارات وهم ما يسمون باللهجة العامية: (الحمالية) أن ينقله إلى الرياض، فطلب منه السائق أجرة الطريق فلم يكن الشيخ يملك شيئاً لصغر سنه وكف بصره مما جعله يلح على هذا السائق ولكن لا جدوى.. ففكر قليلاً ثم جلس وتلمس بيده إطار (كفر) السيارة وهي ما تسمى بـ (الوانيت) وجلس بجوار الإطار وعندما

(١) مُخَرفَج: أي واسع.
(٢) مزلج: أي الرجل الناقص.
(٣) رواه البخاري، ح/٥٩٨٣.

شعر بتحرك السيارة ومن فيها صعد وجلس متعلقاً على حديدة (سستة) قريبة من إطار السيارة ولم يعلم به أحد واتجهت السيارة في طريقها إلى الرياض ولم يكن الطريق سهلاً؛ فقد كان وعرا ترابياً مما عرَّض السيارة إلى الوقوف في أدغال الرمال في مكان يسمى بـ (نفود الربيعية) قريباً من قرية الربيعية شرق بريدة، وعند نزول الركاب وقائد السيارة فوجئوا بوجود الغلام وقد أرهقه التعب وأضناه النصب، وكاد يسقط بسبب آلام الكتف واليدين فتأثر الركاب بهذا المشهد وظهر عليهم علامات الحزن والأسى مما جعل أحدهم يتكفل بهذا الغلام ويدفع عنه تكاليف النقل.

وعند وصولهم إلى الرياض أوصلوه إلى منزل الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي عام المملكة وجلس يطلب العلم في حلقات الشيخ وسكن بما يسمى بـ (الرباط) وهو مكان سكن طلاب العلم آنذاك. وقد واصل طلب العلم على الشيخ لمدة ٧ سنوات بالإضافة إلى مجموعة من علماء الرياض من أبرزهم: الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ عبد الرحمن بن قاسم، كما طلب العلم على يد الشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ محمد بن صالح المطوع، والشيخ عبد الله الخليفي، حيث حفظ عليه كثيراً من المتون، ثم أكمل دراسته الجامعية وتخرج في كلية الشريعة بالرياض - رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة -.

وكان كثيراً ما يذكر شيخه محمد بن إبراهيم؛ كما أنه تأثر كثيراً عند وفاة شيخه عبد العزيز بن باز وكان ذلك واضحاً على صحته.

أبرز طلابه:

كان للشيخ دور كبير في إبراز نخبة من العلماء الذين تتلمذوا عليه وهم الآن يتقلدون مناصب علمية بارزة منهم:

معالي الشيخ: عبد الله بن عثمان البشر، والشيخ العالم المحدث: عبد الله بن محمد الدويش - رحمه الله تعالى - فقد لازمه ٦ سنوات، وفضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان عضو هيئة كبار العلماء حيث حفظ عليه الزاد كاملاً، والشيخ سليمان العمرو رئيس محاكم مكة المكرمة، والشيخ الدكتور صالح الحيميد رئيس محاكم المدينة المنورة، والشيخ يحيى اليحيى، والشيخ دبيان الدبيان، والشيخ علي الخضير، ومجموعة كبيرة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإمام بالقصيم ومنهم فضيلة الشيخ سليمان العودة، والشيخ عبد العزيز العقل، والشيخ الدكتور صالح الونيان، والشيخ الدكتور سليمان العبيد، والشيخ الدكتور عبد العزيز البجادي والشيخ الدكتور محمد المنصور الفايز، والشيخ تركي الغميز، والشيخان: يوسف وعبد الرحمن العقل، وكذلك الشيخ الدكتور محمد الفوزان رئيس قسم الدراسات القرآنية بكلية المعلمين بالرياض، والشيخ محمد المحيسني، والشيخ عبد الله الجبر، والشيخ علي المنسلح، والشيخ صالح الخضيري، ومجموعة من القضاة منهم: الشيخ إبراهيم الحسني قاضي محكمة المجمعة، والشيخ صالح الصقعبي، والشيخ عبد الرحمن الصعب رئيس محاكم محايل عسير، والشيخ خالد القفاري والشيخ يوسف العبيد، والشيخ عبد الرحمن المرشود، والشيخ عبد العزيز المشيقح، والشيخ محمد المشوح، والشيخ فيصل الحازمي، وغيرهم كثير.

أعماله:

في عـام ١٣٧٨ هـ تولى منصب القضاء في (تربة) بعد التخرج في كلية الشريعة، ثم انتقل إلى السليل، ثم إلى الباحة ومنها انتقل إلى تبوك، ثم إلى مكة المكرمة. وفي عام ١٣٨٩ هـ طلب الإعفاء من فضيلة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم لعدم رغبته في القضاء وعمل مديراً لمعهد النور في بريدة، ثم تفرغ للعمل مرشداً وموجهاً للمكتبة العلمية في بريدة والتدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم في قسم العقيدة ثم تقاعد في عام ١٤١٠هـ.

بعد ذلك تفرغ للتدريس في مسجده في جنوب بريدة، ثم انتقل إلى مسجده بحي السلام شرق بريدة، علماً أنه بدأ التدريس عام ١٣٧٩ هـ أي منذ ما يقرب من ٤٠ عاماً حين كان في الرباط وأثناء الدراسة بالكلية يومياً ما عدا يوم الجمعة، ولم ينقطع عن التدريس إلا قبل وفاته بشهرين تقريباً عندما اشتد به المرض.

إنجازاته العلمية:

تفرغ للتعليم والتدريس في مسجده وكان من دروسه: بعد صلاة الفجر شرح كتاب العقيدة الطحاوية، وكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، والواسطية في العقيدة لابن تيمية، والأصول الثلاثة، وآداب المشي إلى الصلاة، وكشف الشبهات، وبلوغ المرام في الحديث لابن حجر، وعمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي وزاد المستقنع لموسى الحجاوي في الفقه الحنبلي والرحبية في الفرائض، والبيقونية في مصطلح الحديث، وألفية ابن مالك في النحو حتى الساعة السابعة والنصف تقريباً.

ثم بعد صلاة العصر يجلس في مجلسه للرد على المكالمات واستقبال الزوار والرد على استفتاءاتهم وتساؤلاتهم، وبعد صلاة المغرب يقوم بشرح كتاب زاد المعاد وكتاب متن الآجرومية، وفي وقت العشاء يعمد إلى شرح موطأ الإمام مالك، وتفسير ابن كثير. وبعد الانتهاء من تفسير ابن كثير يبدأ بتفسير السعدي. هذا بالإضافة إلى الكتب التي كانت تُقرأ عليه بعد نهاية شرحه لهذه الدروس وهي كثيرة ومتنوعة، ومنها: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد.

مؤلفاته:

كان له مجموعة من المؤلفات منها: شرح الزاد، وشرح العقيدة الطحاوية، وكتاب الرد على (علي السقاف) كما قام بكتابة ومراجعة وتقريظ لكتاب الشيخ حمود العقلاء في حكم دخول الكفار للجزيرة العربية، وقد طبع منها كتاب الرد على السقاف، وكذلك كتب بعض الفتاوى والرسائل في مناسبات عديدة من آخرها الرد على الكاتب تركي الحمد.

عبادته:

كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ ممن يتميز في هذا الجانب بكثرة عبادته وطول قيامه، فقد كان ـ كما تقول إحدى زوجاته ـ: إنه لم يمض يوم واحد منذ تزوجت الشيخ فاته فيه قيام الليل، وكان يقوم ـ رحمه الله ـ من الساعة الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة ليلاً حتى الفجر، أي ما يقارب ٥ إلى ٦ ساعات تقريباً، ثم يضطجع حتى أذان الفجر. وقد أكد ذلك الشيخ محمد السعوي عندما كان معه في أحد أسفاره للدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ فقد كان يقوم من منتصف الليل.. وكان يصوم يوم الإثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر، ويحافظ على ركعتي الضحى ويطيل القراءة فيهما والسجود، ويختم القرآن حفظاً كل ثلاثة أيام حتى أيام مرضه الأخير كما يقول ابنه عبد الله الذي رافقه في المستشفى.

وكان يحضر مبكرا إلى صلاة الجمعة، وكان كثيراً ما يختم القرآن، ومما يذكر ابنه عبد الله: أنه سمع أباه يقرأ في قيام الليل في أحد أيام مرضه الأخيرة سورة البقرة، وفي الليلة التي تلتها سورة يس وعندما سأله ابنه عن هذا الموقف تأثر الشيخ وتغير لون وجهه ونهاه عن متابعته، ولقد كان الشيخ على هذه الحال من العبادة حتى في صغر سنه؛ فقد ذكر ابنه عبد الله نقلاً عن الشيخ صالح الأطرم أنه عندما كان والده في بداية طلب العلم في الرياض كان يكثر قيام الليل حتى إنه كما يقول الشيخ صالح يشغلنا عن النوم، وكثيراً ما يحثنا على القيام ويكرر ذلك حتى لا نجد فرصة للنوم.

مع الأسرة:

للشيخ - رحمه الله - ثلاث زوجات وله منهن: خمسة عشر من الذكور وثماني عشرة من الإناث - جعلهم الله خير خلف لخير سلف - وكان يتعامل كما يقول أبناؤه معهم باللين والرفق والتوجيه والتهذيب وأحياناً الترغيب والترهيب إذا اقتضى الأمر ذلك، كما أنه كان يجلس مع أولاده من الساعة العاشرة والنصف صباحاً تقريباً حتى الظهر بعد أن يصلي صلاة الضحى ويقوم أحد أبنائه أو بناته بالقراءة عليه حتى أذان الظهر.

اهتمامه بالمسلمين:

كان يهتم بأمر المسلمين اهتماماً كبيراً، ويكتب الرسائل والفتاوى في ذلك للعامة والخاصة، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ وهذا الجانب مما برز فيه الشيخ - رحمه الله تعالى -، وقد سافر للدعوة إلى الله - عز وجل - وحضور الندوات والمؤتمرات ومن ذلك كان سفره إلى أمريكا والكويت والسودان، وكان مما أشغل باله كثيراً في السنوات الأخيرة قضية الشيشان حتى وهو في مرضه الأخير - وقد أغمي عليه - يقوم من الليل وهو يقول لابنه عبد الله: اكتب عن الشيشان! اكتب للمسلمين والحكام بمناصرتهم ومؤازرتهم، وكثيراً ما يكرر ذلك ويلح إلحاحاً شديداً حتى نخشى على صحته حتى كانت وصيته التي ختم بها حياته محملاً الأمانة إلى من يهمه الأمر كل حسب مكانته واستطاعته.

وكان يقوم على آلاف الأسر المحتاجة في الداخل والخارج ويكفلهم ويرعاهم وهو بعيد عن أعينهم، وكذلك فقد أنشأ في السودان سبعة مساجد وملجأ للأيتام يضم ألف يتيم، ومسجدين في الفلبين على نفقته الخاصة. كما يقول عنه الشيخ صالح الونيان: إنه كان يسأله عند كل لقاء عن أخبار المسلمين في الشيشان ويحث على الدعاء لهم رغم ما هو فيه من المرض العضال بالإضافة إلى سؤاله عن أخبار الدعوة والدعاة، وكان يوصي بتلمس حاجات الفقراء. ومن ذلك ما يروي الشيخ صالح الخضيري أنه زار الشيخ في أول عام ١٤٢٠هـ ومعه رجل ممن يقوم على بعض الأعمال الخيرية خارج المنطقة فلما سلَّم على الشيخ وأخبرته بمكانة هذا الرجل فسألني إن كان يحتاج إلى مساعدة فقلت: إنه لا يستغني عن إعانتكم، فأدخل الشيخ يده في جيبه بخفية وأخرج مبلغاً يزيد على الألف ريال فوضعه في يد الرجل بحركة سريعة وخفية حتى لا نراها.

اللحظات الأخيرة:

كان الشيخ يعاني من المرض منذ أمد بعيد في صراعه مع مرض السكري، واشتد المرض عليه منذ سنتين وهو صابر ومحتسب، ثم بعد ذلك أصيب بغرغرينة في أطراف قدمه وأُدخِل المستشفى عدة مرات والأطباء يحثونه على بتر قدمه وهو يقول: (أموت مكتمل الأعضاء، وكل له أجله عشت من الحياة ما يكفيني) إلى أن اشتد به الأمر عندما أصيب بجلطة بالجهة اليمنى في رأسه مما تسبب بشلل للجزء الأيسر من جسمه وذلك في ٢/١٢/١٤٢٠هـ وقد قال لابنه عبد الله: «الأمر نازل بي» يعني الموت. ولم يكن ينام أبداً منذ ذلك التاريخ وكثيراً ما يقول: اللهم إني اشتقت إلى لقائك، ويكررها كثيراً ويذكر حديث: «من أحب لقاء

الله أحب الله لقاءه»[1].

كذلك كان كثيراً ما يذكر أحوال المسلمين وخاصة الشيشان مع أنه يغمى عليه، وكان حريصاً جداً على وقت الصلاة، فإذا دخل الوقت أو قرب دخوله أفاق من إغمائه وقال: هل دخل الوقت؟ فيُخبر بذلك، فيجلسونه، ثم يتيمم ويبدأ بالصلاة وكأنه نَشِطَ من عقال.

وفي يوم الخميس الموافق ٢٤/١٢/١٤٢٠هـ نقل الشيخ إلى مستشفى التخصصي بالرياض وقد وصل إليه عند الساعة الثالثة ظهراً وكان يقرأ القرآن طيلة الطريق، وأثناء مكوثه في المستشفى لم ينم تلك الثلاثة الأيام هو وابنه عبد الملك الذي كان يرافقه، وكان يقول لابنه: اجمع الصلاة؛ فأنت في سفر. وفي يوم السبت الموافق ٢٦/١٢/١٤٢٠هـ كان وقت الرحيل إلى الرفيق الأعلى حيث كان الشيخ منذ فجر ذلك اليوم وهو يقرأ القرآن ويصلي ما شاء الله أن يصلي حتى قبيل المغرب؛ حيث جاء العشاء؛ فكان ابنه يعرض عليه العشاء وكأساً من الحليب وكان يقول له: سوف أكمل القرآن. وعندما أذَّن المؤذن لصلاة المغرب دخل الشيخ في صلاته وأكمل قراءة القرآن، ثم بعد أن انتهى منها استمر في قراءته وإلحاحه على ربه حتى سقط رأسه، وقُبِضَتْ روحه إلى بارئها وابنه بجواره ممسك بعشائه كأن الشيخ ينتظر له موعداً بفارغ الصبرِ؛ وحنينُ الشوق شغله عن طعامه وشرابه (اللهم إني اشتقت إلى لقائك) وكان آخر ما نطق به لفظ الجلالة ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

وصيته:

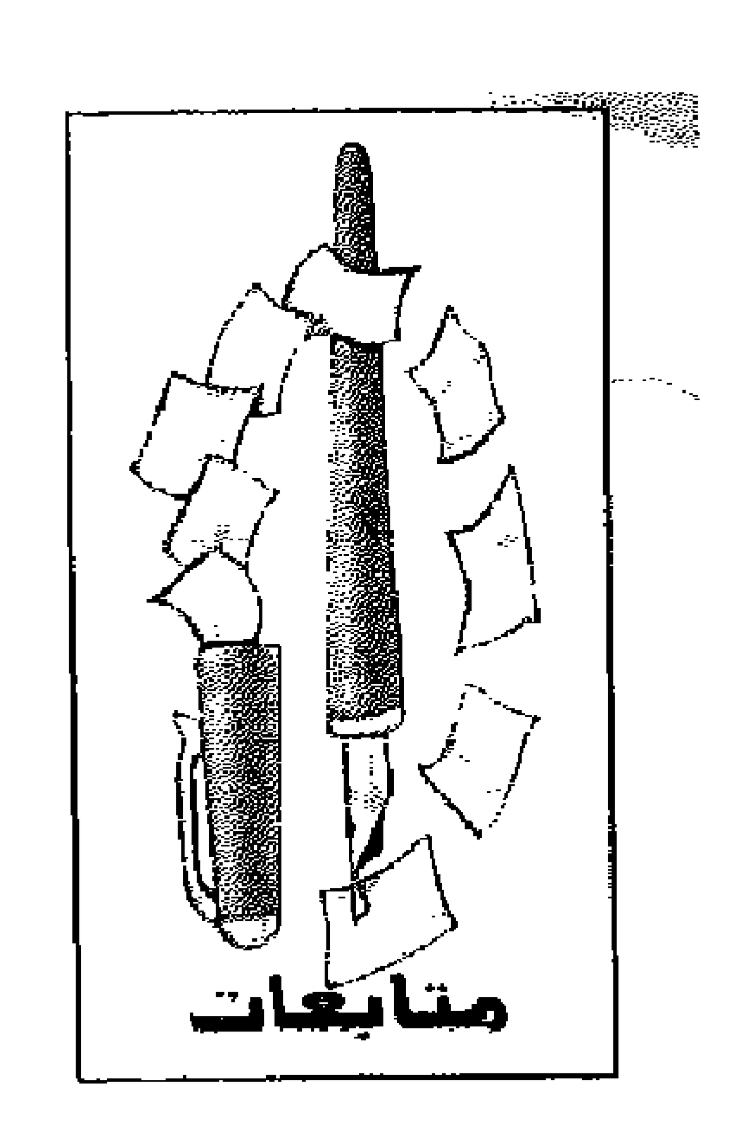
كانت وصيته ـ رحمه الله تعالى ـ كغيره من العلماء الحث على التوحيد والإيمان؛ كما حث أولاده على الصلاح والثبات على الحق وعدم البكاء عليه... وكان مما أوصى به أن يغسله الشيخ الدكتور صالح الونيان ويؤم المسلمين للصلاة عليه، وكذلك أوقف عمارة كاملة في مدينة بريدة لرعاية المساجد والمراكز التي أنشأها في الخارج.

وفي مشهد مهيب حضر آلاف المصلين من أقطار المملكة إلى جامع الشيخ صالح الونيان في بريدة، وامتلأ بهم المصلى والساحات المحيطة بالمسجد في مشهد مهيب قَلَّ نظيره تأثر منه الكثيرون، وسالت منه الدموع واختلطت بماء السحاب وزخات المطر، وسارت هذه الحشود بعد الصلاة على الشيخ مشياً على الأقدام متقاربين في صفوف ممتدة حتى المقبرة وقد علت جنازته على الأكتاف والأعناق يتدافعون إليها حرصاً على القرب من جنازته مذكرة بجنازتي الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ صالح الخريصي ـ رحمهم الله تعالى جميعاً ـ حتى وصلوا المقبرة مشياً على الأقدام وقد صلى عليه المئات أكثر من مرة وهو في طريقه إلى قبره. هذا المشهد العظيم الذي لم تشهد المنطقة مثيله ذكَّرنا بمقولة الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: (موعدهم يوم الجنائز). ولم ينفضَّ الجمع الغفير إلا مع صلاة المغرب، فكانت اللحظات الأخيرة التي يواري المسلمون فيها جثمان هذا العالم الجليل، وحينها خطر ببال الكثيرين ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» رواه البخاري.

رحم الله الشيخ وتغمده برحمته، وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، والله نسأل أن يخلف خيراً على الأمة الإسلامية.

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٦٠٢٦.





نظرات في العالمية الإسلامية الثانية

صلاح الخليفة أحمد الحسن

حدثني أحد الأكاديميين بلهجة قوية عن كتاب من جزأين عنوانه: (العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة) من تأليف (أبو القاسم حاج حمد) باعتبار هذا الكتاب يمثل نقطة تحول في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر. وقد تشوقت نفسي إلى اقتناء الكتاب المذكور أملاً أن أجد فيه ما يجعلني أشعر بأن هناك جهوداً ضخمة تبذل من قِبَل المفكرين المسلمين المعاصرين في خدمة الدعوة الإسلامية، وقد عكفت لأيام متصلة على قراءة الكتاب واستيعاب قضاياه، وأرجعت البصر فيه كرتين، وقد خرجت من قرءاتي للكتاب المذكور بأشياء كثيرة منها:

١ - رؤية الكتاب للمذاهب الغربية:

استطاع الكاتب أن يبين الثغرات التي تشتمل عليها الشيوعية والرأسمالية، وقد انتقدهما بقوة، وأكَّد على اضمحلال الفكر الشيوعي والرأسمالي ووراثة الإسلام لذلك. وقد تميز العرض والنقد والتقييم والتقويم الذي قام به الكاتب تجاه المذاهب الغربية بالقوة والمنطقية، وكان الأمل أن يسير على النهج نفسه في تناوله لبعض القضايا التي عرضها في كتابه.

٢ - منهج جديد للحديث النبوي:

كانت المفاجأة الأولى عند قراءتي للكتاب المذكور أن وجدت الكاتب قد ابتدع منهجاً جديداً للحديث النبوي؛ حيث يحدثنا الكاتب عن ضوابط الاستخدام المنهجي النبوي للغة فيقول: «سبق أن أكدت على الاستخدام الإلهي المميز لمفردات اللغة العربية؛ فإنني أؤكد أيضاً على التوافق والانسجام التامَّين بين لغة الرسول ﷺ ولغة القرآن؛ بحيث لا يحدث التضارب في المعاني والدلالات، واتخذت نموذجاً لذلك الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ والذي يَرِدُ فيه القول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] وأوضحت تضاربه مع آيتين وردتا في القرآن الكريم، الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤] والثانية: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ

---

(١) متفق عليه، محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ٢ / ٢٤٢.

ولكن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٤٦]، إن دلالات (راعنا) التي نهى الله عنها مرتين واستبدلها بـ (انظرنا) خطيرة جداً؛ فراعنا تحط من قدر الناس بتحويلهم إلى (رعية) من مرعى؛ حيث يقودها الراعي بعصاه، أما (انظرنا) فمن النظر والعناية والتكافؤ، ولم يستخدم الله في كل القرآن مفردة مراعاة أو رعاية وإنما استخدم مفردة (عناية) رجوعاً إلى العين والنظر؛ فالمسألة هنا منهجية؛ إذ ترتبط بمضمون العلاقة بين الله والبشر وبين الأنبياء والبشر، فلا تنحط إلى دونية البهائم؛ فالله لا يستلب الإنسان ولا يحط من قيمته، وقد عزا الله ذلك إلى تحريفات اليهود في آية النساء رقم ٤٦؛ فلغة الرسول ﷺ تتوافق بالضرورة المنهجية مع لغة القرآن؛ كما أن الذين جاؤوا بهذا المتن حول الرعية والمراعاة لم يتبينوا موقف القرآن من مجتمعات البداوة والرعي؛ فقد أظهر الله ما تنطوي عليه سلوكيات تلك المجتمعات من قسوة ونفاق»[1]. وهكذا يرفض الكاتب الحديث النبوي الثابت: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» وفقاً لمنهجه الجديد الذي يجعل لغة القرآن مرجعاً لتوثيق متن الأحاديث أياً كان سندها. ووفقاً لمنهجه هذا لا بد من مراجعة الأحاديث التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم اللذين تلقتهما الأمة بالقبول.

ومع هذا الرفض التام لكلمة (رعى) من الكاتب ولكل ما اشتق منها فيما يتعلق بالأحاديث النبوية وسيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه - رضي الله عنهم - يناقض الكاتب نفسه في موضع آخر من كتابه؛ إذ يقول: (إن نظرة وضعية للفارق بين الوعي المفهومي الجديد الذي طرحه (محمد) على العرب وتركيب العرب العقلي ضمن حالة التعدد الإحيائي توضح لنا إلى أي مدى كانت المهمة شاقة وصعبة بل ومستحيلة دون تدخُّل الله الغيبي؛ فقد كان على أمة من الرعاة أن تصبح سيدة الحكمة في عصرها)[2].

٣ - حجية السنة:

جاء كاتب (العالمية الإسلامية الثانية) بمنهج جديد للحديث النبوي؛ فما وجه الاعتراض عليه؟ يقرر العلاّمة عبد الغني محمد عبد الخالق - رحمه الله تعالى - أن ما جاء عن الله - تعالى - لا يمكن أن يكون فيه اختلاف مع الحديث النبوي؛ إذ كلٌّ من القرآن والسنة من عنده - عز وجل -.

فلا يمكن أن توجد سنة صحيحة الثبوت عن رسول الله ﷺ تخالف الكتاب في الواقع وإن حصلت مخالفة في ظاهر اللفظ؛ لأن المراد من أحدهما - حينئذ - عين المراد من الآخر؛ وكل ما في الأمر أن هذا المراد قد يخفى في بادئ الأمر على المجتهد[3].

وهناك من تمسَّك بأحاديث تدعو إلى عرض السُّنَّة على كتاب الله، ولكن أحاديث العرض على كتاب الله كلها ضعيفة لا يصح التمسك بها؛ فمنها ما هو منقطع، ومنها ما بعض رواته غير ثقة أو مجهول، ومنها ما جمع بينهما؛ وقد بين ذلك ابن حزم في الإحكام، والسيوطي في مفتاح الجنة نقلاً عن البيهقي بالتفصيل[4].

فكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ فهو: حسن جميل، معروف عند العقل السليم، وقد يقصر عقلنا عن إدراك حسنه وجماله، فلا يكون ذلك سبباً في إبطال صدوره عنه، أو حجيته، بل إذا رواه لنا الثقات وجب علينا قبوله، وحَسُنَ الظن به، والعمل بمقتضاه، واتهام عقولنا[5].

---

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ١/٥٩ - ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ٢/١٥٥.

(٣) د. عبد الغني محمد عبد الخالق، حجية السنة، ص ٤٩٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٧٨.

ولكن كاتب (العالمية الإسلامية الثانية) لا يتهم عقله في هذا الصدد إنما يتهم الثقات في رواية أحاديث رسول الله ﷺ.

٤ - رده للحدود الشرعية الثابتة بالكتاب والسنة:

يقول كاتب (العالمية الإسلامية الثانية): «فلا يمكن أن تكون شرعة القرآن هي شرعة (التخفيف والرحمة) ثم تستجيب لروايات تنسب إلى الرسول ﷺ تطبيق شرعة (الإصر والأغلال) فإذا استجبنا لذلك فإن المسألة ستنتهي لما هو أخطر؛ فالقول بأن الرسول قد طبق شرعة الإصر والأغلال فذاك يعني أنه - أي الرسول - ليس هو النبي الأمي المبشَّر به في سورة الأعراف والذي من علائمه أنه يضع عن اليهود ومعتنقي الديانات السابقة شرعة الإصر والأغلال، ويتحول بالدين نحو الخطاب العالمي»[١].

ويقرر الكاتب بأن الرجم وغيره من الحدود الشرعية هو من كيد اليهود؛ وذلك بهدف إبطال النبوة الخاتمة التي تنزلت على غيرهم[٢].

والسؤال: هل اليهود يريدون للحدود الشرعية أن تطبق في واقع المسلمين حتى يدسوا مثل هذه الأحاديث بين المسلمين؟ إن الكاتب من حيث يدري ولا يدري يخدم الأهداف اليهودية التي لا تريد للحدود الشرعية أن تطبق في المجتمع المسلم باعتبارها تمثل حجر الزاوية في مجال الضبط الاجتماعي في الإسلام.

يريد الكاتب من المسلمين أن يتخلوا عن الحدود الشرعية باعتبارها شرعة توراتية حتى يقتنع الإنسان المعاصر بالدعوة الإسلامية؛ فالإصرار على تطبيق الحدود الشرعية (من شأنه حصر الإسلام ضمن حدود عالميته التقليدية حيث يتعامل مع الناس من منطلق الإيمان الوراثي)[٣].

ويعمل الكاتب على إيراد تفسير جديد لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فيقول: «قد أراد الله عبر هذا النص أن يطلعنا على تسببه التشريع المنزل تبعا للحالات التاريخية والأوضاع الاجتماعية المختلفة. إن عقوبات القطع والرجم والجلد كانت سارية المفعول في ذلك العصر التاريخي السابق على الإسلام. إن الثابت في التشريع هو (مبدأ العقوبة) أو الجزاء؛ أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة لكل عصر حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه - بهذا استوعب القرآن متغيرات كل العصور، ويبقى كما أراد له الله صالحاً لكل زمان ومكان»[٤].

هكذا تفعل منهجية الحداثة فعلها في رد النصوص الشرعية ومتابعة الهوى في تفسيرها.

٥ - الأصول العامة لمنهج المبتدعة في الاستدلال:

تشمل الأصول العامة لمنهج المبتدعة في الاستدلال الآتي:

الأصل الأول: رد النصوص والجرأة في الاعتراض عليها.

الأصل الثاني: العبث في الأصول الشرعية للاستدلال وتشويهها.

الأصل الثالث: إحداث أصول بدعية جديدة للاستدلال والتلقي[٥].

فهل يخرج كاتب (العالمية الإسلامية الثانية) عن الأصول العامة لمنهج المبتدعة في الاستدلال؟ لقد أخذ الكاتب بحظٍ وافر من تلك الأصول في رده

---

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ١/٦٤.

(٢) المرجع السابق، ١/٦٤.

(٣) المرجع السابق، ٢/ ٤٩٥.

(٤) محمد ابو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ٢/ ٤٩٦، ٤٩٧.

(٥) أحمد عبد الرحمن الصويان، مجلة البيان، العدد ٩٦، ص ١٠، مقال بعنوان: المنهج العلمي للاستدلال بين أهل السنة وأهل البدعة.

للأحاديث الصحيحة وتشويهه للأصول الشرعية وتأسيسه لمنهج مبتدَع في هـذا الصدد ، والكاتب لا يخرج في ذلك عما نبه إليه ابن تيمية من قول بعض رؤوس الجهمية - بشر المريسي أو غيره - أنه كان يوصي أصحابه إذا جادلوا أهل السنة قائلاً : «إذا احتجوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتكذيب، وإذا احتجوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل»[(١)] هذا هو منهج المبتدعة في تعاملهم مع الكتاب والسنة.

وللفلسفة وزن كبير في التكوين الفكري للكاتب في الوقت الذي نجد أن العلوم الشرعية عنده تكاد تكون غائبة ، وذلك له أبلغ الأثر في فكره الذي طرحه عبر (العالمية الإسلامية الثانية) ، وكما يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - «ومن المعلوم أن المعظِّمين للفلسفة والكلام المعتقدين لمضمونها هم أبعد الناس عن معرفة الحديث ، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه وحديث مكذوب موضوع عليه ، وإنما يعتمدون في موافقته على ما يوافق قولهم سواء كان موضوعاً أو غير موضوع»[(٢)].

ولله درُّ ابن تيمية ؛ إذ نجد أن الكاتب يردُّ بعض الأحاديث المتواترة في الوقت الذي يقبل فيه حديثاً باطلاً لا أصل له مع شهرة لفظه وهو : «اطلبوا العلم ولو بالصين» إذ أورده في كتابه (١/٢٥٥) في الوقت الذي قال فيه ابن حبان : هو باطل لا أصل له ، وفي إسناده أبو عاتكة وهو منكر الحديث . وقد أخرج هذا الحديث البيهقي في الشعب ولفظه مشهور وأسانيده ضعيفة ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات[(٣)].

٦ - منهجه في تفسير القرآن الكريم:

يقرر الكاتب بأن منهج الرسول ﷺ هو (حاكمية كتاب) مطلق لتتوارثه الأجيال ؛ لذلك فهو يرفض من يقول بأن الرسول قد وضع تفسيراً للقرآن[(٤)]. وهو بذلك يرد ما أوردته كتب السنة من تفسير نبوي لبعض آيات الكتاب المبين الذي نص القرآن على أن الرسول ﷺ من ضمن رسالته أن يبين للناس آيات التنزيل : ﴿ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤].

ويقرر الكاتب بأنه ليس ضد فهم السلف للقرآن بموجب التركيبة التي تناولوه من خلالها ؛ غير أن تكشُّف القرآن عن تركيبة أخرى يجعلنا في مواجهة عطاء جديد ظل مكتوباً لمرحلة تاريخية خطيرة ، مرحلة يهيمن بها القرآن على كل مناهج الفكر الوضعي ، ويتجاوز بها كل معطيات الوضعية السلفية الدينية[(٥)].

ويقرر الكاتب بكل ثقة بأنه مُقْدِم على عمل كبير في دراساته القرآنية التحليلية جعله الله من بدايات القرن الخامس عشر الهجري يشمل فهماً جديداً ناسخاً لمفهومات الوضعية العلمية والوضعية الدينية على سواء[(٦)].

ولا يرى الكاتب أي غضاضة من أن يذكر بأن المنهج عبر التحليل قد أصبح بديلاً عن النبوة وذلك ليستدرك الإنسان بالتطور ضمن مقوماته الوضعية ما لم يستدركه بالتزكية النفسية ضمن مقوماته الروحية[(٧)].

٧ - محاكمة النصوص إلى الدماغ المعاصر:

لا يختلف الكاتب عن العلمانيين الذين يشن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ٤ / ٩٥.

(٣) محمد بن علي الشوكاني ، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، ص ٢٧٢ .

(٤) محمد أبو القاسم حاج حمد ، المرجع السابق ، ١/ ٦٦ .

(٥) محمد أبو القاسم حاج حمد ، المرجع السابق ، ٢/٤٨٢ .

(٦) المرجع السابق ، ٢ / ٤٨٣ .

(٧) المرجع السابق ، ٢/ ٤٩٣.

عليهم هجومه في كتابه من حين لآخر وذلك في محاكمته للنصوص الشرعية إلى الدماغ المعاصر؛ فالإسلام يحاكم غيره ولا يتحاكم إلى غيره بأي حال.

ويتضح بيان منهج الكاتب في محاكمة النصوص القرآنية إلى الدماغ المعاصر في قوله: «إذا تتبعنا مراحل التطور في التفكير الإنساني على ضوء فرضيات (جون ديوي) و (آثر بتلر) نستطيع أن نميز خصائص السلوك الفكري العربي في تلك الآونة بانتمائه إلى مرحلة الحركة الذاتية (sefaction) وهي مرحلة تتميز خصائصها بمحاولة الإنسان تفسير كل ظاهرة من ظواهر الكون بمعزل عن غيرها من الظواهر، فلم يكن الإنسان في تلك المرحلة قد أدرك ما بين ظواهر الكون جميعاً من علاقات، وقد أطلق رجال علم الأجناس البشرية على تلك المرحلة اسم الأنيميا (Animistic stage). وبغضِّ النظر عن حقيقة التطورية أو بطلانها فالمهم أن التطورية بمدارسها المختلفة - غير الداروينية الآن - هي جزء من الدماغ المعاصر وتتضمن إسقاطاته النظرية على كل المواضيع بما فيها آيات الكتاب»[1].

وقد استخدم الكاتب مصطلح (التاريخيانية) ومصطلح (القطيعة المعرفية) بنفس المعنى المستخدم عن أهل النظرة العلمانية.

٨ - إنكاره للمعجزات النبوية ما عدا القرآن الكريم:

يولع بعض الباحثين على شاكلة كاتب (العالمية الإسلامية الثانية) في تصوير حياة النبي ﷺ بعيداً عن الخوارق والمعجزات، وإذا أمعنا في منبع هذه النظرية عن رسول الله ﷺ نجد أنها في الأصل فكرة بعض المستشرقين والباحثين من الأجانب أمثال (جوستاف لوبون) و (أوجست كونت) و (هيوم) و (جولد زيهر) وغيرهم، ثم تلقَّف هذه النظرية منهم أناس من المسلمين كان من سوء حظ العالم الإسلامي أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أي مؤيد سوى الافتتان بزخرف خداعهم، وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوروبا، وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده، ومحمد فريد وجدي، وحسين هيكل[2].

يقول كاتب (العالمية الإسلامية الثانية): «ثم يأتي من يفترض له معجزات كجريان لبن من بين أصابعه، أو تكثير خبز ليضاهوه بمن سبقه من الأنبياء، وهؤلاء - مع غيرتهم - قد جهلوا منهاج نبوته ورسالته وخصائصه وخصائص نبوته، فاختصروه إلى وعيهم الذاتي وهو أكبر من ذلك بكثير وبما لا يدرك منه إلا قليلاً»[3].

فالكاتب بإنكاره لمعجزات النبي ﷺ الحسية يخدم أهداف علماء الاجتماع الغربي والمستشرقين بعيدة المدى، ويجتر نظرياتهم العتيقة في هذا الخصوص ليجدد الدماء في عروقها؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - تقييمه لفكر ابن عربي:

يقرر الكاتب بأنه قد نسب إلى ابن عربي زوراً وجهلاً القول بوحدة الوجود والاستبطان الغنوصي والتأثر بالفلسفات الإغريقية والهندية؛ غير أن الدراسات المعاصرة قد قيَّمت فلسفته خارج إطار تلك المنسوبات من هذه الدراسات القيمة - على حد قول الكاتب - ما أصدره الدكتور (نصر حامد أبو زيد)[4]، فمن هو (نصر حامد أبو زيد) الذي استند إليه الكاتب في تقييمه لفلسفة ابن عربي؟!

والحقيقة أن الطيور على أشكالها تقع، فقد

(١) المرجع السابق، ٢/٤٩١.

(٢) د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) محمد أبو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ١/٤٥١.

(٤) المرجع السابق، ١/٤١٢.

طُرِحَت آراء مشبوهة من أمثال (فرج فودة) و (سعيد العشماوي) و (محمد أحمد خلف الله) ثم ما أثاره مؤخراً (نصر حامد أبو زيد) في كتاباته ومنها: (مفهوم النص) و (إشكاليات القراءة وآليات التأويل) و (نقد الخطاب الديني) التي دعا فيها إلى محاكمة «النص القرآني» وتأويل تعاليمه بما يخرجها عن معناها الشرعي، وقد صدرت فتوى من علماء الأزهر بردة (نصر حامد أبو زيد) على ضوء ما كتبه من آراء وأفكار منحرفة في حق الإسلام، والحُكم بالتفريق بينه وبين زوجته[1].

وهكذا يعمل المبتدعة على تصوير ابن عربي مفكراً له إشراقاته وبصماته على الفكر الإسلامي، في الوقت الذي تشهد عليه آثاره بخلاف ذلك؛ فالعلامة ابن خلدون - رحمه الله تعالى - يحكم على الكتب المتضمنة لفلسفة ابن عربي مثل: الفصوص، والفتوحات المكية وأمثالها بإذهاب أعيانها إن وجدت بالتحريق بالنار - والغسل بالماء حتى ينمحي أثر الكتابة لما في ذلك من المصلحة في الدين[2].

١٠ - رؤيته بأن ربط توقيت فرض الصلاة بليلة الإسراء من الإسرائيليات:

جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من دواوين السنة أن الله - تبارك وتعالى - قد فرض الصلاة في ليلة المعراج مع ما هو معلوم من قصة موسى - عليه السلام - مع نبينا محمد ﷺ في هذا الشأن؛ ولكن كاتب (العالمية الإسلامية الثانية) يرى أن ربط توقيت فرض الصلاة بليلة الإسراء (خدعة إسرائيلية) انطلت على المسلمين، وهي ليست مجرد خدعة عبثية، ولكنها مقصودة تهدف إلى التقليل من شأن النبي الخاتم ﷺ وإظهاره بمظهر المتلقي عن موسى بما يبطل إمامة محمد ﷺ لموسى - عليه السلام -، وبما يبطل نسخ القرآن للتوراة، هكذا قالوا: إن الصلاة فرضت في ليلة الإسراء؛ حيث فرضها الله علينا (خمسين) ركعة في اليوم لولا (إقناع) موسى - عليه السلام - المتكرر لمحمد ﷺ للعودة مجدداً وأكثر من مرة إلى ربه ليخفض عدد الركعات، وهكذا - بوساطة موسى - عليه السلام - وتوجيهه لمحمد ﷺ - أصبحت صلواتنا خمساً. ويقرر الكاتب أن الآثار المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في هذا الصدد تجمع بين السخافة والبطلان؛ فمحمد ﷺ إمام لموسى - عليه السلام - وليس العكس، وشريعته القرآنية ناسخة للشريعة التوراتية[3].

أرأيتم كيف أن هذا الكاتب يخلط الأوراق؟ وقد سبق لي أن دخلت في محاورة عبر بعض الصحف اليومية مع أحد منكري السنة النبوية قال بنفس قول هذا الكاتب الذي ذكرته آنفاً.

أين السخافة والبطلان في أن يراجع نبينا محمد ﷺ ربه في شأن الصلاة؟

أليس في هذه المراجعة مكرمة له ﷺ؟ ففي الوقت الذي كان يراجع فيه النبي ﷺ ربه في هذا الخصوص كان نبي الله موسى - عليه السلام - منتظراً في مكانه؛ فأيهما أفضل حسب هذه الرواية؟ وإذا كانت الرواية من نسج اليهود لقالوا بأن الذي كان يراجع الرب - تبارك وتعالى - في هذا الشأن هو موسى - عليه السلام - وليس محمداً ﷺ. وهل يرضى اليهود بأن يروِّجوا بأن نبينا محمداً ﷺ قد عُرج به إلى السماء حتى ينسجوا مثل هذه الرواية التي تثبت معراجه ﷺ، مما ينكره صراحةً أولئك الذين ينكرون السنة النبوية ومعجزاته الحسية ﷺ. إن إنكار مثل هذه المرويات المقطوع بصحتها فيه خدمة عظيمة لليهود والنصارى؛ إذ يعني تشكيك أهل الملة الإسلامية في

(١) انظر افتتاحية مجلة البيان العدد ١٠٨.

(٢) د. كمال محمد عيسى، نظرات في معتقدات ابن عربي، ص ٩٨، ٩٩.

(٣) محمد أبو القاسم حاج حمد، المرجع السابق، ٢/٢٠٠.

معتقداتهم وبلبلة أفكارهم؛ فاليهود... اليهود هم الذين يروّجون لمثل هذه الأفكار في المجتمع المسلم.

١١ - نظرة عصرية جديدة للإبداع الفني:

يقرر الكاتب بأن سائر أنواع الجماليات التي تجسد حيوية الإنسان، وتفاعله مع الحياة تعد مقدمة ضرورية في بناء الإنسان الحضاري الحر المنطلق؛ ويقصد بهذه الأنواع النحت والرسم والموسيقى وسائر الجماليات الأخرى[1].

ويشير الكاتب في هذا الصدد إلى دراسة قيمة - على حد زعمه - كتبها (عبد المجيد وافي) بعنوان: (محمد والفنون) صدرت ضمن مجموعة مقالات: (محمد نظرة عصرية جديدة)، وقد كفت هذه الدراسة الكاتب - كما يقول - عناء الموضوع، على ما في المعاناة من متعة؛ فقد أوضح وافي موقف القرآن والرسول من هذه الفنون بقوله: ولم يكن لرسول الله ﷺ موقف مباشر يهدف إلى إباحة شيء بعنوان الفنون، أو تحريم شيء بعنوان الفن[2]. هذا القول المغلوط لا يمكن الأخذ به بكل هذه البساطة؛ فما تُوفي رسول الله ﷺ إلا من بعد ما بيَّن للأمة كل جزئية تقربهم من الله - تبارك وتعالى - أو تبعدهم عنه، وللإسلام كلمته القاطعة فيما يتعلق بالآداب والفنون، يؤخذ ذلك من كتاب الله - تعالى - وسنة الرسول ﷺ؛ فهناك (أدب إسلامي) وفن (إسلامي) كما أن هناك (أدباً جاهلياً) و (فناً جاهلياً) ولكن الكاتب الذي يتجرأ في رد أحاديث النبي ﷺ القطعية الثبوت له رؤية أخرى في هذا الموضوع؛ إذ يقول: «والملاحظ هنا أن حجج المجوِّزين تعتمد على القرآن فيما رواه عن (سليمان) و (عيسى)، وحجج المحرِّمين تعتمد على أسانيد (الأحاديث) وأهمها الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ برواية ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو حديث متفق عليه في قوله: «الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم» وكان بإمكاننا حل المسألة في هذه الحدود بتكذيب مسندات الأحاديث؛ لأنها متعارضة مع نص قرآني. والرواة - كما نعلم - ليسوا أنبياء مهما تحققوا من مصادر الإسناد»[3]. والهوى يجعل الكاتب يرى أن الحدود الشرعية التي وردت في القرآن الكريم تتعلق بشرعة الإصر والأغلال التي جاء بها موسى - عليه السلام - فهي منسوخة، والهوى يجعله يرى أن ما أورده القرآن عن (سليمان) و (عيسى) - عليهما السلام - فيما يتعلق بالصور والتماثيل غير منسوخ في شريعة نبينا محمد ﷺ!!!

وبالرغم من أن الكاتب قد انتقد المذاهب الغربية بقوة كما بينا آنفاً إلا أنه عاد يكيل المدح لها مشيداً بروائعها الفنية والجمالية والحضارية؛ لأنه يريد للمسلمين أن يحذوا حذوها شبراً بشبر وذراعاً بذراع في هذا المجال، يقول (محمد أبو القاسم حاج حمد): «هناك تصدح في ساحات (فيينا) كل مساء روائع الموسيقى التي أصبحت عالمية، وفي زواياها تنتصب تماثيل العباقرة من أبنائها الذين استلهموا معنى النغمة من الحياة»[4].

وهل إنتاج أوروبا الفني والجمالي والحضاري نشأ من فراغ دون أن يكون لمذاهبها التأثير في تكوينه؟ وهل يتفق ذلك مع المذهبية الإسلامية؟

١٢ - د. طه جابر العلواني وتقديمه لكتاب العالمية الإسلامية الثانية:

د. طه جابر العلواني تقلَّد منصب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يتخذ من الولايات المتحدة الأمريكية مقراً له لفترة طويلة، ويشغل الآن منصب رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ٤٣٤.

(٢) المرجع السابق، ٢/ ٤٣٧.

(٣) المرجع السابق، ٢/ ٤٣٥.

(٤) المرجع السابق، ٢/ ٤٣٣.

بالولايات المتحدة أيضاً، وله آثار علمية طيبة وكثيرة، وهو الذي سعى إلى طباعة كتاب العلاَّمة الدكتور عبد الغني محمد عبد الخالق ـ رحمه الله تعالى ـ : (حجية السنة) بواسطة المعهد العالمي للفكر الإسلامي مع التقديم له بمقدمة طيبة، والذي يمثل سهاماً موجهة إلى نحر كل من يسعى إلى الغمز واللمز في السنة النبوية المطهرة كما فعل كاتب (العالمية الإسلامية الثانية).

والشيء الذي أستغرب له هو : كيف قدَّم د. طه جابر العلواني لكتاب (العالمية الإسلامية الثانية) في طبعته الثانية بمقدمة لا تخلو من الإطراء والإعجاب بمحتوياته دون أن يبين ما حواه من قضايا منهجية خطيرة تُعد حرباً على الإسلام؟ ولا يشفع للدكتور قوله في المقدمة : (ومهما كان حول بعض ما أورده من ملاحظات أو تحفظات قد تتراوح بين النقد والقبول أو المراجعة، كل ذلك لا ينبغي أن يأخذ أو يلفت أنظارنا وعقولنا عن قضية الكتاب الأساسية التي هي قضية المنهجية المطلوبة لبروز العالمية الإسلامية الثانية، وظهور الدين على الدين كله، وبروز كلمة الله مرة أخرى في الأرض)[1].

فهل المنهجية المبتدعة التي حواها هذا الكتاب من شأنها أن تخدم الدعوة الإسلامية؟

إن تقديم د. طه جابر العلواني للكتاب قد فتن ثلة من الباحثين المسلمين الذين يعملون في حقل تأصيل العلوم؛ فهل مثل هذا المنهج الذي جاء به يفيد عملية التأصيل؟

وقد قررت د. منى عبد المنعم أبو الفضل ـ وهي ذات نشاط ملحوظ في أعمال المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ كتاب (العالمية الإسلامية الثانية) ضمن منهاج النظم العربية للسنة النهائية بقسم العلوم السياسية في جامعة القاهرة[2].

وقد بذل الكاتب شكره لأولئك الذين استضافوه في مراكزهم العلمية وجامعاتهم وندواتهم ومؤتمراتهم، وقد خص بالذكر منهم : المركز الإسلامي الثقافي في مالطا، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية في طرابلس، والجامعة العالمية في ماليزيا ـ طلاب جامعة اليرموك بالأردن، منظمي مؤتمرات الاتجاه الإسلامي ولجنة فلسطين الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية ـ وجمعية الترقية الاجتماعية لولاية بسكرة بالجزائر[3].

أما كان الحق يحتم أن تتدارس تلك الجهات الدعوية التي ذكرها الكاتب ما حواه كتابه وحمله فكره بتأنٍ ومراجعة شاملة لمنهجه، ووزن ذلك بميزان الكتاب والسنة قبل أن يحتفوا به؟ فما وافق الكتاب والسنة فهو الحق المبين، وما خالفهما لا بد من بيانه للناس بالتفصيل؛ فهذه قضية غاية في الأهمية وليس كما قرر د. طه جابر العلواني؛ فالجامعات والجمعيات والمراكز العلمية الإسلامية ذات تأثير واسع في حقل الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ويتحتم عليها أن تضبط مسيرتها القاصدة إلى الله ـ تعالى ـ بالكتاب والسنة.

ونأمل أن يجد هذا الكتاب الاهتمام المطلوب من المختصين فينبري له من يرد على كل جزئية من جزئياته بالتفصيل حتى لا ينطلي زخرفه على بعض الناس.

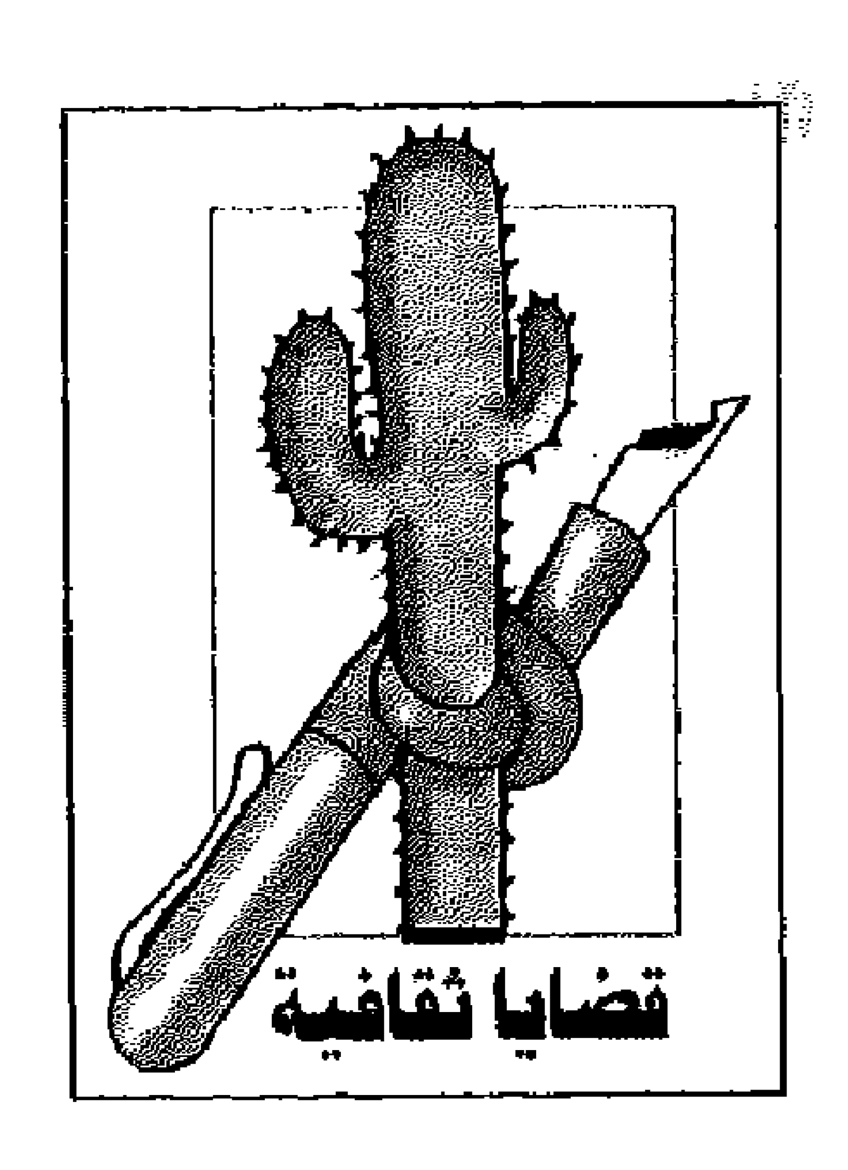
ونأمل أن يراجع (محمد أبو القاسم حاج أحمد) ما سطره في كتابه : (العالمية الإسلامية الثانية ـ جدلية الغيب والإنسان والطبيعة) وفقاً للثوابت الإسلامية دون أن يجعل للهوى نصيباً في ذلك؛ فما أكرم أن يرجع الإنسان إلى سبيل الحق المبين : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧].

---

(١) المرجع السابق، ١/ ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٣٥.

(٣) المرجع السابق، ١/ ١٣٤، ١٣٥.



تشكيل القيم في أزمنة الوهن!!

سليمان بن عبد العزيز الربعي

الحديث عن تشكيل قيم الوعي المادية والروحية؛ حديث هوية جمعيَّة لا ينفك عن ظروف الأمم ومناهج تفكيرها، وهو - بكل حال - حديث ذو شجون قلَّ أن يتاح لمرء مناقشته في فرصة، أو تشخيصه في مقالة؛ ولذا فكتابة اليوم أمشاج فِكَر تنتمي إلى مرحلة بعدية منه، أرجو ألا أجانب المنهج العلمي إن قلت: إن البحث فيها مدخل ضروري لفهم أوَّلياتها؛ وهي أوليات مهمة بلا ريب آمل أن يتسع الوقت لمناقشتها لاحقاً.

وبدءاً، لا مناص من الإشارة إلى أنَّ رُتْبَتَي القِيَم: - المادة والروح - مرتبطتان تماماً بالفعل الجمعي، مما يجعله بحثاً شاملاً لمناهج السيكيولوجيين والديموغرافيين المتميزة بالتباين المنهجي والتكامل البحثي، وهو أمر يشير كذلك إلى أهمية اصطحاب المناهج التطبيقية في البحوث الشاكلة، وصلة القيم بهذا تتأتى من القول بأن ملامح القسمين الآنفين تفريعٌ غنيٌّ الدلالة لتلك المناهج؛ فالمعطى المادي قيمياً - في التفكير والممارسة - قريب الصلة بالعلاقات الإنسانية المتصفة بالجماهيرية والوقتية وعدم الفرز، مما يمنحها نعوت البراءة في التطبيق لمصطلح (العولمة) في مجالات بعينها. أما القيمة الروحية النوعية فعلى العكس؛ إذ ترتبط - غالباً - بالتشكيل الذاتي، وقد تخرج إلى فضاءات أرحب نسبياً، وتتميز بالتحليل والتروي والتفكير الطويل.

ما أرمي إليه من هذه المقدمة، أولاً، التأكيد على أن قيم الروح تشكل في مناخات بالغة الحساسية، متميزة بالجدية والعملية والمعيارية، وهذا ما يجعلها صعبة على الطبيعة الإنسانية المجبولة على ضد هذه الصفات من تعلُّق باللهو والكسل وعدم الانضباط، وكل هذه الصفات وما ناظرها تؤول بسببٍ إلى الهوى الغلاب أو الجهل بحقائق الاستخلاف ومقاصده. والناظر في النصوص الشرعية يجد هذه المعالم بارزة أشد ما يكون في قصص المرسلين وحواراتهم - عليهم صلوات الله وسلامه - مع مخالفيهم، بل وفي مجمل النص خبراً وإنشاءاً، بحسب الأصوليين.



والقصد الأبعد التالي هو التركيز على أن صراع القيم في المجتمعات صراع طبعي قد قدره الله ـ تعالى ـ، ل إنه ـ سبحانه ـ خلق الخلق على شاكلة مختلفة في الطاعة والمعصية. وأهل المعصية مختلفون متفرقون يها، دون (أهل التوحيد) إذ هم الأمة الواحدة يدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. فالناس لا يزالون «مختلفين في أديانهم على أديان وملل وأهواء شتى، (إلا من رحم ربك) فآمن بالله وصدق رسله؛ فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله»[١]، ويؤكد هذا المعنى أن الآية الكريمة وضَّحت أن الخلق قد جاؤوا على هذا التقدير الحكيم: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، أي: «وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم»[٢]، دون أن يُفهم منه أن المختلفين غير ملومين على اختلافهم كما فهمت المعتزلة؛ بل اللام هنا بمعنى (على)[٣]، أي: وعلى هذا التقدير خلقهم. بل أبعد من هذا الأسلوب الخبري: أن تتضمن آيات الذكر الحكيم والحديث الشريف أساليب إنشائية كثيرة تحث على الموازنة بين قيم المادة والروح، وأبعد: أن تنهى عن القعود والتبتل والانقطاع التام عن الدنيا؛ إذ فيه ـ أي الانقطاع ـ مفاسد تتنافى مع حِكَمِ المولى ـ تبارك وتعالى ـ في الاستخلاف.

المهم: إدراك أن الاختلاف القيمي سُنَّة ربانية لا سبيل لدفعها؛ ولذا فالحديث يرمي إلى محاور ذاتية داخل حيز الحقيقة الكونية الكبرى، وهي ما تمثل مجالات البحث والمراجعة والتقويم. ولئن كانت الآية الكريمة تقرر هذه الحقائق بسبيل عام ومقاصد كبرى فإن في الواقع الواحد الذي يتميز أهله بأنهم (لا يختلفون في توحيد الله ... إلخ) كثيراً من سلبيات التطبيق للقيم وممارساتها الفردية والجمعية، وكثيراً من الآثار المترتبة على الخلل المنهجي والمضموني في تعامل مؤثرات التوعية وآلياتها مع الجماهير، ولعلي أكتفي هنا بالإشارة إلى مفارقات الوعي بين نوعي القيم؛ حيث طغت على الأجيال الجديدة القيم المادية المرتبطة ـ كما سلف ـ بالهوى والكسل على حساب قيم فضلى تمثل على سبيل الحقيقة صِمَام أمان للمجتمع من الفراغ النفسي والروحي، وهذا الاهتمام السالب يتوجه بأوَّلية إلى النشاط الذهني والفكري لأثرهما الكبير على المناشط الأخرى.

والحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عنا؛ أن هذه الأجيال لا تتحمل تبعة المفارقات القيمية وحدها؛ بل ثمة روافد كثيرة ومؤثرات عدة، تعمل عملها في تشكيل مخيلات التوعية لهم وللأمة بعموم؛ فالبيت ـ مثلاً ـ وهو النواة الأولى للأجيال ـ، كثيراً ما تنعكس سلبياته على التشكيل القيمي للشاب. وفي ظروف كثيرة يعمل التخلخل العلائقي بين قطبي البيت على تمزيق القيم الإيجابية لدى المُشاهد الراصد (المؤثَّر فيه) = الابن، ومن ثم تجد القيم السلبية طريقها الرحب في وعيه المنعكس على سلوكه. إن كثيراً من مشكلات الشباب القيمية ـ أياً كان نوعها ـ هي في الغالب حصيلة طبيعية لمآسٍ ذاقوا ويلاتها وتجرعوا غصصها، فلم يجدوا سوى السلوك المشين للتعبير عن رفضها والسخط عليها هذا من جهة. وهم لم يجدوا سوى الحرية غير المؤطرة لإشباع رغباتهم النفسية الظامئة من جهة أخرى؛ فهم ناقمون ظامئون.

(١، ٢، ٣) تفسير الطبري: م ٧ ـ ج ١٢ / ١٣٩.



مشكلة المؤثرات التي تنصهر في مثال البيت أنها بعيدة عن إدراك حاجة الجيل للقيم الروحية. ومشكلة آليات تشكيل الوعي أنها لا تنظر إلى النفس قدر نظرتها إلى أهداف أخرى؛ فالقنوات الفضائية (الفضانحية) تتعامل مع القيم والمجتمع تعاملاً تجارياً صرفاً، همها الأول والأخير: الاستقطاب. ولا بأس عندهم أن يكون هذا الاستقطاب على حساب القيم الشعورية والروحية للمشاهد؛ إذ هي أبعد ما تكون عن الإسهام في تشكيل القيم الإيجابية في النشء، ناهيك عن القنوات التي ترمي، أصلاً، إلى خلخلة القيم بشكل صريح، وكثير من الكتّاب الصحفيين مشغول بغير شغل، وجُلُّ دور النشر تقذف التشكيك العقدي، (وتسهم) بدفع الروايات الخواء للجيل!

في هذا الجو الملوث تتشكل القيم! غير أنها القيم المادية التي تعمل في النفوس عملها السالب، فتضخم الشك، وتفرغ الفكر، وتسلم متلقيها إلى مهاوي الردى! في مثل هذه الظروف الصعبة، وإن تنوعت درجاتها، تتصف القيم المشكَّلة بالسلبية الحادة التي لا يمكن دفعها بآمال عابرة، ويُصاب الجيل بأزمة قيمية عنيفة ينعكس صداها على سلوكهم اليومي في مناشط الحياة كافة. والذي يحز في النفس أن تتعامل بعض الدوائر التربوية والأكاديمية إزاء ظاهرة الهبوط القيمي لدى الشباب بـ (سوريالية) غير مفسَّرة، وذلك عندما تحلل أسبابها ـ أي الظاهرة ـ بضيق أفق ظاهر، بعيداً عن تلمس المؤثرات الفاعلة. إن الجيل الذي يُمارس فاعليته السلبية في القيم والوعي هو على العموم ضحية العوامل المؤثرة، وهو في الوقت ذاته يعيش فراغاً نفسياً هائلاً يندر فيه الموجه الحكيم!

إن كثيراً من الذين نرى فيهم الشر والنزعة الجامحة لقيم المادة الطاغية، إنما هم ـ في الأعم الأغلب ـ ذوو نفوس حيرى، قد أرهقهم الضيم الذي عايشوه، وأودى بهم القَيِّم غير الكفء، ونفوسهم في الوقت ذاته نفوس عطشى لمتجرد نبيل ينتشلها من سَوْرَاتِ الخوف والضنك في مثالها الذي تعيشه من قيم دنيا، إلى رحاب الطمأنينة والحب والخير متجسدة في قيم الروح الفاضلة. وهكذا كلُّ نفس تجد في مربيها الصد والخوف، تسعى لأمانها الضائع، وتهش لبارقة أمل من حكيم يُخرجها من تيه المادة إلى يقين الروح.

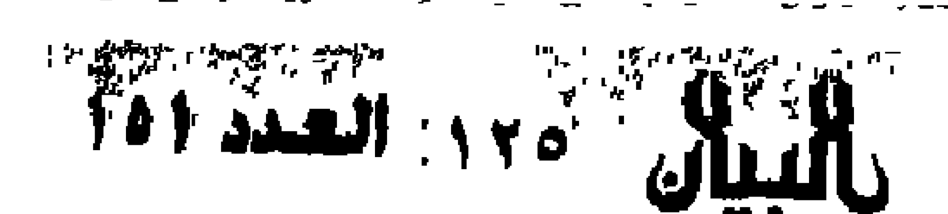
إن السحرة الذين حشرهم فرعون لمواجهة موسى ـ عليه السلام ـ مع الإشارة إلى الفرق في المثال ـ قد جاؤوا بنفوس ظاهرها الحرص على الشر والرغبة في المغالبة يُقصيهم عن الود كفرهم بالله، وذاك الخطاب الشهير يوم الزينة؛ إذ جاء مكثفاً بالتذلل والخنوع لفرعون الذي يقول لبني إسرائيل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. إنهم يقولون، في مواجهة الداعية ـ عليه السلام ـ مستظهرين العزة، محاولين الترهيب بالقسم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. هؤلاء المتظاهرون بالطغيان والجبروت، ما هم في الحقيقة سوى أصحاب نفوس ضائعة، نفوس فارغة من الهم، مكتظة بالفراغ، سابحة في الضيق الذي لا ترى منه مخلصاً إلا بالعبِّ من الشهوات. وهم لذلك لم يشترطوا على حاشرهم (فرعون) إلا المال فقضيتهم التمتع فحسب، ولو كانوا أولي هدف لعملوا لنصرة سيدهم ورب نعمتهم؛ أما

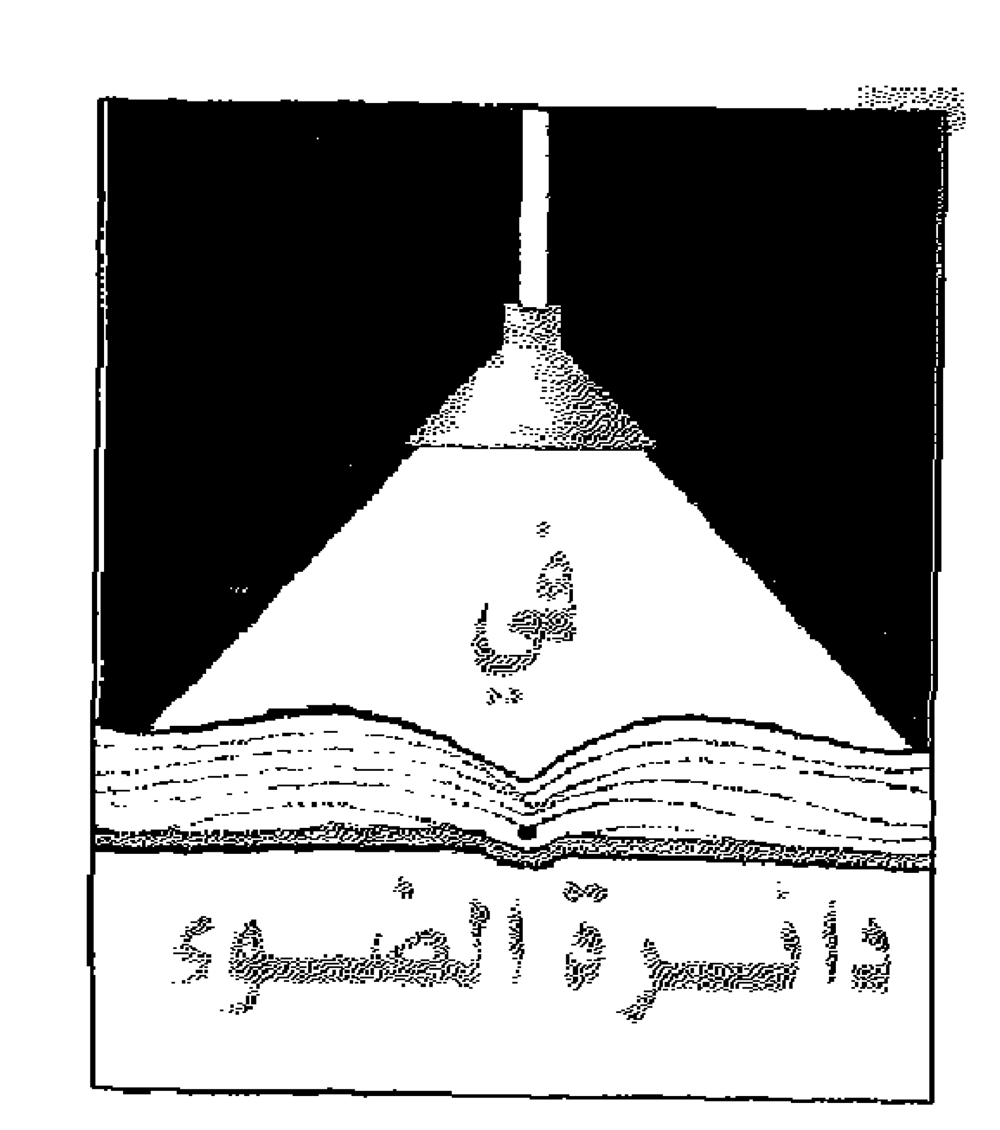
وقلوبهم هواء من برد اليقين، غريبة غرابة مواجدهم، فليسألوا المال طرداً للهمِّ بالهمّ. إنهم بعيدون في شعورهم من مشاركة فرعون مشاركة وجدانية، بل هم أجراء: ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ [الشعراء: ٤١]. وحين يرى هؤلاء آيات اليقين وأمارات الطمأنينة بالإيمان ينجلي الغبش وتهفو النفس. وحين يعاتبهم الطاغية على اليقين ويستكثر عليهم الطمأنينة تصدع النفوس قبل الألسن بأنه كان سبب السلب الحقيقي وأداة القيمة المادية الفاعلة: ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ [طه: ٧٣]، إنه كان يُكرههم على القيمة السالبة بسخرتهم في تعلم السحر وصرفهم إليه صغاراً، فهو متجبر في القوامة، قد سلبهم أمانَ النشء ويقين الفطرة، وغشهم في الرعاية.

إن علماء النفس والاجتماع الغربيين يتحدثون عن إشكاليات خطيرة في واقع الأجيال، وهي مشكلات تزداد صعوبة في كل يوم في أزمنة القيم المادية المشرعة؛ فمثلاً نجد أن المنتسبين إلى حركة (حافظي الوعد) (Promise keeprs) الغربية - وهم في ازدياد - قد سئموا سُعار المادة الطاغي، فأجمعوا على بنود سبعة تمثل - بالنسبة لهم - أسس الممارسة، وعليها بناء الوعي القيمي لشبابهم، وهي بنود تطغى عليها الديانة النصرانية وتتوجه إلى ربط الجيل بمستوى أخلاقي نوعي؛ إذ يشير البند الثالث إلى أن على المنتسب للحركة الالتزام بممارسة (الطهارة الروحية والمعنوية والأخلاقية والجنسية) وفي فقرة أخرى نلحظ الاهتمام بالتكافل الاجتماعي ولو على نطاق ضيق[1]. ونحن مع التسليم بضلالهم المبني على سوء الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر، لا نرمي إلى مناقشة تلك الأسس من منظور إسلامي، بل القصد: الإشارة إلى الرغبة الطاغية لأمم الأرض اليوم في استعادة شيء من الهوية، وحرصها على تشكيل الجيل تشكيلاً جديداً ينأى به عن طغيان المادة وفراغ الحضارة الموحش. ونرمي من وراء ذلك كله للتساؤل الملحّ: أفليس المسلمون - وهم أهل الحق والدين القويم - أجدر الأمم بالعمل على استعادة تاريخهم المجيد بتربية أجيالهم على قيم الدين المستقيم؟ أفليس المسلمون أَوْلى الناس بالعمل على مغالبة أزمنة الوهن بتحصين أجيالهم وتشكيل وعيهم تشكيلاً قيمياً نافعاً؟ ولا ريب أنها مهمة كبيرة على المربين، غير أن ثمة بواعث واقعية ينبغي أن تجعلهم يستسهلون الصعب، كان من آخرها المسابقة التي أجرتها إحدى الإذاعات العربية؛ حيث لم يستطع مستمع واحد أن يذكر اثنين من المبشَّرين بالجنة، في حين لم يتخلف أحد عن الإجابة الصحيحة في ذكر « اللقب » الشهير للمطرب الذي رحل يوم كان المستمعون الآن ما يزالون في أصلاب آبائهم!!

---

(١) انظر جريدة الحياة ١٨ جمادى الآخرة، ١٤١٨هـ.





وجهة نظر: حول ظاهرة أسلمة العلوم

د. أحمد إبراهيم خضر(*)

ظهر في العقدين الأخيرين دعاوى جديدة ذات أصول قديمة ومتكررة تحمل اسم: (مشروع أسلمة وتأصيل العلــوم) والتكامل بين العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعيــة والإنســانية؛ أو التكامل بين معطيات الوحي والخبرة البشرية، وانشئت لهذا الغــرض جامعات ومعاهد وكليات تخرِّج أجيالاً تحمل هذا الفكر وتروِّج له.

اتجاهات ثلاثة تؤصل المشروع:

وهناك اتجاهات ثلاثة داخل هذا المشروع، أحسب أنها تتسم جميعها بسمة الاستعلاء على الكتاب والسنه وما انبثق منهما من شريعة وفقه. يلبس الاتجاه الأول ثوب الاعتدال، وهو أخطرها فيدعو أصحابه إلى الاستعانه بالقواعد الفقهية والمنهجية الأصولية، وتطبيقها في العلوم الاجتماعية، وعرض نتائج العلوم الاجتماعية على علماء الدين وإقامة جسر بينهُما. ويغلب على الاتجاه الثاني صفة السطحية والوصولية. أما الاتجاه الثالث فقد تطرف إلى الحد الذي دعا فيه إلى نقد التراث ومراجعة الدراسات التى بنيت على القرآن والسنة وتجديدها مع استبعاد مفاهيم الحق والباطل والإيمان والكفر... إلخ[1].

وأياً كانت الاتجاهات داخل هذا المشروع بما فيها الاتجاه المعتدل فإن جميعها تعتقد أن مستجدات العصر قد أحدثت خللاً في الأبنية الاجتماعية ومشكلات لم تكن قائمة في الصدر الأول مما يستوجب مواجهتها بالعلوم الاجتماعية العصرية الحديثة؛ مع مراعاة اتساق ما يؤخذ منها مع الكتاب والسنة. فالمسالة إذن ليست مواجهة تغيرات العصر بحلول مستنبطة من الخطوط العريضة للشريعة، أو إقامة مصالح الدنيا بالرجوع إلى التعاليم المتضمَّنة في القواعد الكلية للشريعة، وإنزال الوقائع المتجددة التي تعرض للأفراد والجماعات عليها، وفحص ما يترتب عليها من المصالح والمفاسد، وإنما الاستعانة بنظريات وتحليلات العلوم الاجتماعية والخبرة البشرية التي لا يبدو لهم أنها تتعارض مع معطيات الوحي في مواجهة هذه التغيرات، فيصبح لدينا مصدران للتعامل مع الحياة الإنسانية هما: العقل، والشرع. وهذا اتجاه قديم ترجع جذوره في اليهودية عند فيلون السكندري، وفي النصرانية عند كليمونتس وتلميذه أوريجنس، وفي الإسلام عند أبي

(*) أكاديمي مصري.

(1) عشوى، مصطفى، نحو تكامل العلوم الاجتماعية والشرعية، التجديد، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، العدد الثاني، يوليو ١٩٩٧م، ص ٨١ - ٥٥.

يوسف الكندي، وإخوان الصفا، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم. ولأن أكثر الناس لا يجمعون بين معرفة حقيقية بما جاء به الأنبياء والرسل وحقيقة الأفكار التي تحملها هذه الدعاوى سادت البلبلة والفوضى الفكرية مما أتاح الفرصة لانتشار مثل هذا الفكر(1).

ويمكن القول - حسبما نرى - بأن المشروع برمته بما فيه الاتجاه المعتدل يقع في خطأ أساس وهو عدم اعتقاد كمال الشريعة وتمامها وعدم كفايتها في مواجهة تغيرات العصر، وكأنما الله - تعالى الله عما يتصورون - لا يعلم بأن هذه التغيرات ستحدث فلم يحسب حسابها، فجاء هذا المشروع ليستدرك ويستكمل على الله، فسلب صفات الكمال عن الله - تعالى - وعلوه على خلقه وكماله وقدرته، وزاد في الدين وأفسده وخلطه بما لم يأمر الله به، ولبّس الحق بالباطل وأعطى مشروعية لهذا الباطل. ولا يخرج هذا المشروع برمته عن كونه هوى متبع وتبدُّع وتنطُّع وخروج على الصراط المستقيم بنص مصطلحات العلماء لا مصطلحاتنا؛ وذلك لأن الطرائق في الدين تنقسم إلى ما له أصل في الشريعة، وما ليس له أصل فيها، والأخير هو القسم المخترَع، أي إنه طريقة ابتدعت على غير مثال تقدَّمها في الشرع. ومن خواص البدعة أنها خارجة عما رسمه الشارع، ومن ثَمَّ يدخل هذا المشروع تحت هذا المسمى؛ فالشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة والنقصان، كما أن الله - تعالى - قد أكمل للرسول ﷺ ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته ولم يحوجه - لا هو ولا أمته - إلى عقل أو نقل سواه، وأنكر الله - تعالى - على من لم يكتف بالوحي فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال - تعالى -: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقد تُوفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلِّب جناحيه في السماء إلا ذَكَرَ منه لأمته علماً.

هدف المشروع:

حدد دعاة المشروع أهدافه في إعادة صياغة العلوم في ضوء الإسلام مما يؤدي إلى أسلمة العلوم بثلاث طرق بريئة المظهر، وأحسبها فاسدة المخبر وهي:

١ - فهم العلوم الحديثة واستيعابها في أرقى حالات تطورها والتمكن منها، وتحليل واقعها بطريقة نقدية لتقدير جوانب القوة والضعف فيها من وجهة نظر الإسلام.

٢ - فهم واستيعاب إسهامات التراث المنطلق من فهم المسلمين للكتاب والسنة في مختلف العصور، وتقدير جوانب الضعف والقوة في ذلك التراث في ضوء حاجة المسلمين في الوقت الحاضر، وفي ضوء ما كشفت عنه المعارف الحديثة.

٣ - القيام بتلك القفزة الابتكارية الرائدة اللازمة لإيجاد تركيبة تجمع بين معطيات التراث الإسلامي وبين نتائج العلوم العصرية مما يساعد في تحقيق غايات الإسلام العليا(2).

أما الأهداف الحقيقية لهذا المشروع فتتلخص في الآتي:

١ - إضفاء الشرعية على علوم أوروبية الصنع - ليست حيادية كالعلوم الطبيعية، وإنما ذات موقف خاص

---

(1) ابن تيمية، شيخ الاسلام، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطية، تحقيق ودراسة موسى الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ص ٦٧ - ٦٢.

(2) رجب، إبراهيم،المنهج الإسلامي وعلاج المشكلات الاجتماعيه والنفسية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مجلد ٢٦، عدد ٤، ص ٦٦.



من الدين؛ فهي قد نشأت أصلاً لتزيح الدين وتحل محله، وتجعل الإنسان محور الكون بدلاً من الله، وترى أن الدين من صنع الإنسان، وأن التجربة الدينية الآن مواجهة مع الله وتحدٍ له. ومن ثَمَّ فهي فاسدة الأصل، وفساد الأصل لا بد أن يمتد إلى كل فروعه.

٢ - إفساد المقصد من الشريعة وضرب الفقه الأول؛ وذلك بتلقيح الشريعة بمعطيات هذه العلوم مع تحميل هذا الفقه أوزار تخلُّف المسلمين وما يسمونه بتشويه شخصياتهم، ومن ثَمَّ إزالة هيمنتهما على العقل المسلم.

٣ - استبعاد مفاهيم الحق والباطل، والإيمان والكفر، والفرقة الناجية والفرقة الهالكة، وغير ذلك من المفاهيم المحورية في الإسلام بحيث تكون آخر ما يُرجَع إليه.

٤ - تحويل المقولة القديمة لزكي مبارك إلى واقع ملموس وهي التي يقول فيها: «قد نزعنا راية الإسلام من أيدي الجهلة - ويقصد بهم علماء الدين - وصار إلى أقلامنا المرجع الأول في شرح أصول الدين».

وقد وصف الشيخ مصطفى صبري هذه الأقلام بأنها أقلام تنتقص خزائن الإسلام الفقهية التي ورثناها من السلف بأصولها وفروعها، وتفتح حصون العلوم بأسلحة مطلية بالذهب بدل الفولاذ المحض[1].

مكمن الخطورة في المشروع:

وتكمن خطورة هذه الدعاوى في الآتي:

أولاً: الإيحاء بان الشريعة لم تتم:

تعطي هذه الدعاوى الإيحاء بأن الشريعة لم تتم وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، ولو كان أصحاب هذه الدعاوى معتقدين كمالها وتمامها من كل وجه لما فكروا في الاستدراك عليها. قال مالك في هذا: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً.

ثانياً: معاندة الشرع ومضاهاة الشارع:

عيَّن الشارع لمطالب الناس طرقاً خاصة على وجه خاص، وقصَرهم عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها والشر في تعدِّيها؛ لأن الله - تعالى - يعلم، ونحن لا نعلم. ولهذا فإن من زعم بأن هناك طرقاً أخرى غير التي حصرها الشارع وعينها؛ يعني أن الشارع يعلم وهو يعلم أيضاً، بل يفهم أنه استدرك الطرق الجديدة على الشارع أي علم ما لم يعلمه الشارع.

يضاف إلى هذا أنه أنزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق بها وتفرد بذلك؛ فهو الذي حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون ودعواه هذه تعني أنه صيَّر نفسه بمنزلة النظير والمضاهي الذي يشرِّع مع الشارع؛ فيكون بذلك قد رد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وفتح للاختلاف باباً.

ثالثاً: تلبيس الحق بالباطل:

لو كانت العلوم الإنسانية أو الخبرة البشرية باطلاً محضاً لما قبلت، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها؛ ولو كانت حقاً محضاً لكانت موافقة للشريعة. لكنها تشتمل على الحق والباطل ويلتبس فيها الحق والباطل.

---

(١) صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج٢ ص١٥٢.

وقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ لم تلبسون الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾ [آل عمران : ٧١] ، فنهى الله بذلك عن تلبيس الحق بالباطل. ولَبْسُه هو خلطه حتى يلتبس أحدهما بالآخر. والشريعة حق محض والعلوم الإنسانية والخبرة البشرية فيها الحق والباطل، والجمع بين ما هو حق محض وما هو حق وباطل تلبيس لأحدهما بالآخر. والتلبيس هو التدليس والغش الذي باطنه خلاف ظاهره؛ فكذلك الحق إذا لُبِّس بالباطل يكون قد أظهر الباطل في صورة الحق، وتكلم بمقولة لها معنيان : معنى صحيح، ومعنى باطل؛ فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراد المتكلم هو الباطل.

رابعاً: اجتهاد في غير موضعه ومن غير أهله:

يضع أصحاب هذه الدعاوى أنفسهم موضع المجتهدين في الدين. والاجتهاد ضربان: أحدهما: الاجتهاد المعتبر شرعاً وهو الصادر من أهله الذين اضطلعوا بما يفتقر إليه الاجتهاد. والثاني: هو غير المعتبر، وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه؛ وحقيقته كما يرى العلماء «أنه رأي بمجرد التشهي والأغراض، وخبط في عماية، واتباع للهوى» فكل رأي صدر على هذا الوجه لا شك في عدم اعتباره لأنه ضد الحق الذي أنزله الله ـ تعالى ـ يقول ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾. [المائدة : ٤٩].

إن أصحاب هذه الدعاوى ليسوا من أهل الاجتهاد، ولكنهم أدخلوا أنفسهم فيه خطأً ومغالطةً؛ فالشروط الشرعية المتطلبة في المجتهد لا تتوفر فيهم، كما لم تتوفر فيهم كذلك شروط العالم بالعلم الشرعي التي منها: أن يكون عارفاً بأصوله وما ينبني عليه، قادراً على التعبير عن مقصوده فيه، عارفاً بما يلزم عنه قائماً على دفع الشُّبه الواردة عنه.

خامساً: قياس للدين بالرأي:

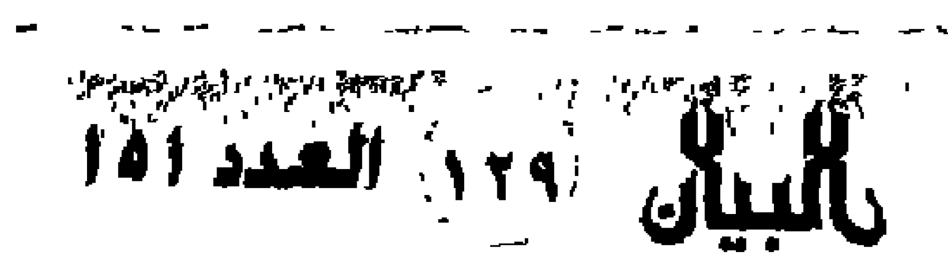
خص الله ـ تعالى ـ بالهداية من علم فيه القبول والإنصاف والأهلية. كما قال في إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١]. وقال معاذ: العلم والإيمان مكانهما، من طلبهما وجدهما، فاطلبوا العلم من حيث طلبه إبراهيم، حيث قال: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : ٩٩].

فأصحاب هذه الدعاوى طلبوا الدين من غير طريق الأنبياء. وقد قال ﷺ : «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، أشدهم فتنة الذين يقيسون الأمور بآرائهم»[1]. وسماهم ابن المبارك بالأصاغر أي الذين يقيسون الدين بآرائهم وعلى غير أصل، فيتكلمون فيه بالتخرُّص والظن. إن عملهم لا دليل عليه في الشرع، وقد يدفعهم اجتهادهم المزعوم إلى القول في القرآن برأيهم؛ في حين أنه لا بد عند القول بالقرآن من بيان معنى واستنباط حكم وتفسير لفظ وفهم مراد، وهذا ما لم يتوفر فيهم. وقد نقل عن الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني أن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم، أو قلت في كتاب الله برأيي؟»[2] وهذا هو ثاني اثنين إذ هما في الغار.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٦٧٣)، وقال المحقق: لا يصح.

(٢) كنز العمال لعلاء الدين هندي، ج ٢، ص ٣٢٧ رقم (٤١٤٩).



سادساً: اتباع للهوى:

إذا لم يكن العقل متبعاً للشرع لم يبق إلا الهوى والشهوة. وقد أوضح العلماء أنه لو كانت الأهواء واحداً لقال قائل: لعل الحق فيه، فلما تشعبتْ وتفرقت عرف كل ذي عقل أن الحق واحد لا يتفرق.

الأمر إذن محصور بين الوحي وهو الشريعة، وبين الهوى ولا ثالث لهما؛ وهما متضادان؛ وحيث تعين الحق في الوحي توجه الهوى ضده، واتباع الهوى مضاد للحق وفي كل موضع ذكر الله - تعالى - فيه الهوى جاء في معرض الذم له ولمتبعيه ومعنى ذلك أن الشريعة هي الوحي وهي الحق، وأن العلوم الإنسانية والخبرة البشرية (بحقها وباطلها) هي الهوى؛ لأن الحق واحد لا يتفرق كما ذكرنا.

سابعاً: زيادة في الدين:

يقول العلماء: «إن رفع المظنون في العقليات إلى مرتبة المعلوم زيادة في الدين»؛ لأن فيه تجويز خلو كتاب الله - تعالى - وسنة نبيه محمد ﷺ من بيان بعض مهمات الدين؛ وقد جاء الرسول ﷺ بالدين القيم تاماً كاملاً ليس لأحدٍ أن يستدرك عليه، وقد أكمل الله له الدين ولأمته من بعده.

ويعرف العلم الحق بأنه صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض، وهو الذي يجمع ما بين الجزم والمطابقة والتثبت عند التشكيك. ولهذا نقول: إنه لولا الفرق بين العلوم الشرعية والعلوم الظنيه لما تميز إسلامٌ منْ كفر، ولا شرك من توحيد، ولا صحيح من خاطئ. هذا الفرق هو الذي يسميه أصحاب هذه الدعاوى بالفصل التعسفي ويسعون إلى القضاء عليه، فإذا تم لهم ذلك التبست الظنون بالعلوم الشرعية ودخل فيها ما ليس منها.

ثامناً: طلب للشريعة بما هو غير أداة لها:

إن هذه العلوم التي يسعون إلى تأصيلها إسلامياً وجمعها مع الشريعة علوم أوروبية الصنع كما ذكرنا صدرت بلسان غير عربي. والشريعة نزلت بلغة العرب لا دخل فيها للألسن الأعجمية. والله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ويقول أيضاً: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. ولذا يلزم عند فهم الشريعة الاقتصار على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، وليس إلى غيرهم. كما لا يستقيم للمتكلم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن يتكلم فوق ما يسعه لسان العرب.

وينطلق أصحاب هذه الدعاوى في سعيهم إلى أسلمة العلوم من المفاهيم والمصطلحات الغربية بالبحث عن أصول لها في القرآن والسنه ولو تعسفاً، وقد حسم العلماء هذه المسألة بقولهم: «إن كل معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء، ولا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل».

تاسعاً: الخروج على مقتضى وضع الشريعة التي جاءت للعموم:

تتضمن العلوم الإنسانية التي يسعى أصحاب هذه الدعاوى إلى تأصيلها إسلامياً وجمعها مع الشريعة ترسانة ضخمة من المصطلحات الغامضة والنظريات المتعددة التي تحتوي على تناقضات فكرية وتصورات متباينة. ومع ذلك فإن عالم الاقتصاد الأمريكي (فرتز ماشلوب) يقول: «إن معنى العلم أمر لا يستطيع رجل الشارع أن يفهمه، والمعرفة لا تدنو منها إلا العقول العالية فقط» وذلك في معرض محاولته إضفاء الصبغة العلمية على العلوم الإنسانية.



والأمر نقيض ذلك في الشريعة، فقد خرّج الترمذي وصححه عن أُبي بن كعب قال: «لقي رسول الله ﷺ جبريل، فقال: يا جبريل! إني بُعثت إلى أمة أمية فيهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، فقال: يا محمد! إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[1]. ولهذا يقول العلماء: إن طلب ما لا يشترك عامة الناس فيه في الشريعة خروج على مقتضى الشريعة الأمية[2] التي تسع تكاليفها الاعتقادية والعملية الأمي فيتعقلها ويدخل في حكمها، كما أنها قريبة الفهم سهلة على العقل؛ بحيث يفهمها من كان ثاقب الفهم أو بليداً؛ فلو كانت الشريعة مما لا يدركها إلا الخواص والمثقفون لم تكن شريعة عامة ولا أمية.

عاشراً: محدَثات ومخالفات لم تكن على عهد الأولين:

إن خير القرون هو قرن رسول الله ﷺ وصحابته ثم الذي يليه، ولا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، وأصحاب هذه الدعاوى في قرننا هذا إما أنهم أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون، أو أنهم حادوا عن فهمها. وهذا الأخير هو الصواب. وقَرْنُ رسول الله ﷺ والذي يليه من السلف الصالح كانوا على الصراط المستقيم، ولم يفهموا من الشريعة إلا ما كانوا عليه، ولم تكن هذه المحدَثات فيهم ولا عملوا بها بالرغم من أنهم عاصروا أكبر حضارتين وقتها، وظلت الشريعة على نقائها وصفائها فيهم.

وصحيح أن هناك من العلماء من تجاوز الحد في الدعوى على القرآن؛ فأضاف إليه كل علم يذكر للمتقدمين في علوم الطبيعة والمنطق وغيرهما، لكن هذا لم يحدُث من السلف الصالح الذين كانوا أعرف بالقرآن ويعلمون ما أُودِع فيه، ولم يبلغنا أن أحداً منهم تكلم في شيء من ذلك؛ مما يدل على أنه لا يجوز أن يضاف إلى الشريعة ما لا تقتضيه أو أن ينكر منها ما تقتضيه.

وأخيراً: فإن العلم وسيلة من الوسائل وليس مقصوداً بذاته، وذلك حسب نظر الشرع، وكل علم لا يفيد عملاً ولا يترتب عليه ثمرة تكليفية ليس في الشرع ما يدل على استحسانه، ولو كان له غاية شرعيه لكان مستحسناً شرعاً، ولهذا فإن هذا المشروع لا يفيد علماً ولا عملاً ولا يترتب عليه ثمرة تكليفية، وليست له غاية شرعية، ومن ثم فهو ليس بمستحسن شرعاً.

إن هذا المشروع يدخل تحت مقولة البَطْرِيَرْك التي نصح بها ملك الروم حينما عرض عليه أمر طلب خليفة المسلمين بترجمة كتب الفلسفة وغيرها إلى العربية: «أيها الملك! أرسلها إليهم، والله! ما دخلت هذه الكتب على قوم عندهم شريعة سماوية إلا أفسدت شريعتهم، وأوقعت الخصومة بينهم»[3].

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٢٢٤١.

(٢) الأمية: أي العامة التي هي لكافة الأمة.

(٣) استنبطنا الردود على أصحاب هذه الدعاوى من المصادر الآتية: الموافقات في أصول الأحكام، والاعتصام للإمام الشاطبي - مختصر الصواعق المرسلة، للإمام ابن القيم، شرح وتعليق رضوان جامع رضوان. والفوائد، لابن القيم.



التعليم المستمر

د. عادل الجندي

منذ القرن الثامن عشر تطور مفهوم التعليم؛ حيث أصبح من أهدافه تنمية مواهب الفرد لكي تتطور حتى يضيف كل «متعلم» خبراته الجديدة وربما مكتشفاته ومخترعاته إلى التراث، بما قد يؤدي إلى مضاعفة العلم المطلوب تعلمه، أو إلى تغيير التراث كله بتغيير طريقة التفكير فيه، أو نقده وتعديله، أو طريقة الانتفاع به.

ولكن على المستوى العلمي ظلت عملية التعليم والتربية عملية اجتماعية، بمعنى أن مؤسسات المجتمع القائم هي التي تقوم بها، سواء من خلال الأسرة أو البيئة الاجتماعية المباشرة، أو من خلال مؤسسات التعليم والإعلام والتثقيف التي يملكها الأفراد أو الهيئات أو الجماعات المستقلة، أو تملكها وتديرها الدولة.

ثم كان تقرير اللجنة الدولية التي عملت بتفويض من اليونسكو برئاسة «إدجار فور» الذي نشر عام ١٩٧٢م نقطة تحول في تنمية التربية التي بدأت تحتمل تصوراً جديداً من حيث كونها نشاطاً إنسانياً، قد يكون نظامياً كما في التعليم المدرسي، أو شبه نظامي كما هو في المؤسسات التربوية المساندة للمدرسة، أو غير نظامي كالتعليم من الحياة وبالحياة.

وظهر منذ ذلك الوقت البحث عما يسمى «المجتمع المتعلم» الذي ينبغي أن تهدف إليه الجهود بالوسائل المختلفة المناسبة لكل دولة بحسب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وحاولت بعض الدول أن تقترح الوسائل المناسبة لتنفيذ ذلك التصور الجريء وتمويله، وهو ما يسمى الآن بـ «التعليم المستمر» الذي نادت به «لجنة إنتاريو» في كندا في الوقت الذي ظهر فيه رأي

« اللجنة الدولية » التي شكلها اليونسكو رغم استقلالهما عن بعضهما.

وقد زامن هاتين اللجنتين جهود أخرى قام بها مجموعة العمل التي شكلت عام ١٩٧٢م، والتي نادت بفكرة « التعليم الأساسي » لإصلاح التعليم الابتدائي التقليدي واستحداث أنماط جديدة للتربية والتعليم تجمع بين التعليم النظامي والتعليم غير النظامي وتربط بين العمل والتعليم.

ومع هذا الاهتمام المتزايد بالتنمية العامة تأكد الدور الذي يمكن أن يلعبه التعليم والتدريب في المجال الاقتصادي وفي زيادة الإنتاج وقدرة الأفراد على القيام بالدور الإيجابي الذي يؤدي إلى تنمية المجتمع.

وقد أكد الباحثون على أهمية التدريب والتعليم في محيط العمل والعمال، وحاول الباحثون قياس القيمة المضافة التي تحدثها إطالة التعليم في إنتاجية العاملين، وهو ما يؤدي إلى الاعتراف الكامل بإسهام التربية والتعليم في التنمية الاقتصادية؛ وبذلك لا يكون التعليم مجرد خدمة تؤدى باعتباره حقاً من حقوق الفرد - وإنما أصبح عملية استثمار، ووسيلة لرفع الكفاية الإنتاجية - وبذلك أصبح موضوعاً هاماً في الميدان الاقتصادي وطريقاً إلى التنمية الشاملة.

إذن فالتربية التي تشمل التعليم المستمر - يقصد بها كل ما يمكن أن يكتسبه الفرد على مدى حياته من المؤسسات التربوية والاجتماعية من برامج تعليمية وثقافية ومهنية باستخدام الأساليب والوسائل التعليمية المتاحة له، بما يساعد على استمرار الاستزادة العلمية والثقافية للأفراد والجماعات في النواحي المهنية والحياتية، بحيث لا يعتمد في ذلك على المدارس النظامية وحدها بل تشارك فيه المنظمات والهيئات الأخرى، وتصبح الحياة مدرسة، ويتعلم كل فرد من الحياة بالحياة، وهو ما كان مطبقاً بالفعل أثناء تألق الحضارة الإسلامية.

وعموماً ونظراً للاهتمام بالتعليم المستمر في الوقت الحالي، فإن بعض الناس ينظر إليه بوصفه « نظاماً ثالثاً في المجتمع »، أما النظام الأول، فيشمل المدارس الابتدائية والثانوية، بينما يشمل النظام الثاني مؤسسات ما بعد المرحلة الثانوية، وهذان النظامان « الأول والثاني » يمثلان جزءاً من العمليات التربوية التي يمر بها المتعلم الذي يدرس لوقت كامل Full Time، وقبل أن يتجه إلى سوق العمل أو إلى أي مكان آخر. أما التعليم المستمر من حيث إنه « نظام ثالث » فيشمل كل المؤسسات التربوية التي من خلالها يحصل الفرد على فرص تعليمية، سواء كانت قبل الالتحاق بالتعليم النظامي أو خلاله أو بعد التخرج فيه. ومن هنا يصبح التعليم المستمر ذا مغزى ومعنى بالنسبة للنظامين الأول والثاني،

ولذا فإن التعليم المستمر ما هو في الواقع إلا تمديد للنظام التربوي في الزمان والمكان، وتنظيم للخبرات والنشاطات التربوية وجعلها متاحة لكل من يرغب فيها على مدى الحياة؛ فهو له بُعدان: أفقي، ورأسي. ففي بعده الأفقي يُعنى بتنويع التعليم في الأماكن المختلفة، وفي بعده الرأسي يعنى بإتاحة الفرص للدخول في أي نوع من أنواع التعليم في الأزمنة المختلفة.

والتعليم المستمر ينادي في جوهره بالتحول والتغير الكيفي والنوعي للنظام التعليمي الحالي؛ فهو ليس مجرد زيادات كمية طفيفة ولا سلسلة من الإصلاحات الجزئية في هذا النظام؛ ودائماً هو نظرة فلسفية شاملة لمعنى التغير ومضامينه على صُعُد التربية والتعليم والسياسة والمجتمع والاقتصاد. فهو لذلك يهدف أساساً إلى تحقيق الذات بالنسبة للفرد وعن طريق اختيار حر من بين كلٍّ متكامل مرن من المعارف والخبرات التنظيمية؛ وهذا التنوع ـ ضمن الوحدة للمعارف والخبرات ـ هو الذي لا يزود الأفراد أو نخبة معينة فحسب، بل المجتمع كله باحتياجاته المعرفية في كل مجالات الحياة، وبذلك يوجد المجتمع المعلم المتعلم.

فالتربية لا بد أن تتميز بما يلي:

١ - المرونة.

٢ - دفع عجلة التطور الاجتماعي إلى الأمام للأفراد والجماعات في آن واحد.

٣ - تلافي العيوب الناجمة عن التعليم التقليدي.

٤ - الربط بين التربية والمجتمع.

٥ - التركيز على التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

٦ - اختيار المناهج المتماشية مع حاجات الدارسين (المناهج الأكاديمية المفروضة).

مرتكزات التعليم المستمر:

ويعتمد التعليم المستمر على:

- التركيز على الجوانب العملية التي تساهم في بناء المجتمع وتقسيم الأنشطة إلى أنشطة أساسية وأخرى تعالَج حسب الأولويات.

- دراسة أوضاع الفئات الفقيرة والعمل على سد احتياجاتها الاجتماعية والاقتصادية.

- التعاون مع ذوي الخبرة للوصول إلى التوصيف الصحيح لأوضاع المجتمع وحاجاته.

- تمكين الفئات المحدودة الإمكانيات على تطوير هذه الإمكانات والارتقاء بمستواها كي لا تقف عقبة

في طريق تقدم هذه الفئات وتحد من إسهامهم في نمو مجتمعهم.

- أخذ الأوضاع الاجتماعية للسكان بعين الاعتبار عند التخطيط للتطور والتنمية الصناعية؛ بحيث تتماشى خطوط التنمية مع هذه الفئات وقدراتها وتلبي حاجاتها المختلفة.

- تبنِّي الاتجاه الجماعي في التخطيط لبرامج التعليم المستمر، والقضاء على جميع مظاهر التفرقة الاجتماعية التي من شأنها تشتيت الجهود وبعثرتها.

أما فيما يتعلق بالوسائل والأساليب التي يمكن أن تحقق أهداف التعليم المستمر:

فإنه يمكن أن تتعدد الأساليب والطرق والوسائل التي تحقق أهداف التعليم المستمر، ويمكن أن تختار كل دولة - وكل مؤسسة وكل جهة تود أن تسهم في التعليم المستمر - أي وسيلة تراها مناسبة لظروفها وطبيعة عملها وإمكاناتها... على أن يتم ذلك وفق تخطيط وتنظيم محكم يأخذ في الاعتبار جميع العوامل والمؤثرات التي تضمن نجاح برامج التعليم المستمر.

وفيما يلي أمثلة من هذه الوسائل وتلك الأساليب:

أ - المؤسسات التي تسهم في التعليم المستمر.

ب - الوسائل الممكن الاستعانة بها.

ج - أساليب أخرى حديثة.

مع توضيح لما يمكن أن تؤديه كل منها من خدمات وما تعمل على تحقيقه من أهداف.

أ - المؤسسات:

١ - مراكز التعليم الموازي للتعليم النظامي التي يمكن أن توفر التعليم المستمر للمتسربين من المدارس، أو من فاتهم قطار التعليم النظامي بحيث تعوضهم عما فقدوه من فرص الحصول على الشهادات الدراسية.

٢ - المراكز الثقافية والاجتماعية بالمدارس والمعاهد التربوية التي يمكن أن تنظم الدراسات والندوات للآباء والأمهات والشباب لزيادة ثقافتهم، وتوعيتهم بالمشكلات الصحية والاجتماعية بما يساعد على رفع المستوى الثقافي وخدمة البيئة.

٣ - مراكز خدمة المجتمع بالجامعات، وما يقوم به من تنظيم للمشروعات العلمية التي يشترك فيها الطلبة وما تقدمه من برامج في الدراسات التكميلية أو المهنية لمن يطلبها من المواطنين في مختلف الأعمال.

٤ - مراكز التعليم بالمراسلة أو الجامعات المفتوحة، أو ما يسمى أحياناً جامعات الهواء التي تنظم

برامج متنوعة في مستويات مختلفة تصل بها إلى من يرغب في الاستزاد : التعليمية في المجالات المختلفة؛ بحيث تنقل إليهم التعليم في أماكنهم بدلاً من أن ينتقل المتعلم إليها.

٥ - مراكز تعليم الكبار ومدارس مكافحة الأمية التي يلتحق بها من يرغبون في استكمال تعليمهم الأساس، والقضاء على الأمية بمختلف صورها.

٦ - المكتبات الحديثة بما فيها من كتب ومجلات، وما تقدمه لروادها من تيسيرات للاطلاع والبحث، خصوصاً إذا استكملت بالوسائل التعليمية الحديثة : من تسجيلات صوتية، وأفلام سينمائية وبرامج مختلفة.

٧ - مراكز التدريب أثناء الخدمة، وما تقدمه من برامج تثقيفية وبرامج لزيادة المهارة المهنية لرفع كفاءة العاملين بما يضمن زيادة الإنتاج ويزيد من ثقافة العاملين وإيقافهم على المستحدثات في مجالات تخصصهم أو المجالات الثقافية العامة.

٨ - النقابات والاتحادات المهنية وما تنظمه من برامج تعليمية وفق تخطيط جيد في مواعيد مناسبة ومنتظمة لأعضائها ولأسرهم بما يقوي الروابط المهنية ويرفع من المستوى الثقافي للأعضاء.

٩ - المؤسسات الدينية وما تقوم به من برامج في التوعية الدينية والثقافية والاجتماعية وبالأخص في مجال التربية الخلقية والتعامل الاجتماعي.

١٠ - الهيئات النسائية، وما يمكن أن تقوم به من برامج في التوعية الأسرية والتربية الحيائية وتنشئة الأطفال والعلاقات العائلية بما يضمن سعادة الحياة للأسرة والمجتمع.

ب - الوسائل الممكن الاستعانة بها:

١ - الاستعانة بوسائل الاتصال الثقافي وبالأخص الصحف اليومية والأسبوعية والمجالات العلمية والنشرات خصوصاً إذا نظمت في صورة هادفة مسلسلة وفق تخطيط معين.

٢ - الاستعانة ببرامج الإذاعة والتلفزيون بحيث يخصص بها مواعيد معينة، وبحيث يتم التنسيق بين هذه المواعيد التي يسمح فيها للعاملين بالمؤسسات المختلفة بمتابعة برامج، هذا فضلاً عن :

أ - بناء الحقائب التعليمية متعددة الوسائل واستخدامها، وهي تحتوي أنواعاً مختلفة من المواد التعليمية كالأفلام والخرائط والمطبوعات.. إلخ وتعمل كل واحدة من هذه المواد على توفير نوع من الخبرة التعليمية بما يحقق أهدافاً مقصودة في دراسة موضوع معين بطريقة متكاملة.

ب - استخدام الكمبيوتر في التعليم؛ حيث تعد البرامج التعليمية بمعرفة مختصين في التربية

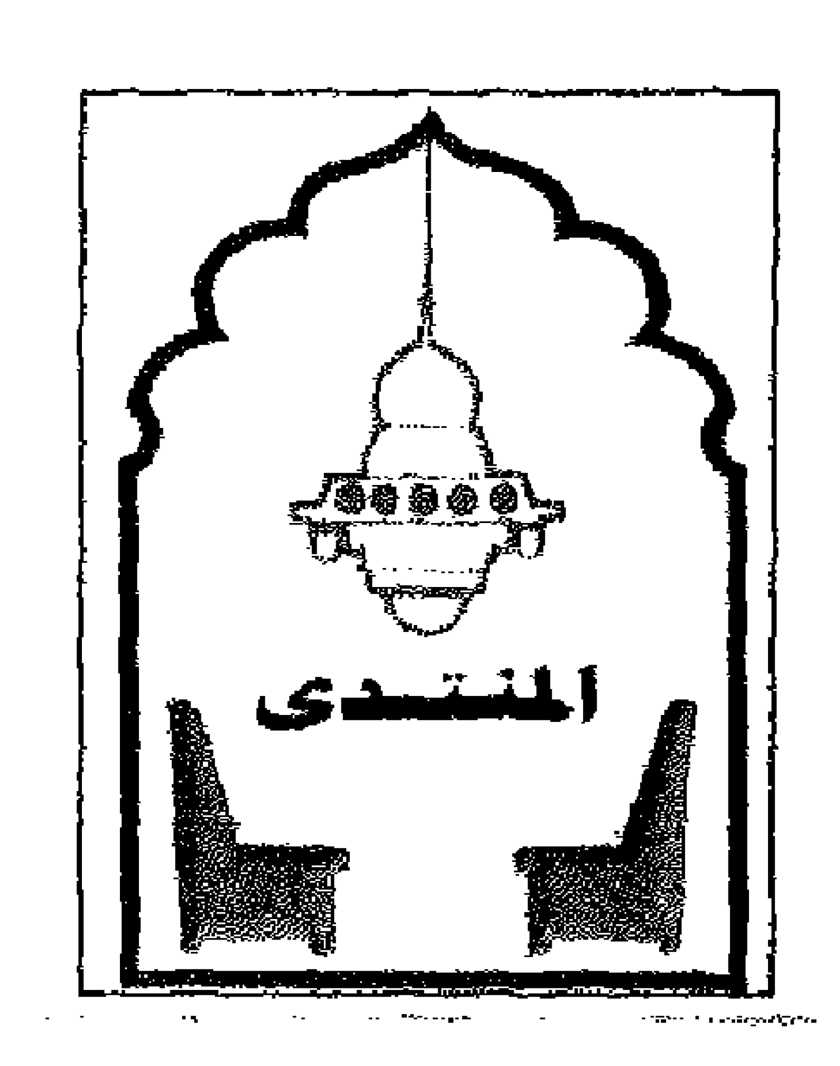
والتعليم، ويغذى بها الكمبيوتر لتبقى في ذاكرته؛ بحيث يمكن للمتعلم أن يستدرج الكمبيوتر ويطرح الأسئلة التي يريد الحصول على إجاباتها، فيتلقى الرد فوراً على الشاشة التي تستخدم للاستقبال والتي تشبه شاشة التلفزيون، ويحتاج وضع برامج الكمبيوتر إلى مهارة خاصة وتعاون بين الفني في الكمبيوتر والفني في التعليم وفق البرامج المراد تعلمها.

٣ - برامج التعليم الذاتي التي تقوم على أساس فكرة التعليم المبرمج والتي يستطيع بها أن يعلم الشخص نفسه بنفسه، وأن يسير في التعليم بحسب سرعته الخاصة، بحيث يقل التركيز على المدارس ويعتمد المتعلم على نفسه، ويسير في التعليم إلى المستوى الذي يناسب قدراته واستعداداته الخاصة.

وواضح أن من الممكن الجمع بين طريقتين أو أكثر وبين أكثر من أسلوب في الأوقات المختلفة بحسب المستوى ونوع الخبرة بما يحقق أهداف التعليم المستمر.

المراجع:

- محمد خليفة بركات، مفاهيم التعليم المستمر أساليبه، جامعة الكويت، مجموعة البحث التي ألقيت في الندوة العلمية العربية للتعليم المستمر، ١٩٨١م.
- محمد أحمد موسى البكري، ودور التعليم في السنة الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الكويت، ١٩٨١م.
- سامي خشبة، مصطلحات فكرية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- إبراهيم محمد إبراهيم الحنكادي، تعليم الكبار ومشكلات العصر، الرياض، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.
- المنظمة العربية والثقافة والعلوم، استراتيجية تطوير التربية العربية.
- عبد الله الدحيم، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، دار العلم للعلامة، ١٩٧٤م.
- عبد الله هنداوي التربية المستمرة: مفهومها، أهدافها مجالاتها.



هل يعيد التاريخ نفسه؟

ماجد بن عيد الحربي

قبل حوالي خمس وعشرين سنة وتحديداً في أواخر عام ١٩٧٣م كان الرئيس الأمريكي وقتها ريتشارد نيكسون في زيارة لمنطقة المشرق العربي قيل عنها إنها تهدف إلى محاولة تسوية النزاع العربي اليهودي؛ وحقيقة الأمر أنها كانت تهدف إلى تحقيق انتصار شخصي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية على حساب حقوق العرب. فوقتها كانت فضيحة ووتر جيت على أشدها ومحاكمة الرئيس قاب قوسين أو أدنى. ولكن لم تشفع له تلك الزيارة أمام محكمة الشعب الحر. فقد أرغم نيكسون بعد عودته على الاستقالة وكاد أن يقدَّم للمحاكمة لولا صدور قرار خليفته بالعفو عنه.

وفي هذه الأيام نجد أن التاريخ يعيد نفسه فها هو كلينتون بين ظهرانينا وبنفس الحجة التي كان يدعيها سلفه. فالهدف المعلن هو دفع عملية السلام بين الفلسطينيين واليهود إلى الإمام وفي واقع الحال ما هي إلا محاولة من محاولات كلينتون الهادفة إلى تحقيق أي انتصار يواجه به خصومه من أعضاء الحزب الجمهوري الذين يعدون العدة لبدء محاكمته في فضيحة مونيكا لوينسكي.

وهنا يحق لأي عربي أن يتساءل: لماذا المنطقة العربية بالذات هي التي يلجأ إليها رؤساء أمريكا لتحقيق الانتصارات التي يحتاجونها أمام شعبهم؟ هل لأننا كرماء بطبعنا أوفياء لأصدقائنا نتنازل بكرمنا المعهود عن حقوقنا لهؤلاء الأصدقاء حتى يظهروا أمام شعوبهم بمظهر الأبطال الذين يحققون الانتصار تلو الانتصار لصالح دولة (إسرائيل) الصديقة، حتى ولو كان ذلك على حساب حقوق العرب وكرامتهم؟ أم لأننا شعب مغلوب على أمره تفرض عليه الحلول الظالمة ويرضى بها دون تردد أو مناقشة؟ وقد وصل بنا الانهزام إلى درجة أننا نعتبر قمة الانتصار أن يأتي عظيم الروم إلى بلادنا ويصدر إلينا تعليماته المقدسة التي نتقبلها بكل فخر واعتزاز، ولا أدل على ذلك من وقوف ما يسمى بأعضاء المجلس الوطني الفلسطيني لرئيس أمريكا في مدينة غزة والتنازل له عن ميثاق الشعب الفلسطيني الذي يعتبر آخر رموز السيادة التي تم التنازل عنها لصالح اتفاقية أوسلو وأخواتها.

وهنا نصل إلى نتيجة مفادها: أن كل ما ذكر آنفاً يدل دلالة واضحة على الاستهانة بهذه الأمة واعتبارها الجانب الأضعف باللعبة السياسية الذي تعوَّد هؤلاء الأعداء على تحقيق انتصاراتهم عن طريقه.

وما أريد أن أقوله لأبناء أمتي هو الانتباه لخطورة الأمر؛ فأمريكا ممثلة برئيسها الذي يعمل بوحي من شعبها تعمل لمصلحة دولة يهود التي احتلت أرضنا ومقدساتنا، وشردت أبناء شعبنا، وقتلت مجاهدينا، وتعمل ليل نهار على مسخ عقيدتنا الإسلامية لإحلال عقيدة التلمود محلها. فالرئيس نيكسون ومن بعده كلينتون مروراً بجميع رؤساء أمريكا المتقدمين منهم والمتأخرين لم يعتلوا كراسيهم إلا بصوت الناخب اليهودي؛ فهم مدينون لهم بالولاء والنضال من أجل قيام دولتهم وتحجيم جميع القوى المعارضة لهم، لا أقول بالمنطقة فحسب ولكن بجميع أنحاء العالم. لذا يجب علينا أن نستيقظ من غفوتنا ونؤوب إلى رشدنا ونحزم أمرنا ونعرف صديقنا من عدونا ونعلن للعالم كله أننا مجاهدون لإعلاء كلمة الله أولاً ثم منافحون عن حقوقنا المغتصبة حتى تعود والتاريخ لم يذكر يوماً من الأيام أن فيه حقوقاً سلبت عنوة عادت بدون القوة وإراقة الدماء. وبكل الأحوال نحن الفائزون بإذن الله ـ تعالى ـ فشهداؤنا في الجنة وموتاهم إلى جهنم وبئس المصير. وإن لم نفعل ذلك فسيأتي يوم نقول فيه: أُكلنا من قبَل يهود كما أُكل الهنود الحمر من قبل الأمريكان؛ وعندها سيلعننا التاريخ ونكون قد جنينا على الأجيال الآتية من بعدنا بإطالة أمد الجهاد ورفع نسبة التضحيات لدرجة ما كان ينبغي أن تصل إليها لولا تخاذلنا. ونحن على يقين أن العاقبة لهذا الدين وأهله، أسأل الله أن لا يجعلنا من الذين قال عنهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

المرأة المسلمة وشموخ الأمة

غازي المهر

لم تحظ المرأة العربية في الجاهلية الأولى بأدنى قيمة، بل كانت مجرد متاع تُباع وتُشترى، حقوقها مهضومة وكرامتها مهدَرة حتى جاء الإسلام فأشرق نوره على البشرية جمعاء، فلانت قُلوب العرب وازدانت عقولهم بنوره، وانزاحت عن عيونهم ظلمة الجاهلية، فحفظوا كرامتهم بحفاظهم على كرامة المرأة العربية حين أحسنوا إليها، ودفعوا إليها حقوقها؛ وحينئذ قامت المرأة المسلمة بإنشاء جيل صالح قام ببناء الحضارة الإسلامية الزاهرة.

حين تلتزم المرأة بالإسلام دين الأخلاق والفضيلة فإنها تستمد منه كل أسباب العفاف والكرامة؛ فهي إن كانت أختاً شرّفت أخاها، وإن كانت ابنة ـ وقد أحسن الأب تربيتها ـ تكن له ستراً من النار، وإن كانت زوجة فهي نصف الحياة، والمسلم لا يكتمل دينه إلا بالزوجة الصالحة التقية، وإن كانت أماً فهي نعم الأم المربية الفاضلة وعليها عبء كبير في تنشئة الجيل القادم، فإن نجحت في تربيته التربية الإسلامية فقد سادت الأمة وعظُم شأنها وإلا فقد هوت في وادي الضياع.

وحين تخرج المرأة من بيتها سافرة متبرجة تسقط من أعين الرجال ـ وهي تحسب أنها أعجبتهم ـ إذ تثير فيهم الشهوات الحيوانية، فكيف تقبل الحرة بهذا؟! وأية كرامة تسعى إليها بخروجها؟! وكيف ستقوم بتربية أبنائها؟! ومتى؟! وهو الأنموذج السيئ القابع في أوحال الفجور، وهم بلا شك مقلدوها ومنها يرضعون العقوق والعصيان والأخلاق المنحلة والشذوذ.

العجب كل العجب من فتاة تدين بالإسلام وتؤدي الصلاة وتصوم رمضان ولكنها تخرج سافرة متبرجة منكرة قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يُرحن ريحها، وإنَّ ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»(١)، وفتاة مثل هذه أقرب إلى النفاق ولا تعي من الصلاة والصوم شيئاً.

تلهث المرأة في مجتمعاتنا العربية للحاق بركب المرأة الغربية، فتسارع في تقليدها الأعمى: في لباسها وخروجها للعمل ومخالطتها للرجال بشتى الوسائل، وهي تظنّ أنها بلغت الحرية التي حُرمت منها في الإسلام، وقد أصاب هذا التقليد عين المرأة وعقلها بالغشاوة، فلم تعد ترى ما حلّ بالمرأة الغربية من ذل وهوان وانحلال، وأنها باتت في قيود الرذيلة والفجور.

وإذا نظرنا إلى حجة بعض النساء اللواتي يخرجن للعمل لأدركنا أنها تريد التقليد الأعمى، فهي تخرج للعمل بذريعة مساعدة الزوج، فأين ثمار تلك المساعدة وهي تنفق كل ما تحصل عليه على الأزياء وأدوات الزينة؛ لتظهر أنيقة جميلة في أعين زميلاتها وزملائها في العمل؟ وعلاوة على ذلك فهي تُلقي أبناءها في مهب الضياع حين تتركهم بين يدي خادمة أجنبية لا تحسن التربية.

تملك المرأة بإسلامها وعفتها مصير الأمة ورفعتها وشموخها وحفظ مكانتها بين الأمم؛ فأية مكانة أسمى من تلك المكانة التي تسعى إليها في ظل الإسلام؟ فرفقاً أيتها المرأة بنفسك ومجتمعك الذي تهدمت أركانه؛ فالمجتمع لا ينجو إلا بك؛ فمتى تُدركين ذلك؟!

---

(١) رواه مسلم، ح/ ٣٩٧١.

ملكة جمال الحظايا والجواري

تركي بن عتيبي الغامدي

عندما كان يشرح لنا مدرس مادة التاريخ في الصف الرابع الابتدائي حال العرب في الجاهلية، وكيف كانت معيشتهم مع الإنسان الآخر ـ المرأة تحديداً ـ كانت تدور في رأسي الصغير مشاهد أسطورية لنساء وُضِعْنَ على دكة وسط السوق ـ أشبه بتلك التي توضع اليوم لعارضات الملابس العارية وأخواتهن بداعي الجمال والغنج والإغراء ـ فينادي النخاس على بضاعته من السبايا والإماء، فيتقدم هذا ويتقدم ذاك، يقلِّب هذه ويتامل تلك، فيدفع الثمن قلَّ أو كثر، فهو ثمن بخس، والحظ الوفير لمن كان سيدها ذا مال وجاه.

إنها صور منوعة أشبه بما يدور اليوم في غير مكان من هذا العالم المجنون لانتخاب الحظايا والجواري، حظايا لأصحاب النفوذ وأرباب المال والمتاجرة بالأجساد، وجوارٍ في شارع الليل والبغاء، والفرق الوحيد ذهاب الإماء والعبيد اليوم طواعية إلى السوق الكبير!

فمن يضع صوته في صندوق انتخابات الفاضلات؟

ومن يحتج على هذا الامتهان لكرامة جعلها الله ـ عز وجل ـ لبني آدم؟

ولكن كيف يحدث ذلك الاحتجاج، ما دام الحياء مذبوحاً على قارعة الطريق تلبية لنداء الشيطان لمشاهدة سطوته على جسد المرأة، وتفننه في إغوائها؟

وكيف يحدث ذلك الاحتجاج، والرجل أيضاً لتلك السطوة يُساق بين الجموع عارياً لعرض ما يحمله حتى بين...؟!

وكما قال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»».

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مكتي واحتي

محمد حمادو أحمد

أيا أم القرى! أهلاً وسهلاً
فضائل مكة الإسلام تترى
ففيك منابع الآيات تُتلى
وقلبك خافق والشوق يسمو
ووجهك مشرق والشمس تجلو
رأيت جبال مكة مشرقات
وماء عيون مكة سلسبيلٌ
وكم في مكتي من معجزات!
إليك مواكب الحجاج تهفو
سيبقى حبك المعقود فينا
ومدحك واجب فرض علينا

إليك تحيتي جبلاً وسهلا
على الآفاق، والظلمات تُجلى
وتنبض بالمنى قولاً وفعلا
على قسمات وجهك قد تجلى
غشاء الليل والصلوات أحلى
وترفع رأسها في الكون أعلى
ويأتي بالشفا عقلاً ونقلا
وكم رفعت لواء الحق عدلا!
وجاءك كل من زكّى وصلى
مدى الأعوام أحوالاً فحولا
لأنك واحتي طفلاً وكهلا

ما أحوجه إليك الآن!

خديجة الأحمدي

الحمد لله الذي جعل الدين يسراً وليس بعسر، وجعل السبيل إلى الجنة سهلاً يسيراً إلا أنه محفوف بالمكاره، والنفس قد جبلت على حب الكسل والدعة، فنرانا نترك أشياء سهلة قد تدخلنا الجنة بسبب لهو أو نسيان أو تقصير.. ولكن الله بعباده خبير؛ فقد رزقنا نعمة الأخوة في الله وهي هدية غالية؛ حيث إن أخاك في الله إذا رآك على منكر نصحك، وإذا رآك ناسياً ذكّرك، وإذا رآك متهاوناً وعظك، وإذا رآك جاهلاً علّمك.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»[1].

وقد جاء في الأثر: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى». ففي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان قد آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان. قال: مَهْ. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردت الخروج فآذنّي؛ فكتب عند خروجه إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ① تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ ـ ٣] . ثم عاتبه وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى وقال: صدق الله ونصح لي عمر. فتاب ورجع.

قال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه؛ فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً.

لذلك علينا بوصفنا إخوة في الله أن لا نترك أخانا إن رأينا فيه تغيُّراً، يكون هنا أحوج منا إلى النصح والتذكير؛ فقد قال أبو الدرداء: «إذا تغير أخوك فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى» وفي ذلك قال ﷺ: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم»[2].

فيا إخوتي في الله! يا أيها المتحابون في الله! ويا أيها السائلون محبة الله! إليكم جميعاً... إليكم البشرى.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ يقول: «حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»[3].

(١) عن كتاب الحب والألفة، للغزالي.

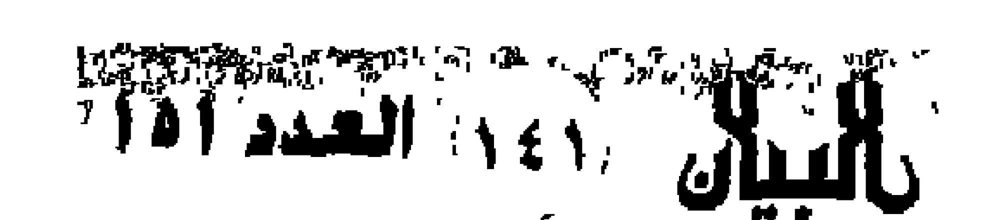
(٢) أخرجه أحمد، ح/ ٣٩٥٥.

(٣) أخرجه أحمد، ح/ ١٨٦٢١.

إن نصراً لقريبُ

عبد الرحمن عبد الهادي العمري

أي حال، مسلمون!	كلَّ يومٍ تشتكون!
في بلاء، في مآس	في قبور تسكنون!
في دموعٍ، في دماءٍ	في شكاوى تقطنون!
إن نظرتم في شمالٍ	أو نظرتم في يمين!
ما لقيتم غيرَ طفلٍ	في بلاء، في أنين!
أو ثكالى قد سكبن الدمـ	ـعَ سكباً في هتون!
أي كربٍ قد دهاكم	كل يومٍ في شجون!
جمرةٌ تحرق قلباً	أيها الكون الحزين!
إنّ نصراً لقريبٌ	إن غدونا صالحين!



أمتي الذبيحة

محمد بن مطخان الرويلي

يا أيها القلم الذي أمسكتُه ... ما لي أراك معانقاً أوراقي؟
ما لي أرى يمناي قد جراتها! ... إياك يا يمناي أن تنساقي
بالله يا قلمي العزيز لترعوي ... أتريد كشف الجرح في أعماقي؟
أتريد تفجير الأسى من خاطري ... وتخطه نظماً على الأوراق؟
انظر إلى مسرى الحبيب محمد ... عبث الطغاة بخيره المهراق
فبنو يهود تغطرسوا في قدسنا ... قتلاً وتشريداً مع الإحراق
هذا وكشمير الجريحة تشتكي ... ظلم الجبان بحقده الدفاق
والصرب عاثوا في سرايفو سروا ... هتكاً وتنكيلاً بلا إشفاق
أما عن الشيشان إن دمارها ... ترك البلاد بذلة الإملاق
قد حار فكري بالتأمل في الألى ... قد أعرضوا عن طاعة الخلاق
وضعوا الدشوش لكي تُغذي دعارة ... وتبثها من أغلب الآفاق
عشقوا المعازف والخنا فهواهمُ ... أرداهمُ بمصارع العشاق
لو أنهم عادوا إلى قرآنهم ... لوجدت شعباً طيب الأعراق

ردود

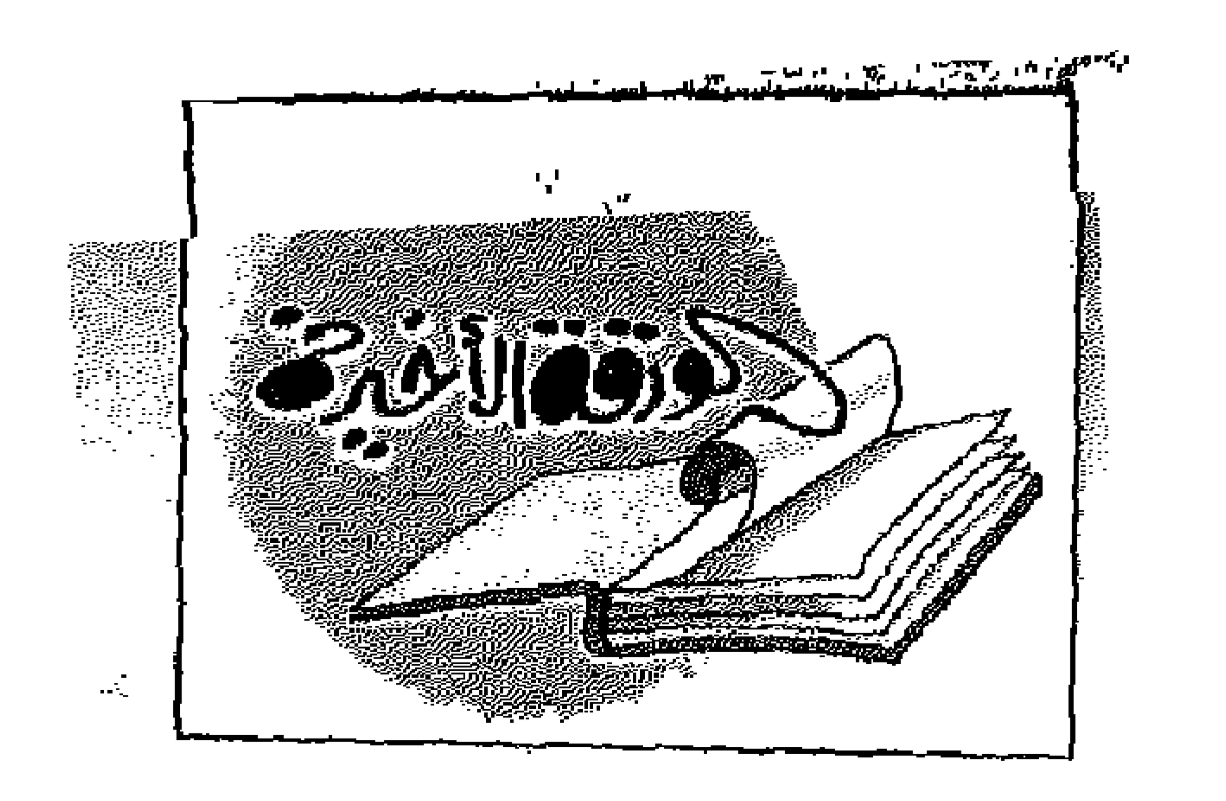
* الأخ: نايف عقاب المطيري: نشكر لك تعاونك الكريم مع مجلتك، ونفيدك بأن اقتراحك محل عناية أسرة التحرير.

* الأخ: الداعية من تشاد: والذي أرسل مقالاً عن أحوال المسلمين في تشاد، نرجو إن يفيدنا باسمه حتى نتمكن من نشر المشاركة.

* الإخوة والأخوات: أمين عبد الرحمن الغنام، د. عبد الرحمن أمين، ميمون بارميش، عبد الله بن شبيب الدوسري، حفيظ الدوسري، علي جبريل أمين، د. حمدي شعيب، داعية من تشاد، سميرة جدي، فاتن سعد الصويلح، أمل القصيمي، فاطمة بنت محمد السليمان: وصلتنا مشاركاتكم الطيبة، سائلين الله ـ عز وجل ـ أن يجعلها في موازين أعمالكم، آملين دوام التواصل والمشاركات مجازة للنشر.

* الإخوة: عمر محمد رزق الله، سعود الصاعدي، حباب بن عطا الله الحيوني، عبد الله منصور العمران، عبد الرحمن اليحيا، زكي صالح الحربول، فهد بن عبد العزيز الشويدخ، محمد الباشا، عبد الرحيم أحمد المسجدي، محمد بن عبد العزيز الفوزان، سعود بن حامد الصاعدي: سعدنا بتواصلكم الكريم مع مجلتكم، ونفيدكم بأن مشاركاتكم مجزة للنشر في المنتدى، وفقكم الله.

* الإخوة والأخوات: محمد معصوم رسول، علي عبد الرحمن العسيري، موسى الزهراني، صلاح معاطي، عبد الله بن سيد شعبان، مبارك ابن يوسف الخاطر، أحمد محمد أشرف، عمر الرماش، يوسف عبد المنعم زين، أحمد الأموي، محمد محمد خليل، عصام محمد النيل، أحمد محمود أبو زيد، محمد علي شماخ، علي سليمان الدبيخي، أبو عبد الله الرحابي، هدى مرهون المرعي: وصلتنا مشاركاتكم الكريمة، وكم سعدنا بهذا التواصل، آملين دوام التواصل، مع تمنياتنا لكم بالتوفيق في المرة القادمة.

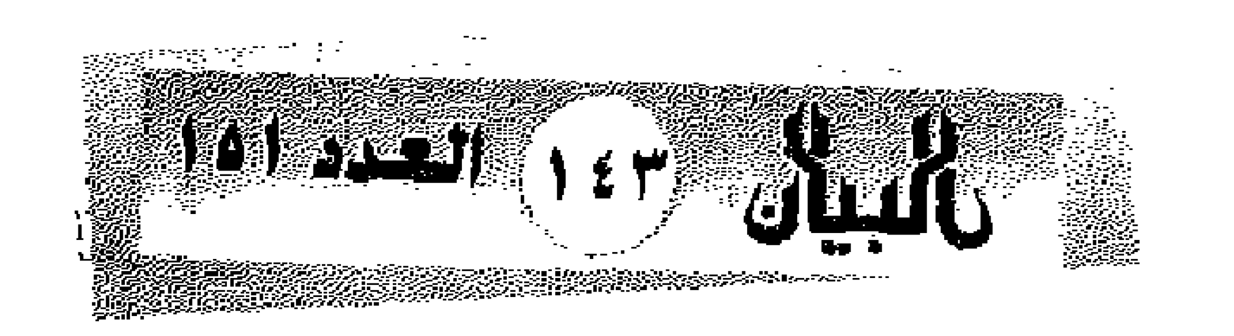


الإرهاب الروسي

د. عبد الله هادي القحطاني

لم يبدأ الروس إرهابهم وغطرستهم ضد المسلمين منذ أشهر فقط، بل إن تاريخ القوقاز تاريخ مليء بكراهية الروس للمسلمين ووحشيتهم في التعامل معهم، كما أنه تاريخ مليء ببطولات المسلمين من أهل القوقاز وتضحياتهم وجهادهم وتحديهم لكل عقيدة دخيلة وطغيان مستبد؛ فما عرفت شعوب القوقاز الذل يوماً رغم تلاحق الإبادة والقمع القيصري أولاً، ثم اللينينيين ثم الستالينيين مروراً بالحقد والإرهاب الروسي الحالي؛ فكل شعب له حق تقرير المصير إلا المسلمين؛ فما أن نشأت أقلية من النصارى في تيمور الشرقية في خضم عشرات الملايين من المسلمين حتى هبت لهم مؤسسات العالم بقضِّها وقضيضها لفرض قضيتهم؛ فتلك تتدخل عسكرياً، والأخرى تقاطع اقتصادياً، وأما الذين لا نعلمهم فهبوا لإثارة الفتن والانقسامات الداخلية، كيف يسوِّغ العالم الغربي احتفاله بألفيته الثالثة والتاريخ يسجل وحشيته وطغيانه لأمم المستقبل بالحرب والعار والظلم والطغيان ليس برفات ودم فقط بل بلهيب الصورة وصواعق الصوت من خلال وسائل الإعلام ليبقى وصمة عار للمستقبل؟

إن الروس طغوا وبغوا وعاثوا في أرض المسلمين أسوأ الفساد؛ فقد خلفوا أفغانستان خراباً، وأبادوا غالبية المسلمين في بلاد القرم، وسعَّروا هجمتهم على من تشبث بالعزة منه وأبى الضيم والمهانة. حربهم في الشيشان حرب إبادة عرقية دينية لا هوادة فيها لاستئصال شعب بأكمله وعقيدة برمتها. هم لا يريدون احتلال الشيشان من أجل مصالحهم الاقتصادية



والسياسية وإخماد أي تململ للجمهوريات الإسلامية الأخرى فحسب، وإنما رغبة جامحة في إبادة ذلك الشعب القليل العدد القوي الإيمان بدينه وعقيدته الذي ما فتئ يذيقهم الويل ويستعصي على الطوق لعقود طويلة، ولكننا نؤمن بأن العاقبة للمؤمنين الصابرين مهما جار الباطل وزمجر وأرعد.

ومن أهم الدروس التي أوضحتها هذه الحرب ضد من يطالب بحقه ويحرس داره وأهله أن «العالم الحر»! بمؤسساته وقوته الاقتصادية منحاز للباطل ما دام يسير في فلكه ويحقق مصالحه، ولقد كانت فلتة من هنتنجتون حين أعلن أن العالم يمر بصراع بين الحضارات، وخاصة الإسلامية والغربية. يتمركز ذلك الصراع حول محورين أساسيين: العداوة التاريخية والمصالح الحيوية، وأدواتهما: المقاطعة الاقتصادية، والحصار السياسي، والتدخل العسكري، وميزانها الكيل بمكيالين؛ رغم تدخُّل كثير من الساسة الأمريكيين والغربيين لدحض مثل هذه النظريات التي أثارت حفيظة كثير من المسلمين الغيورين الذين ما زال بعضهم يظن بعض الخير في الوصولية الغربية.

فهلاَّ نهضنا لنصرة إخواننا في الشيشان وهم في أمسِّ الحاجة لدعائنا ووقوف العالم الإسلامي بمؤسساته السياسية والاقتصادية والإعلامية وقفة صادقة مع الحق ونصرة إخوانهم المظلومين؛ قبل أن يفوت الأوان؛ وحينئذ لات ساعة مندم.

Printed in Egypt

مطابع الأهرام بكورنيش النيل